البحث العلمي .. وأهميته

للمهندس وجيه السمان

صورة واضحة ، لنشاط الابحاث العلمية لدى الدول التي تقود الحضارة، وتدفع مواكب التقدم والتطور الى الامام ؟

لقد تركزت اسس المدنية الحاضرة على عنصرين هامين جداً ؛ هما : العلم والتكنيك . واذا تبسطنا في دراسة جميع المظاهر الاخرى من اجتماعية وسياسية لوجدناها نتيجة لتقدم هذين العنصرين .

وليس ادل على ذلك ولا اقطع بالحجة مما نشاهده من أن اعرق الامم حضارة هي اكثرها تقدماً في علومها وصناعتها . ومن هنا نرى التسابق بين الامم على خدمة العلم لتنميته وتثميره ليؤتي اكلاً تنتفع بها تلك الدول وتنال سبقاً وقوة في السلم والحرب .

ولم يحصل هذا التقدم العلمي الا بفضل الجهود التي تبذلها البشرية في البحث العلمي ، النظري منه والتطبيقي ، فقد اخذت اهمية البحث تزداد وخطورته تنمو حتى غدت الدول الكبرى تخصص له المليارات سنوياً وهي راغبة في اكثر من ذلك .

كان العلماء حتى بداية هذا القرن ، وجلهم من الاساتذة ، يكرسون قسماً من وقتهم للتدريس وقسماً آخر للدرس والبحث العلمي . وتختلف النسبة بين هذه القسمين باختلاف العالم واهتمامه الشخصي بالبحث . فكان بعض العلماء يهتم بالبحث قبل كل شيء ولا يعتبر التدريس الا واسطة لكسب القوت ، بينما الطرف الآخر يعتبر التدريس كل شيء في مهنته ، وبين هذين الطرفين درجات .

غير انه نشأت في هذا القرن طائفة من العلماء انقطعت للبحث وخصصت له كل اوقاتها وهي لا تقوم بالتدريس الا مصادفة ، اذا كلف بعضها بذلك ، وظهرت **مهنة جديدة هي مهنة الباحثين العلميين**، وهم كثيراً مايكونون غير مرتبطين باية مؤسسة جامعية، وانما ارتباطهم هو لشركة صناعية كبرى **او معهد بحوث** .

واصبح البحث العلمي عملاً مستقلاً كما قلنا يزداد عدد **القائمين به عاماً بعد عام** ، فيبلغ عشرات الالوف في بعض الدول . ومن يطالع اخبار السباق الجاري بين مختلف الامم لزيادة عدد الافراد العلميين لديها ، يجد وقائع **مدهشة حقاً** ، في عامي ١٩٥٥و١٩٥٦ قامت ضجة كبرى في العالم الغربي حول التقدم العلمي الذي احرزه **الاتحاد** السوفيتي . وأخذت كل دولة من دول اوروبا الغربية وكذلك الولايات المتحدة ، تدرس احوالها الخاصة وتتفقد نقاط الضعف في جهازيها : العلمي والفني ، وأعدت كل دولة من هذه الدول برنامجاً طويل الامد لزيادة عدد الافراد العلميين ، **فقررت فرنسا مثلاً مضاعفة من تخرجهم من المهندسين سنوياً خلال عشرة أعوام** .

وقامت انكلتره بحملة واسعة لزيادة عدد العلميين ، فأعلنت عام ١٩٥٦ عزمها على ايصال عدد المتخرجين في العلوم الى ضعفهم في عام ١٩٧٠ ، **بحيث أن الجامعات الانكليزية التي خرجت في عام١٩٥٦: ٦٥٠٠ مجاز في العلوم ستخرج عام ١٩٧٠ : « ١١٠٠٠ » مجاز** . كما ان مدارس الهندسة والمعاهد الفنية التي خرجت في ذلك العام ٩٥٠٠ مهندس وفني ستخرج عام ١٩٦٢ «٢٣» الفاً منهم .

وأخيراً نرى في اليابان مثالاً صارخاً ، فقد كانت جامعاتها عام ١٩٥٩ تخرج سبعة مجازين في الاداب والفنون مقابل ثلاثة علميين ، لكن هذه النسبة ستصبح **معكوسة بعد خمسة أعوام من ذلك التاريخ .**

والسبب في هذا الاقبال على العلم والهندسة هو أن حضارتنا الحالية بحاجة متزايدة الى هذه الفئة من الناس ، ذلك لأن البحث العلمي أصبح عملاً قائماً بذاته وأصبح عدد الأفراد العلميين المشتغلين بالبحث يفوق اضعاف اضعاف عدد المشتغلين بالتدريس ، ولولا هذه الجيوش الجرارة من العلميين لما حصل هذا التقدم المدهش الذي نشاهد آثاره كل يوم والذي يسير بخطى آخذة مع الايام اتساعاً .

على سبيل المثال نسرد الارقام الآتية التي تعطي عدد المشتغلين بالبحوث الاساسية في بعض الدول ، ونقصد بالبحوث الاساسية البحوث العلمية غير التطبيقية : كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية والبيولوجية :

فرنسا	٦ الاف
انكلتره	٨ الاف
المانيا	٦ الاف
الولايات المتحدة	١٥ الفاً
الاتحاد السوفيتي	٢٠ الفاً
ايطاليا	٤ الاف
هولنده	٥ الاف
بلجيكا	٣ الاف
سويسرا	٣ الاف
البلاد السكاندنافية	١٢ الفاً

اليابان ٨ الاف
اسبانيا الفان
الهند ٦ الاف

اما في العلوم التطبيقية ، فان عدد الباحثين كبير جداً ، ولا ادل على ذلك من استعراض موازنات البحث العلمي لدى مختلف الدول . ويؤسفني الا تكون لدي احصاءات جديدة ، فان اكثر التي لدي ترجع الى تسع سنوات خلت ؛ اي الى عام ١٩٥٣ :

بلغت موازنات البحث العلمي الارقام الآتية :

في الولايات المتحدة ١,٤٪ من الدخل القومي ، اي مايعادل ١٠ مليارات من الليرات السورية .

في الاتحاد السوفيتي ٠,٩٪ من الدخل القومي .
المانيا ١ ٪ من الدخل القومي .
انكلتره ٠,١٨٪ من الدخل القومي وتعادل ١,٢٥ ملياراً .
هولنده ٠,٩٨٪
كندا ٠,٥٥٪
فرنسا ٠,٥٠٪ وتبلغ هذه ١٠٠ مليار فرنك اي ما يعادل ٧٠٠ مليون ليرة سورية
سويسرا ٠,٤٥٪
ايطاليا ٠,٤٥٪
البلاد الاسكاندنافية ٠,٣٪

ولا ريب في ان هذه الارقام قد زادت كلها ، اذ يكفي ان نسوق على

سبيل المثال ان مؤسسة شؤون الفضاء الامريكية - وحدها - التي تجري الدراسات والتجارب على الصواريخ والاقمار تنفق الان في السنة ما يقارب مليار دولار اي حوالي سبعة مليارات من الليرات السورية .

الاوجه المختلفة للبحث العلمي

١ - **البحوث الاساسية** : وهي البحوث التي تجري في العلوم الاساسية التي هي ركيزة بقية العلوم والفنون ، وهي : الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وتقوم بها في العالم الجامعات والمؤسسات المستقلة او التابعة للجامعات وكذلك المعاهد العليا .

٢ - **البحوث التطبيقية** : وتشمل العلوم التطبيقية كالطب والزراعة والجيولوجيا والصناعة بمختلف انواعها وفروعها الواسعة . وتقوم بهذه البحوث الوزارات والمؤسسات التابعة لها ومدارس الهندسة العليا والمؤسسات الفنية والشركات الصناعية الكبيرة ، وعددها وافر جداً .

٣ - **البحوث الموجهة** : وهي كل نشاط علمي له غاية معينة ويسير وفق برنامج محدد . وتشمل بعض البحوث الصناعية الخاصة ولكن اكثرها يدخل في نطاق البحوث العسكرية الحديثة ، ولا يرد ذكرها كثيراً بالرغم من اهميتها الكبيرة لانها تجري تحت ستر الكتمان الشديد . ففي الولايات المتحدة تقوم الاقسام الثلاثة للقوى المسلحة وهي : الجيش والبحرية والطيران ببرنامج بحوث واسع جداً . وان الاعتمادات الضخمة المخصصة لها تسمح لها بان تحول جزءاً هاماً مما تنفقه الى البحوث الاساسية التي تجري في الجامعات والمؤسسات .

ومن السهل ادراك ميكانيكية هذه الظاهرة الجديدة التي هي ولوج الدفاع الوطني الى قطاعات لم يكن دخوله اليها ليخطر بالبال . ذلك لان العلم قد

اصبح الان كلا كبيراً وان فصوله المختلفة التي كانت فيما مضى مستقلة عن بعضها بعضاً قد اصبحت الان متماسكة جداً .

لنأخذ مثال الصواريخ كسلاح عابر للقارات . فهي سلاح عسكري ولذلك فهو بين ايدي العسكريين . وان دراسته وضبطه وصنعه واطلاقه تتطلب تعاونا تاما بين الافراد العاملين المشتغلين في مختلف الفروع .

يقوم الرياضيون بدراسة محارك الصواريخ والكيميائيون بدراسة وقود الصواريخ والمدنيون بالخلائط المعدنية الخاصة التي تصنع منها اجزاء الصاروخ ومحركاته والفيزيائيون الترموديناميكيون بدراسة الاحتراق وما ينتج من قوة دافعة ،والالكترونيكيون بدراسة الدارات المعقدة وصنع الادمغة الالكترونية التي توجه مختلف مراحل الصاروخ والفلكيون بتوجيه الصاروخ في السماء .

لذا ، فان الصاروخ العابر للقارات يتطلب منذ تصميمه الى انتهاء تجربيه وارتفاعه في الجو ، استنفار جهود المئات من العلماء المتخصصين في حوالي عشرين من الاختصاصات المختلفة .

ومن البدهي ان هذه الاسلحة حينما تسمح باطلاق الاقمار الصنعية تكون قد ادت الى العلوم الاساسية بعض الجميل وسددت بعض الدين فعوضت بذلك عن توقف تقدم العلم خلال مدة البحوث المكتومة .

ثمة حقيقة اكيدة لا مجال لانكارها ، وهي ان تقدم وسائل التدمير والهلاك في السنوات العشرين الماضية قد اكسب البحوث الاساسية عشرات السنين من التقدم ، لأن الاعتمادات الضخمة التي تخصص لهذه الاسلحة يعود منها على العلوم الاساسية نصيب يفوق اضعاف مايخصص بالتقتير على هذه العلوم مباشرة وان تقدم وسائل توليد الطاقة النووية لم يأت الا من الجهود الضخمة التي بذلت في

كثير من بلاد العالم للحصول على القنابل الذرية والنووية وعلى تحسينها . وماذا كان يحل بهندسة الالكترونيات لولا جهاز الرادار العسكري .

لكل أمة تقاليدها الخاصة في البحث العلمي ، وقد تصطبغ هذه التقاليد في الأمة الواحدة بصبغات اقليمية ، ولكن اتساع البحث وتداخله ، والتعاون الدائم بين مختلف الباحثين يجعل بجمل الأمة تتبنى نظاماً موحداً للتعليم تنتج منه وسائل موحدة للبحث . وذلك ماعدا بعض الدول الكبيرة التي احتفظت ببعض التقاليد الاقليمية كالاتحاد السوفييتي ، فقد احتفظت فيه الجمهوريات المختلفة بشخصيتها ولغتها الخاصة .

ولنستعرض الآن بايجاز احوال البحث العلمي في بعض الدول :

١ — في الولايات المتحدة :

يمتاز البحث العلمي في امريكا بمساهمة واسعة من جانب القطاع الخاص فجميع الشركات الصناعية ، وخاصة الكبيرة منها تخصص للبحث العلمي التطبيقي نسبة هامة من ميزانيتها ، ومن هذه الشركات : جنرال الكتريك ، جنرال موترز دي بون دوغور ، بل ، وستنغهاوس ، آر سي اي ، شركات الفولاذ وشركات البترول ، الخ. تنضم اليها الجامعات التي اكثرها هنالك مؤسسات خاصة بخلاف الجامعات الأوربية التي هي حكومية .

تنفق الصناعة في امريكا على البحوث العلمية سنوياً حوالي مليار ونصف من الليرات السورية يخصص القسم الأعظم منها للبحوث التطبيقية ، ومع ذلك فان بعض الشركات تنفق في مختبراتها الخاصة مبالغ هامة على البحوث الأساسية . فشركة الصناعات الكيميائية دون دوغور المشهورة تنفق حوالي ٥٠ مليوناً من الليرات

السورية في البحوث الأساسية . وهو مبلغ ضخم ، اذيفوق ميزانية المركز القومي الفرنسي للبحث ، والذي لاتزيد موازنته السنوية على ۳۰ مليوناً من الليرات .

وفي الولايات المتحدة مؤسسة رسمية للبحث العلمي هي المؤسسة القومية للعلوم ، لها صلاحيات واسعة فتسعى في ايجاد بعض التركيز في الجهود العديدة المبعثرة التي يمتاز بها البحث العلمي في امريكا ، وهي تمول بعض مؤسسات البحث وتشرف على هيئات البحث الحكومية .

على ان القسم الأعظم من البحث يأتي من الجامعات التي تمول بالهبات ، وقد نشطت الجامعات الاميركية نشاطاً زائداً بدأ مع العشر الخامس من هذا القرن ، وذلك بعد أن أتاها فيض هام جداً من كبار العلماء الأوربيين الذين هاجروا من أوربا هرباً من الاضطهاد العنصري او السياسي النازي والفاشيستي ومن الحرب أيضاً . ففتحت الجامعات الاميركية أبوابها لهم وتجنسوا بالجنسية الاميركية . وقد كانت لهم اليد الطولى في تقدم البحوث الذرية التي انتهت بفوز امريكا في صنع القنبلة الذرية وبتفردها بالسلطة الذرية حتى صيف عام ١٩٤٩ حين فجر الاتحاد السوفيتي اول قنابله الذرية .

يجري البحث العلمي في امريكا على طريقة اميركية خاصة تقوم على التخصص الضيق . وهذه الطريقة هي اتفاقية البحث ، وخلاصتها ان العامل العلمي ، او جماعة من العلميين يتقدم الى الحكومة بمشروع للبحث في موضوع معين ، وبعد الاتفاق معها عليه ، وتوقيع العقد يقوم هذا الطرف ببحوثه ، ويمول العمل غالباً من قبل الجيش الذي يشرف الآن على أكثر من نصف البحوث البحتة

٢ – في الاتحاد السوفياتي :

تختلف الاسس هنا عما هي عليه في الولايات المتحدة ، لانه لاوجود هنا للمؤسسات الخاصة . فكل مؤسسات البحث حكومية وتشرف عليها **اكاديمية العلوم السوفياتية** اشرافاً يجعل في يديها تركيزاً شديداً يعود على البحث العلمي باحسن النتائج .

وقد جرت تقاليد روسيا القيصرية على تشجيع البحث العلمي ، وجاءت الثورة فقوت هذه التقاليد وغذتها بالمال وبالتشجيع ووجهتها في البداية بعض التوجيه نحو التطبيق ، لكنها عادت فقوت الجهود تقوية كبيرة للسير في القطاعات الجديدة للبحوث الاساسية ، كالذرة والالكترونيك والصواريخ ، ولذلك فقد شاهد العالم ماشاهده من تقدم الاتحاد السوفييتي في مضماري الذرة والفضاء .

ان نواتي البحث العلمي في الاتحاد السوفييتي هما **موسكو ولينينغراد** وتقوم الجامعات بمساهمة محسوسة في البحث ، ولكن النصيب الاوفر منه يأتي من مؤسسات البحث ، وتقوم اكاديمية العلوم كما قلنا بدور المنظم والمنسق بالنسبة لمجموع جمهوريات الاتحاد ، ولذلك فان الاتحاد السوفييتي ينفرد عن غيره من الدول بانه سلم مقاليد البحث الى علمائه ووضع بين ايديهم لتحقيق غاياتهم اعتمادات ضخمة جداً .

ومن مظاهر هذا الوضع الخاص كثرة عجيبة في النشرات العلمية التي تربو على المائتين ، تصدرها الاكاديمية ، وان نشرة المراجع التي هي من جملتها وحيدة من نوعها في العالم بوفرة التحاليل التي ترد فيها عن جميع النشرات العلمية التي تصدر في العالم .

وتباع الكتب العلمية والفنية هنالك باثمان بخسة لاتزيد عن عشر الاثمان

التي تباع بها مثيلاتها من الكتب الامريكية او الاوربية . ويقوم دكاترة العلوم واعضاء الاكاديمية بنشر البحوث الوافرة ، ويكتبون قسماً منها للجمهور ، مما يساهم في نشر التقدم العلمي في الاوساط الشعبية .

وفي الاتحاد السوفييتي الان رغبة في لم الجهود المبعثرة في البحث العلمي ؛ ونذكر على سبيل المثال **انه تبنى الآن في سيبريا مدينـــة علمية على نهر اوبي** تقع على ضفاف بحيرة او بسك الاصطناعية وتبلغ تكاليف المرحلة الاولى منها حوالي ١٥٠ مليوناً وسيسكنها في خلال اربعة اعوام حوالى ٢٠ الفاً من الافراد العاملين والفنيين موزعين على اثنتي عشرة مؤسســة مختلفة مختصة في : الرياضيات وفيزياء النواة والفيزياء الحرارية ، وسرعات الاحتراق والكيمياء غير العضوية والجيولوجيا والجيوفيزياءوالهدروديناميكا والمكانيك والالية والالكترونيك والاقتصاد والاحصاء وعلم الاجتماع والبيولوجيا التجريبية .

وتوضع التصاميم لمدينتين اخريين من هذا النوع احداهما في اركوساك والثانية في القسم الاوربي من اراضي الاتحاد .

٣ — في انكلترة

لقد كان البحث العلمي دائم الازدهار في انكلترة ، ودليل ذلك سلسلة العلماء الانكليز الكبار الذين تعاقبوا على حمل مشعل العلم في القرن التاسع عشر وفي هذا القرن ، وقد ساهمت انكلترة في فترة مابين الحربين في بحوث الذرة اكبر مســاهمة على يد العالم ردرفورد وصحبه في مختبر كفنديس بجامعة كمبريدج ، حيث تمرن اكثر علماء الذرة في العـــالم ، كما قامت بجهود كبيرة في ميداني الالكترونيك فكان اختراع الرادار ، والطب فكان اكتشاف البنسيلين وقد نشط البحث كثيراً بعد الحرب الاخيرة فتقدمت انكلترة في مضمار

الطيران النفاث والصناعة الذرية فكانت ثالث قوة ذرية في العالم اذ فجرت قنابلها الذرية عام ١٩٥٢ والنووية بعد ذلك بقليل ، وساعدها تقدمها في الألكترونيك على صنع المرقب الاشعاعي الضخم في جوردل بانك .

يتقاسم البحث العلمي في انكلترا القطاعان : **العام والخاص** . فالقطاع الحكومي منظم اشد التنظيم وتشترك فيه عدة وزارات ، وفيه عدة مجالس للبحث ولها ان تتعاقد من اجل بحوث معينة مع مختلف الجامعات او المؤسسات الخاصة .

والجهاز الحكومي الاكبر للبحث هو **مصلحة البحوث العلمية والصناعية** وتدير ١٤ فرعاً منها مختبر الفيزياء القومي .

وهنالك جمعيات كثيرة غير حكومية لها تأثير كبير على البحث ، مثل **الجمعية الملكية** ، وهي شبيهة بأكاديمية العلوم ولكن لها شهرة اوسع في الداخل والخارج وفيها خمسمائة عضو منتخبين من جميع نواحي الامبراطورية ،ولهاسلطات تسمح لها بتمويل بحوث علمية هامة .

يبلغ عدد الجامعات الانكليزية ٢٢ جامعة ،منها خمس احدثت بعد الحرب الاخيرة وكلها تمول من موازنة الحكومة وتوضع موازناتها لمدة خمس سنوات .

يقام الآن في كمبردج معهد اسمه معهد تشرشل ، سيبلغ عدد طلابه ٦٠٠ طالب وسيعمل في البحوث الاساسية والتكنولوجية بعد ان يعد الطالب مدة ثلاثة اعوام وتقدر نفقات تأسيس هذا المعهد بحوالي ثلاثين مليوناً من الليرات السورية ، يأتي اكثرها من الهبات الخاصة .

٤ - في المانيا :

لقد بلغ البحث العلمي في المانيا قبل الحرب العالمية الأولى اوجه وكذلك في السنوات الأولى من البرهة التي فصلت بين الحربين . فكان الى جانب البحث

الخاص ، وهو غني وكثير الانتشار في صناعات البصريات والكيمياء والالكترونيات بحث رسمي مركز في الجامعات ويشرف عليه معهد الامبراطور «ويلهلم» اشرافاً كبيراً . وقد أحدث هذا المعهد في عام ١٩٠٧ ولعب بالنسبة للبحث العلمي دوراً هاماً جداً قرابة اربعين عاماً حتى عام ١٩٤٥ حيث قسمه الحلفاء . وقد اقترح الفيزيائي الألماني الشهير ماكس بلانك صاحب نظرية الكم ، قبل وفاته بقليل اقامة مركز مماثل له ليقوم بحمل مشعل العلم فأجيب الى طلبه واحدث معهد ماكس بلانك فحل محل معهد القيصر ويلهلم ، واصبح بدلا من الاشراف مثله على ١٢ معهد بحث ، يشرف على اربعين معهداً موزعاً في المانيا الغربية يعمل فيها الفان ومائتا عالم وباحث وتتوزع اختصاصات هذه المعاهد كما يلي :

اربعــــة للعلوم الانسانيــة و١٧ للفيزياء والكيميــــاء و١٩ للطب والبيولوجيا الاساسية .

وتبلغ الموازنة السنوية لمعهد بلانك حوالي ٧٥ مليوناً من الليرات السورية وقد ذكرنا ان السياسة النازية كانت قد اخلت مختبرات البحث من عــدد هام من عناصرها الفعالة ، التي هاجرت الى الولايات المتحدة ولذلك فقد ضعفت البحوث الأساسية في المانيا ، وزادت الحرب هذا الضعف لتركيز الحكومة جهود البحث على التسليح . **لذلك رأينا العلماء الالمان في عام ١٩٤٦ يبدأون من الصفر لينشئوا** بحوثهم من اساسها بعد ان اضطروا ان يطلعوا على مراحل تقدم العلم خلال سنوات الحرب من تلامذتهم الذين هاجروا الى امريكا .

٥ – في فرنسا

هنا ايضاً تقاليد علمية قديمة بناها اجيال من العلماء تعاقبوا في فرنسا منذ ديكارت وباسكال ولافوازيه ، وخلفهم في القرن التاسع عشر علماء

سجل لهم التاريخ مآثر عديدة مثل **امبير وباستور وكوري** . ولكن الحربين العالميتين اللتين خاضتهما فرنسا افقدتاها عدداً هاماً من الشباب كان يرجى ان ينبغ من بينهم عدد كبير من العلماء .

يبلغ عدد الجامعات في فرنسا ١٧ **جامعة** تقوم كلها بالبحوث الاساسية الى جانب عدد من المؤسسات كالمركز القومي للبحوث وموازنته ٣٠ مليون ليرة سورية ومؤسسة الراديوم ومؤسسة هنري بوانكاريه والكوليج دو فرانس ،الخ واكثر هذه المؤسسات تجمع في باريس اوفي ضواحيها .

تشتهر فرنسا بتقدم العلوم الرياضية والفيزياء النظرية التي يعمل فيهـــا حوالي ٢٠٠ باحث .

والى جانب البحث الحكومي تقوم البحوث الصناعية الخاصة ذات الفروع العديدة . وغايتها تحسين المواصفات القائمة ودراسة المواد الجديدة . وقد برهن الطيران الفرنسي اخيراً على ان له بحوثاً قيمة جداً كما برهنت لجنة الطاقة الذرية على امكانات كبيرة جعلت فرنسا رابع دولة ذرية .

هذا عرض اجمالي لاوضاع البحث العلمي في امهات الدول التي تحتل المقاعد الامامية في حضارة القرن العشرين ، ونستبين من الارقام التي سردناهامبلغ الاهمية المعقودة على هذا النوع من النشاط ، فهو الذي يحددمستوى حياة الامةوازدهارها الاقتصادي وقوتها العسكرية ، وبالنتيجة هو الذي بنتائجه يعطي للامـة التصنيف الذي يحلها مقامها الذي تستحقه في قائمة الامم المتمدنة .

يقول العالم انشتين : **اذا ضعف البحث العلمي في أمة من الامم جمدت حياتها الفكرية وضاعت عليها امكانات كثيرة للتقدم المقبل .**

واني لاشبه البحث العلمي بالزراعة ، ينفق فيه الانسان الجهد والمال فيقوم عامل الزمن بتنمية النبتة حتى تؤتي اكلها ثمرات يانعـــة هي المكتشفات العلمية والتكنيكية التي تحمل صنائعها للانسانية وتدفع المدنية والحضارة الى الامام .

موقفنا ازاء الفلسفة

للدكتور جميل صليبا

تمهيد عام . موقفنا ازاء الفلسفة العربية القديمة
موقفنا ازاء الفلسفة الغربية . حاجتنا الى فلسفة
عربية متجددة .

— آ —

١ — تمهيد عام

لما اتسع سلطان العرب وانتشرت في دولتهم آراء ومذاهب واعتقادات مخالفة لروح الاسلام ، رأى الخلفاء العباسيون أن يحثوا العلماء على وضع الكتب للذب عن حياض الدين ، والرد على المجوس والدهرية وغيرهم . فلم يجد هؤلاء العلماء أمامهم إلا **وسيلة واحدة لدحض حجج المخالفين** لهم في العقيدة ، وهي **مقاضاتهم الى حاكم العقل** ، لأن الاعتماد على المنقول وحده قليل النفع في حق من لا يؤمن بالكتاب والسنة ؛ ولا يذعن الا للضروريات العقلية . دع أن **من أصول الاسلام النظر العقلي** ، والاعتبار بسنن الله في الخلق ، والتعويل على الدليل في الدعوة الى الحق . فغير عجيب اذن ان يشتغل المسلمون بالعلوم العقلية ، وأن يتشوقوا الى نقلها الى اللغة العربية .

ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولة الامويين ، **وترجمت جملة من كتب العلوم والصناعة قبل نهاية القرن الاول ، ثم ترجمت كتب الحكمة في عهد أبي جعفر المنصور ، ثم جاء المأمون ، وكانت له في هذه العلوم رغبة شديدة فأوفد الرسل الى بلاد الروم لاستخراج علوم اليونانيين ، ثم حمل المترجمين على نقلها الى اللغة العربية ،** فنقلوا كتب (افلاطون) و (ارسطو) ، و (تيوفرائس) و (جالينوس) و (فرفوريوس) وشروح الاسكندرالافروديسي ،وبعض كتب(آمونيوس) و (تامسطيوس) و (افلوطين) وغيرها . ويكفي ان يطلع المرء على ماتضمنته فهارس الكتب القديمة كفهرست ابن النديم اوكشف الظنون للحاج خليفه من اشارات سريعة الى الكتب المترجمة عن السريانية واليونانية والفارسية والهندية ليدرك مبلغ هذه الحركة العلمية من الشمول والاحاطة فان العرب لم يدعوا علماً عقلياً الا ترجموه ، وان نالتهم فيه مشقة ، ولم يزالوا يوسعون ثقافتهم بالاقتباس عن غيرهم حتى اجتمع لهم بعد مدة قصيرة ثروة فكرية كبيرة مكنتهم من النضال عن العقيدة بالاعتماد على مقدمات عقلية تسلموها من خصومهم .

ولم يمض على نقل العلوم الفلسفية الى اللغة العربية الا القليل حتى **انتقل العرب من مرحلة النضال عن العقيدة الى مرحلة الانتاج العقلي المجرد** فعكفوا على شرح ماترجموه وتوضيح ما اقتبسوه متعمقين في استخراج نتائجه واكمال مسائله بنور العقل وجودة الفكر ، حتى وصلت بهم دولة العلم الى أوج قوتها ، وبلغت بهم الى أقصى غايتها ، ولم يزالوا كذلك يتحسسون نور المعرفة حتى ابدعوا لأنفسهم فلسفة جديدة ملائمة لعقائدهم الدينية وحاجاتهم الفكرية .

وليس مقصودنا الان ان نستقصي ما اهتدى اليه العرب من آراء فلسفية جديدة ، وما زادوه في العلوم العقلية والتجريبية من حقائق ، فان استقصاء ذلك يحتاج الى سفر كبير ، ولكننا نريد ان نذكر ان **ميل العربي الى ترجمة كتب الاوائل يدل على ميله الى مجاوزة ذاته بالاقتباس عن غيره فلما تم له نقل العلوم الى لغته عمل على انضاجها واجتناء ثمراتها** حتى بز غيره من الامم بنضاله الثقافي .

ولم يكن موقف العربي ازاء الفلسفة اليونانية موقف المقلد الذي يأخذ مايصل اليه من العلم دون اعمال الروية فيه ، بل كان موقفه ازاءها موقف الناقد الذي يختار من الحق مايلائمه ويحتاج اليه . وليس ادل على هذا الاختيار الواعي من موقفه ازاء فلسفة افلاطون وارسطو ، فقد كان

نصيب المعلم الاول من النقل اعظم من حظ افلاطون لا لأن كتبه كانت اكثر انتشاراً واقرب متناولا فحسب ، بل **لأن العرب وجدوا فيها مايوافق ميولهم ومنـــازعهم من استدلالات عقلية وأقيسة منطقية ،** فأخذوا بها اولا اخذاً مجرداً ثم عملوا على التوفيق بينها وبين عقيدتهم الدينية ، ولم يزالوا يوضحون ماغمض من مسائل الفلسفة اليونانية ، وما التبس من مقالاتها حتى بلغ النتاج الفلسفي بفضل الكندي والفارابي وابن سينـــا والغزالي وابن رشد درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد .

وانه لمن العجيب حقاً ان ينسى الناس في عصرنا هذا أن هؤلاء الفلاسفة كانوا ائمة العالم خلال عدة قرون ، وان كتبهم التي ترجمت الى اللغة اللاتينية لم تقتصر على حفظ التراث اليوناني فحسب ، بل اثرت في اخراج العقل الاوروبي نفسه من ظلمة الجهل الى ضياء العلم ، **ولولا تغلب الاجانب على العرب واستبدادهم بالسلطان دونهم لما تأخر العقل العربي ، ولا ركدت ريحه ، ولا اضمحل انتاجه** . وما اتهم الفلاسفة في صدق ايمانهم وصحة عقيدتهم الا عندما صارت الدولة العربية في قبضة الغرباء ، ولم يكن لهؤلاء الغرباء ذلك العقل الذي راضه التسامح ، ولا ذلك القلب الذي هذبه الاخلاص والايمان ، فاستولت البدع والخرافات على عقول العامة ، وسيطر عليها الجمود ، حتى اخذت تحارب العلماء والفلاسفة ، وحتى اصبح الحكام انفسهم آلة في ايدي المضالين يضعون لهم وللعامة في الدين مايبغض اليهم العلم ويبعد نفوسهم عن طلبه . فغير عجيب ان يودي فساد الاعمال واختلال الاحوال الى قبض يد المعونة عن الفلاسفة وان يصابوا بنكبات كثيرة منها اتهامهم بالكفر والزندقة ، واحراق كتبهم ، ومنها عزلهم عن مناصبهم واغراء العامة برجمهم ، ومنها نفيهم او سجنهم او قتلهم حتى لقد قال احد الشعراء في موت ابن سينا :

رأيت ابن سينا يعادي الرجال ... وبالحبس(1) مات أخس الممات
فلم يشف مـــا ناله بالشفا (2) ... ولم ينج من موته بالنجاة (3)

وقال الحاج ابو الحسين بن جبير في ابن رشد ونكبته :

نفذ القضاء بأخذ كل مموه ... متفلسف في دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة ... ان البلاء موكل بالمنطق

---

(1) يعني بالحبس علة القولنج

(2) الشفاء احد كتب ابن سينا .

(3) النجاة مختصر الشفاء .

وهذا كله من مصائب الفلاسفة وانعكاس حظوظهم . وربما غالى بعض الناس في اتهام الفلاسفة حتى يروا ان ضررهم أكثر من نفعهم ، وان تفننهم في استعمال البراهين المجردة والاقاويل البعيدة عن المألوف لايفضي إلا الى صيرورتهم عنـد غيرهم مسترذلين . والناس في ايامنا هـذه لايزالون يطلقون كلمة فلسفة على التمويه والزندقة ، أو على الثرثرة والكلام الفارغ . وربما كان ذلك لعجزهم عن فهم مقاصد الفلاسفة . أو لعجز الفلاسفة أنفسهم عن استيفاء شروط الابانة فيما يقولون . قال ابو نواس :

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

فذم كما ترى ادعاء الفلسفة في العلم وأشـار من طرف خفي الى ضرورة الاعراض عنها واحتقار منتحليها .

ونحن نعلم ان **الفلسفة العربية** لم تكن مقصورة على الفلسفة المشائية ، وان هنالك الى جانب الفلاسفة المشائين **طائفة من المتكلمين كالمعتزلة** وغيرهم ضربوا في الفلسفة بسهم وافر وان كانوا لايعدون انفسهم فلاسفة . ولكن هذه الفرق لم تثبت قواعد التفكير الفلسفي الحر الا برهة وجيزة من الزمان ، فحذت حذو الفلسفة المشائية في النمو والاضمحلال . ذلك ان الفلسفة لما كانت نافقة الاسـواق في المحافل العلمية العربية كان علم الكلام مشيد الأركان ، ثابت الوطائد، ولكنها لما وهت اركانها وتضعضعت دعائمها سيطر الجمود على علم الكلام حتى أصـبح علماؤه اللاحقون يكررون ماجاء به السابقون على نمط واحد . ويكفي ان تنظر في كتاب المواقف لعضد الدين الايجي وأن تقارن بينه وبين كتب الغزالي للحكم على مابين الرجلين من اختلاف في المنحى والمقصد . ففي كتاب المواقف علم راسخ واصطلاحات جامدة وقواعد واحـكام ثابتة تريد ان تتصف بصفات الحقائق المطلقة وفي كتب الغزالي الى جانب الضبط والدقة في الاحكام لطف وروعة يفوح منها عبير الحرية وشذا العاطفة والابداع ، فكما ينبغي لمن يريد الاطلاع على حقيقة الفلسفة العربيـة ان يطلبها من كتب الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد كذلك ينبغي لمن يريد الاطلاع على حقيقة النظر العقلي في امور الدين ان يبحث عنها في كتب المعتزلة وكتب الاشعري والغزالي لافي كتاب المواقف .

ولسنا نريد الآن ان نتقصى الاسباب التي حملت بعض علمائنا في الماضي كابن الصلاح وابن الجوزي والذهبي والسيوطي والمقريزي وابن تيمية وغيرهم على الوقوف من الفلاسفة موقفاً سلبياً ، حتى اتهموهم بالكفر والزندقة والمروق من الدين ، وحتى زعموا ان الفلسفة أسس الانحلال ومادة

الحيرة والضلال (١) ، وأن أقل علماء الدين حظاً من المعرفة أعلم من آرسطو وأتباعه في الأمور الالهية (٢) ولكننا نريد ان نبين ان انوار التفكير الفلسفي لم تخب في العالم العربي إلا عندما غلب العرب على امرهم ، فكان هذا التفكير يلمع تارة ويغيب اخرى ، حتى **انطفأت شعلته في عهد الحكم العثماني** . واذا كان العرب قد عادوا منذ أواخر القرن التاسع عشر الى الاهتمام بالعلوم الفلسفية فرد ذلك الى سببين الأول هو احياء لغتهم وثقافتهم ، والثاني هو اطلاعهم بطريق الترجمة على ما بلغته الفلسفة في بلاد الغرب من نمو وازدهار . ويكفي ان يطلع المرء على ما نقله العرب المحدثون الى لغتهم من الكتب الفلسفية الغربية خلال هذه الحقبة الاخيرة من الزمان ليدرك مبلغ **ميلهم الى استئناف ثقافتهم الفلسفية** ، فهم قد ترجموا الكثير من الكتب الفلسفية عن الفرنسية والانكليزية وغيرها ، وألفوا في المنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع والاخلاق وعلم ما بعد الطبيعة كتباً جديدة لاتخلو من الطرافة ، وعظم بتدريس الفلسفة في المدارس الثانوية اقبال الناس على مطالعة الكتب الفلسفية ، وسار ازدهار الثقافة الفلسفية ونمو التعليم الجامعي جنباً الى جنب حتى صارت كل كلية للآداب تضم قسماً للفلسفة يتخرج فيه كل عام اعداد كبيرة من الطلاب وحتى صارت المطابع العربية تخرج في كل عام عشرات الكتب في الفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع والاخلاق .

وليس غرضنا الآن ان نحصي هذا الانتاج الفلسفي الحديث ولا ان نقومه ، فان الحدود التي رسمناها لأنفسنا في هذا المقال تحول بيننا وبين ذلك (٣) ، ولكننا نريد أن نشير الى أن كثرة هذا الانتاج من جهة ، وعناية المعاهد العلمية بتدريس الفلسفة من جهة ثانية تدلان دلالة واضحة على ان موقف العالم العربي من الفلسفة خلال هذه الحقبة الاخيرة من الزمان قد تغير كثيراً، **فالناس في ايامنا هذه لا يتهمون المشتغل بتعليم الفلسفة وتعليمها بالكفر والالحاد ، ولا يرمونه بالزيغ والزندقه ولا يعدونه غريباً عنهم** (٤) **لانهم**

(١) ابن الصلاح ، الفتاوى ص ٣٥ .

(٢) ابن تيمية ، الرد على المنطقيين ص ١٤٣

(٣) راجع مقالاً لنا عنوانه ، الانتاج الفلسفي في العالم العربي ، مجلة المجمع العلمي العربي الجزء الرابع من المجلد ٣٦ والجزء الاول من المجلد ٣٧.

(٤) قال ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين : « وكان يعقوب بن اسحاق الكندي فيلسوف الاسلام في وقته اعني الفيلسوف الذي في الاسلام ، وإلا فليس الفلاسفة من المسلمين » ص ١٩٩ .

تعلمون ان ازدهار الثقافة الفلسفية في المجتمع الانساني المتحضر أمر طبيعي، وليس في ذلك ما يدعو الى الحذر ، لان للثقافة الفلسفية جانباً روحياً يجد فيه المؤمن ما ينقع غلته ويرضي حاجته ويوضح عقيدته ، ويكفي ان لايقبل المؤمن على تعلم الفلسفة كما قال احد فلاسفتنا القدماء إلا بعد تبحره في علوم الدين حتى يأمن معاطب المذاهب المادية ، واذا كان مدرس الفلسفه يشرح بعض المذاهب المادية لتلاميذه فليس غرضه من ذلك نشر المذهب المادي أو الدفاع عنه ، انه يشرح جميع المذاهب روحيها وماديها ويناقش حجج كل مذهب ويرد عليها ، وغرضه من ذلك كله تعويد تلاميذه الحجاج العقلي والاستدلال المنطقي لا ايقاعهم في الحيرة والتردد حتى اذا حصلت لهم في ذلك ملكة راسخة استطاعوا ان يفرقوا بين الحق والباطل وان يمدوا ابصارهم الى اقصى حدود النظر ، فاذا وجدوا الرأى حقاً اخذوا به واذا وجدوه باطلاً أعرضوا عنه.

إن هذه اللمحة القصيرة التي قدمناها توضح لنا الطريق الذي يجب علينا سلوكه لتحديد موقفنا ازاء الفلسفة. **وهاهنا سؤالان** لابد من الاجابة عنهما **الاول : ماذا ينبغي ان يكون موقفنا ازاء الفلسفة العربية ، والثاني : ماذا ينبغي ان يكون موقفنا أزاء الفلسفة الاوربية الحديثة** ، واذا كانت الاجابة عن السؤال الاول توجب النظر الى الحاضر في ضوء الماضي ، فان الاجابة عن السؤال الثاني توجب النظر الى المستقبل في ضوء الحاضر وقد قالت الحكماء ان المرء لايدرك حاضره ادراكاً عميقاً الا في ضوء ماضيه . فاذا كانت معرفتنا بماضينا ضرورية لتفهم حاضرنا فان معرفتنا بمنازعنا واتجاهاتنا الحاضرة ضرورية لمعرفة ماسيؤول اليه امرنا في المستقبل . لذلك كان لابد من قسمة هذا البحث ثلاثة اقسام: **الاول حاجتنا الى الاطلاع على ذخائر الفلسفة العربية القديمة والثاني هو حاجتنا الى الاقتباس من الفلسفة الاوربية ، والثالث هو حاجتنا الى فلسفة عربية متجددة تنبع من منازعنا وافكارنا وتلائم غرائزنا وطبائعنا .**

٢ – موقفنا أزاء الفلسفة العربية القديمة

اذا كانت الامم في حاجة الى معرفة تراثها الثقافي أياً كان نوعه فكيف بها اذا كان هذا التراث من اروع ماابدعه العقل وامتع ماأوحى به القلب . انا اذا قصرنا في معرفة ماورثناه من اجدادنا لم يكن لناذاكرة قومية تعرفنا بمزاياها التاريخية وآثارنا العلمية والادبية . ومن فرطفي

معرفة ماضيه عجز عن ادراك حاضره ومستقبله ، فكيف ننكر اذن تراثنا الثقافي وهو من سوابغ نعم الله علينا ، لا بل كيف نعرض عنه وحاجتنا اليه لا تقل عن حاجتنا الى الاقتباس من معين الثقافة الغربية . ان من شواهد فضل العرب ودلائل اعجازهم تلك الآثار الجليلة التي خلفوها في ميدان العلم والفلسفة والادب ، فمن انكر قيمة هذه الآثار كان كمن ينكر ضياء الشمس في رابعة النهار، وليس لأمة تنكر آثارها حظ من كمال ولا نصيب من وعي. وكيف نضرب بفلسفتنا القديمة عرض الحائط وهي قد اثرت في كياننا العقلي وصبغت افكارنا وعواطفنا . اننا لا نؤمن اليوم ببعض المبادىء الفكرية والخلقية ايماناً راسخاً الا لانتقال هذه المبادىء الينا خلفاً عن سلف بطريق الدين والادب والفن والفلسفة . من هذه المبادىء تقديس العقل ، واحترام الشخصية الانسانية ، والقول بالعدل والمساواة ، والايمان بالعلم والحقيقة ، والتفاؤل بالخير ، والاعتماد على التجربة ، والاعتقاد ببقاء النفس بعد البدن ، والجمع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة . والقول بأن الله واحد قديم خلق العالم من لا شيء والقول باتفاق الحكمة والشريعة . فمن نظر في آراء فلاسفتنا من المعتزلة الى الكندي والفارابي ومن ابن سينا الى ابن رشد وجد هذه المبادىء بارزة فيها ، حتى ان الكثيرين من علمائنا المتأخرين كالاستاذ الامام محمد عبده وغيره لم يخرجوا عن هذه المبادىء فيما ذهبوا اليه من الاصلاح الفكري المنقول عندهم مطابق للمعقول ، والحقائق العقلية متفقة مع الصور الحسية واذا كان الحق والخير والجمال قيماً مطلقة يبرهن بعضها على بعض فرد ذلك الى انها تنبع في نظرهم من الجود الالهي. ومن طبيعة هذا الجود ان يغمر الانسان والعالم وان يحيط بالاجناس والانواع .

ولسنا حريصين الآن على تفصيل القول في جميع ما اشتملت عليه الفلسفة العربية القديمة من مبادىء ونظريات ، **فبعض هذه المبادىء لا يزال حتى الآن صالحاً لتوجيه سلوكنا ، وبعضها الآخر صار بعيداً كل البعد عن ملاءمة حاجاتنا .** ولكننا نريد ان نبين أن **لكل زمان فلسفة تتناسب وتطوره العقلي وتتفق مع تقدمه العلمي** ، فاذا كانت بعض نظريات الفلسفة العربية ابعد عن عقولنا واقرب من عقول اجدادنا فرد ذلك الى اختلاف العلم الحديث عن العلم القديم . انظر الى نظرية الفيض التي اخذ بها بعض فلاسفة العرب للتوفيق بين الدين والفلسفة ، فهذه النظرية مبنية على الاعتقاد ان الارض مركز العالم ، وان الافلاك طبقات مختلفة تحيط بالارض إحاطة القشرة بالبيضة ، ثم انظر الى رأي فلاسفتنا القدماء في العقول المفارقة او الى آرائهم في المادة والصورة والزمان والمكان ، والحركة والسكون ، والجرم المتناهي والجزء الذي لا يتجزأ فهي مشتملة على اقوال مرافقة لمسلمات العلم القديم ومباينة لحقائق العلم الحديث ، فليس يصح اذن ان نأخذ اليوم هذه المبادىء بأصبارها ، لأن العلم

الحديث قد غير نظرة الانسان الى الكون . اما اذا اعتقنا هذه المبادىء من دون تغيير او تبديل كنا كمن يسير في الظلام وبيده مصباح غاسق ، فلا هو يهتدي الى غايته في مجاهل الحياة ، ولا هو يتغلب على مايصادفه في طريقه من عقبات . فاذا كنا ندعو اليوم الى دراسة فلسفتنا القديمة فليس ذلك لاعتقادنا أن جميع مبادئها صالحة في هذا العصر ، انما **ندعو اليها لسببين الاول هو اعتقادنا ان بين هذه الفلسفة ومنازعنا الفكرية الحاضرة اتصالا ، والثاني هو حاجتنا الى معرفة تراثنا الثقافي معرفة علمية دقيقة** . فان من رام معرفة خصائص الفكر العربي الحديث وجب عليه ان يدرس تاريخه ويكشف عن اصوله ومنابعه . وهذا النوع من المعرفة التاريخية لايربط الحاضر بالماضي فحسب بل يعين ايضاً على معرفة مزايا الفكر واتجاهاته وتطوره . وا كثر العلماء حاجة الى معرفة هذا التطور من كانت طبيعة عمله توجب عليه النظر في اصلاح الفكر العربي ، لأنه قد يجد في الوان الفكر القديم عللا واسباباً توضح له الكثير من الوان الفكر الحديث . دع ان دراسة هذه الآراء القديمة توجب المقارنة بينها وبين غيرها من الآراء ، وهذا من شأنه ان يكشف النقاب عما تمتاز به الفلسفة العربية من خصائص بالقياس الى غيرها من الفلسفات ، كيف صحح العرب مثلا بعض مسائل الفلسفة اليونانية ، وما هي الصفات التي تميز فلسفتهم من فلسفة غيرهم ، ثم ما هي المبادىء التي استمدها منهم فلاسفة القرون الوسطى وفلاسفة العصور الحديثة في اوروبا وغيرها ، ان الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي مثلا قد صححوا الكثير من آراء اليونانيين وأثروا في فلاسفة القرون الوسطى الاوربيين تأثيراً عميقاً ، وانه لمن المؤكد لدينا ان بين بعض آراء ديكارت وباسكال وبعض آراء ابن سينا والغزالي تشابهاً تاماً كرأي ديكارت في الشك فهو شبيه برأي الغزالي في مداخل السفسطة وجحد العلوم(١) وكرأي باسكال في الفكر الهندسي والفكر الدقيق فهو شبيه لآراء الكندي وابن سينا والغزالي في المعرفة النظرية والمعرفة الحدسية ، ومثل ذلك كثير .

على أن مجرد التشابه بين الآراء لايكفي للدلالة على أن بينها اتصالا تاريخياً اذ كثيراً مايقع الماضي على الحاضر ويكون التوافق بين الامور ناشئاً عن اسباب عرضية لاعن اسباب ذاتية **كما يقع ذلك في اتفاق الافكار باتفاق الاحوال والطبائع المحيطة بها .**

وانت اذا تأملت كلامنا واعطيته حقه من التصفح والتفهم علمت أن **دعوتنا الى دراسة الفلسفة العربية لاتقوم على رغبتنا في ابراز مابينها وبين غيرها من تشابه**

---

(١) راجع ، المنقذ من الضلال للغزالي ، ص ٧٠ ، من طبعتنا الاولى ، دمشق ١٩٣٤

ولا على ابراز ماقد تشتمل عليه من آراء نافعة ، **بل تقوم على اعتقادنا أن لهذه الدراسة العلمية تأثيراً في احياء وعينا ونقد شخصيتنا وابراز تطورنا** ، فكما تقوم شخصية الفرد على وعيه لأحواله الماضية كذلك تقوم شخصية الامة على وعيها العلمي لتاريخها الفكري والاجتماعي ومن شروط هذا الوعي العلمي ان يطلب تاريخ الافكار لذاته ، ومتى طلب لذاته انكشف هو نفسه عن كثير من العناصر النافعة في السلوك الفردي والاجتماعي وعندي ان الامم التي لاتعرف الا أحوالها الحاضرة اقل وعياً لشخصيتها من الامم التي تعرف حاضرها وماضيها بل ربما كان الرجوع الى الماضي خير وسيلة لتفهم الحاضر . **وفرق بين أن تشرب الماء من السواقي الجارية حولك وبين أن تشربه من منابعه ، فالرجوع الى المنابع** والاصول أدعى الى معرفة التطور من الاقتصار على وصف الاجزاء والفروع ، فهل يجد الباحث في تاريخ الافكار مساغاً أن يقصر في معرفة ما يوضح له صورها القديمة وانتقالها من طور الى طور ، وهل يصل الى معرفة ماوبين الافكار من تشابه وائتلاف وتباين واختلاف اذا هو قصر في معرفة اصولها ؟ على أن الايضاح الكامل لتطور الافكار يوجب الانتقال من الاصول الى الفروع تارة ومن الفروع الى الاصول تارة ، ومن رام معرفة حقيقة التطور لم يغنه الرجوع الى الاصول ، ولم يوحشه الاطلاع على تغيرها وتبدلها بتبدل الاحوال والطبائع ، فانه لاشيء ادعى الى توضيح الاحوال الحاضرة من معرفة اسبابها التاريخية ، ولاشيء اضر بالعلم من اعادة الطفرة في اختلاف الاحوال وتغير العادات .

وهاهنا امران لابد من الاشارة اليهما ، الاول هو وجوب التعريف بالفلسفة العربية القديمة تعريفاً موضوعياً ، والثاني هو وجوب نقدها وتحليلها والمقارنة بينها وبين غيرها .

أما الامر الاول فالداعي اليه ان العرب لايزالون حتى الآن جاهلين بما اشتملت عليه فلسفتهم القديمة من خصائص ومزايا فكرية أصيلة ، لايعرفون منها الا ماتضمنته بعض دراسات الكتاب المعاصرين من آراء متفرقة ، وهي على كثرتها لم تتناول الاجوانب محدودة من الفلسفة العربية كشرح احدى النظريات او تفسير احد الآراء ، او التعريف بمنزلة احد الفلاسفة ، اما دراسات المستشرقين فهي على مافيها من تحليل عميق لم تشتمل على تركيب دقيق لجميع الاجزاء ، ولم تحط بجميع جوانب البحث ، **ففلسفة الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن طفيل وابن رشد وابن باجه لاتزال محاطة بالكثير من الغموض ، وفلسفة علماء الكلام من المعتزلة وغيرهم ، لاتزال مستورة بغطاء كثيف**

تتخللها ثغرات كبيرة وفجوات عميقة ، وسبب ذلك ، ان كثيراً من الكتب الفلسفية القديمة لم يصل الينا لفقدانه أو ضياعه او احتراقه وان كثيرا من المخطوطات الفلسفية الباقية لاتزال مجهولة او محفوظة في خزانة الكتب الخاصة في مختلف اقطار العالم لم يطلع عليها الا القليل من الناس . فهل من المعقول ان تبقى هذه المخطوطات مخزونة في الصناديق ، وهل من الحكمة ان يظل الغني جاهلا مايملكه من تحف وأموال . ان معرفة هذه المخطوطات قد تلقي على تاريخنا الفكري ضوءا ساطعا يبدل وجهة نظرنا الى نفوسنا ، ووجهة نظر الامم الينا فاذا شئنا ان نحيط بتاريخنا الفكري احاطة تامة وجب علينا ان نحصي هذه المخطوطات الفلسفية الموجودة في خزائن الشرق والغرب ، وان نفهرسها وان نعمل على تحقيقها ونشرها وان نضع الدراسات التحليلية لتوضيح مافيها . وينبغي لنا كذلك ان نعيد طبع الكتب الفلسفية المنشورة سابقا طبعا علميا دقيقا ، لان هذه الطبعات مشتملة على الكثير من الاغلاط بعضها لم يطبع حتى الان الا على الحجر، وبعضها الآخر مطبوع بلا تحقيق ولافهرسة ولاتحليل ، **ان اول مراحل التعريف بالفلسفة العربية نشر نصوصها الاصلية كاملة ،** ونعني بهذه **النصوص كتب المنطق والفلسفة ثم كتب العقائد ثم كتب التصوف والاخلاق وغيرها ،** فان في هذه الكتب منازع فكرية اصيلة لايليق بالعرب المحدثين وهم يحاولون توكيد ذواتهم ان يعرضوا عنها او يتجاهلوا مافيها . فكيف بهم اذا كانت تجربتهم الفلسفية في اوج حضارتهم تلقى شعاعاً جديدا على التجربة الانسانية جمعاء .

وأمـا الامر الثاني فالداعي اليه ان هذه النصوص الفلسفية كتبت بلغة أهل الصناعة ، فيها من الغموض مايجعل تفهمها في زماننا محتاجاً الى تفسير وتحليل ، وان وضع الدراسات التحليلية للتعريف بآراء فلاسفة العرب ضروري للمقارنة بينهم وبين من تقدم عليهم او جاء بعدهم من فلاسفة الامم الاخرى ، **فلابد اذن من تفسير كتب الكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم بلغة قريبة من الافهام ،** ولابد كذلك من وضع معجم لالفاظ الفلسفة العربية تبين كل لفظ واشتقاقه واختلاف معناه باختلاف الفلاسفة ، ولابد اخيراً من وضع دراسات تحليلية تبرز منزلة هؤلاء الفلاسفة في تاريخ الفكر العربي والفكر العالمي وتكشف عن مصادر آرائهم واتصالها بعضها ببعض وتأثيرها في الحضارة الشرقية والحضارة الغربية على السواء . ولا نغالي اذا قلنا ان هذه الدراسات التحليلية هي الوسيلة الوحيدة لتعريف العرب بحضارة العرب فكما يسبق التحليل التركيب في تقدم العلوم الوضعية كذلك تتقدم الدراسات التحليلية على النظرات التركيبية العامة في تاريخ الفكر . ان مؤرخي الافكار الذين يباشرون التركيب قبل التحليل

يشبهون الروائيين الذين يؤلفون الوقائع الخيالية من المواد الوهمية ، فقد يعدهم هذا البناء الوهمي عن معرفة الحقائق، وقد ينقلب التاريخ على طريقتهم الى اسطورة كاذبة. لذلك كان من الواجب على الباحث في تاريخ الأفكار أن يقدم التحليل على التركيب، وان لا يؤلف حكماً عاماً الا بعد معرفة مقدماته. ان في تاريخ العلوم امثلة كثيرة تدل على ان العلماء لا يبلغون الحالة الوضعية الا بعد عكوفهم على التحليل زماناً طويلا . فالرياضي والفلكي والفيزيائي والكيميائي وعالم الحياة والفن يحددون أولاً دائرة موضوعهم وطريقة بحثهم ، ثم ينصرف كل واحد منهم الى موضوع خاص ، أو الى ناحية واحدة من موضوع خاص ، ثم يغورون في اجزاء ذلك الموضوع حتى يحيطوا بها كلها ، ومتى تم لهم ذلك ادركوا ما بين العناصر من تشابه واختلاف واتفاق وتباين فلا يبلغون مرحلة التركيب الا بعد كشفهم عن الخطوط العامة المشتركة بين جميع الاجزاء . فكما ينبغي للعالم الطبيعي أن لا يضع النظرية الا بعد التحليل الطويل للعناصر المتصلة بها كذلك ينبغي للباحث في تاريخ الفكر ان لا يضع تاريخاً جامعاً للفلسفة العربية الا بعد قيامه بدراسة النصوص ، وتحليل الآراء والاتجاهات الخاصة بكل فيلسوف وانى له أن يضع هذا التاريخ الجامع اذا هو لم يبدأ برد آراء كل فيلسوف الى اصولها ، والى الاحوال الاجتماعية المحيطة بها ، لا بل انى له أن يكشف النفسية العربية اذا هو لم يؤلف من جزئياتها المختلفة نظاماً عاماً يقرب الافكار بعضها من بعض ويجمعها كلها في اطار واحد .

وبعد فهذه جملة من الابانة عن تحديد موقفنا من الفلسفة العربية ، وهو موقف علمي محض ، غاية التعريف بها ونقدها وتحليلها لا أخذها بأصبارها ، والنسج على منوالها ، فان لكل زمان فلسفة موافقة لبنيته الاجتماعية . ومن اراد ان تكون له في القرن العشرين فلسفة القرون الاولى او القرون الوسطى كان كمن يمشي الى الامام مشية القهقرى .





للدكتور شوكت الشطي

ان غايتي الاولى من تقدمة هذا البحث هي دفع الافتراءات الكاذبة التي تتهم العرب بحرق مكتبة الاسكندرية .ولكن لدى مباشرتي كتابة هذا الموضوع رأيتني مضطراً لاختيار عنوان يسر لي معالجة البحث من جميع نواحيه فوجدته في الكلمات التي صدرت بها بحثي .

لايخفى أن موضوع حرق مكتبة الاسكندرية موضوع شائك تناوله مؤرخون محققون بحثوا عن روية وتمحيص ، ورواة لعبت في نفوسهم الاهواء فحدث كل منهم بوحي من ميوله حديثاً أوجد له مستندات ضعيفة لايصح الاعتماد عليها فتخيلها حججاً قوية ، وتبادل الاتهام بحرقها كتاب ذوو مشارب متباينة من ملل عديدة ونحل مختلفة ، فما هي هذه المكتبة وماهو شأنها وماهي قصص حرقها وهل احرقت فعلا قبل الفتح العربي لمصر أم احرقت بعده أم أنها مازالت موجودة حجبها مر الأيام عنا .

هذا واني لأستميح لنفسي أن أحدث أولا عن نظرة العرب الى الاسكندر الكبير وقول القرآن الكريم فيه ، حديثاً يخيل الي أن بعض عناصره غير معروفة لدى الغربيين وكثير من العرب الشرقيين ، حديثاً يلقي بعض النور لا على هذه القضية فحسب بل على سيرة المدرسة والمتحف

والمكتبة في الاسكندرية القديمة ، حديثاً يروي طرائف عن الحضارة التي اضاءت بنورها اكثر اصقاع الدنيا ، تلك الحضارة التي يصح في نظري تسميتها بالحضارة الاسكندرية ، لانها حضارة صهرت في بوتقتها حضارات الشرق القديم كله من مصرية وبابلية وآشورية وفارسية وفينيقية فاخرجتها للعالم حضارة رائعة .

لنعد الآن الى المكتبة فما هو شأنها وماهو المتحف المتصل بها ؟ تضطرني الاجابة على هذا التساؤل الى القاء قبس من الضياء على حياة الاسكندر الكبير المكني في القرآن الكريم بذي القرنين .

١ — نظرة القرآن الكريم الى الاسكندر العظيم

ان للاسكندر (١) مقاماً من التقدير والاحترام عند العرب وفي الاسلام لم ينله فاتح غيره ، رفعه في نظر بعضهم الى درجة الرسل والانبياء وبذكر القرآن الكريم الاسكندر فيعدد من الآيات الواردة في سورة الكهف (٢) نثبت بعضها ونعلق عليها ناقلين جل مانورده في هذا الشأن عن تفسير المغفور له علامة الشام الاستاذ محمد جمال الدين القاسمي (٣) واليك هذه الآيات مع أرقامها :

(٨٣) « ويسألونك عن ذي القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكراً » .

(٨٤) « انا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً (٤) » .

(٨٥) « فاتبع سبباً (٥) » .

(٩٣) « حتى اذا بلغ بين السدين (٦) وجد من دونهما قوماً (٧) لايكادون يفقهون قولا » .

(١) هو الاسكندر المقدوني الكبير .

(٢) السورة ١٨ .

(٣) جمال الدين القاسمي ١٨٦٦ — ١٩١٣ من كبار علماء دمشق له مؤلفات عديدة طبع منها اخيراً تفسيره في عشرين مجلداً .

(٤) أنا مكنا له في الأرض بالقوة والرأي والتدبير والسعة في المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة وآتيناه على كل شيء سبباً موصلا اليه ، والسبب مايتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

(٥) فاتبع سبباً يوصله لهدفه .

(٦) الجبلين .

(٧) وجد امة من الناس لغتهم غريبة .

(٩٤) « قالوا ياذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا (١) على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ».

(٩٥) « قال ما مكني فيه ربي خير فاعينوني بقوة اجعل بينكم ردما(٢) »

(٩٦) « آتوني زبر الحديد (٣) ، حتى اذا ساوى بين الصدفين (٤) قال انفخوا حتى اذا جعله ناراً قال آتوني افرغ عليه قطراً (٥) »

(٩٧) « فما استطاعوا أن يظهروه (٦) وما استطاعوا له نقبا » :

(٩٨) « قال هذا رحمة من ربي ، فاذا جاء وعد ربي جعله دكا ، وكان وعد ربي حقا » .

٣ — نظرة الامام المغفور له الاستاذ القاسمي الى سيرة الاسكندر مقتبسة مما جاء عنه في القرآن الكريم

بين الامام المذكور رأيه في الاسكندر في عدد من التنبيهات يقول فيها :

التنبيه الاول : يوحي نبأ ذي القرنين الاسكندر الى فوائد شتى منها الاشارة الى القيام بالاسباب والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل ، وان على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر ، فان ماقص عن الاسكندر من ضربه في الارض وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الاسفار وتجشم الاخطار ، وركوب الاوعار والبحار ، ثم احرازه ذلك الفخار ، اكبر عبرة لاولى الابصار .

ومنها : تنشيط الهمم لرفع الموانع فقد كان الاسكندر من الذين لاتقعدهم المصاعب عن نيل مايبتغون .

---

(١) جعلا من اموالنا .

(٢) اي ما جعلني فيه مكينا من المال والملك افضل مما تريدون بذله فلاحاجة بي اليه ولكن اعينوني بعملةوصناعوآلات لاجعل بينكم وبينهم حاجزاً حصينا وأصل معنى الردم السد بالحجارة ونحوها.

(٣) قطع الحديد وآلاته .

(٤) جانبي الجبل .

(٥) قيل في تفسير هذه الكلمة انها تعني النحاس المذاب على الحديد المحمي فدخل بين زبره فصار شيئاً واحدا .

(٦) أي يعلو ظهره لارتفاعه وملاسته .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالي الامور من الحداثة ، فان الاسكندر لما تبوأ ملك ابيه كان في حدود العشرين من عمره ، واتى ما اتى وهو في ريعان الشباب واضاف كل العالم الشرقي الى المملكة اليونانية وهو شاب ، وقضى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، كما دونه محققو المؤرخين .

ومنها : ان من قدر على اعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغي له ان تسكره لذة السلطة يسوقهم بعصا الاذلال وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال ، بل يعامل المحسن باحسانه والمسيء بقدر اساءته .

ومنها : ان على الملك ، اذا اشتكى اليه جور مجاورين ، ان يبذل وسعه في الراحة والامن صيانة للحرية والتمدن ، من مخالب التوحش والخراب وقياما بفريضة دفع المعتدين وامضاء العدل بين العالمين ، كما لبى الاسكندر دعوة الشاكين في بناء السد ، وقد اطبق المؤرخون على انه بنى عدة حصون واسوار ، لرد غارات البرابرة وصد هجماتهم .

ومنها : ان على الملك التعفف عن اموال رعيته ، والزهد في اخذ اجرة ، في مقابلة عمل يأتيه ، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته .

ومنها : مشاطرة الملك العمال في الاعمال ومشاركتهم بنفسه اذا اقتضى الحال ، تنشيطاً لهمتهم وتجرئة لهم وترويحا لقلوبهم ، وقد كان الاسكندر يقاسم الرجال الاتعاب ويدير العمل بنفسه .

ومنها : الاعتبار بتخليد جميل الثناء ، وجليل الاثر ، فان من امعن النظر في قصة القرآن الكريم عن الاسكندر يتضح له جليا حسن سجايا الاسكندر وسمو مزاياه ، ودأبه على توطيد الامن واثابته المحسنين وتأديبه للظالمين ، والاحسان الى النوع البشري ، لاسيما في زمان كان فيه اكثر عوائد واخلاق الامم المتمدنة وغير المتمدنة وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة ، كما كان يرمي اليه سعي الاسكندر فانه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الامم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد ، وقد حكي انه كان يجيش من كل امة استولى عليها ، جيشا عرمرما ، يضيفه الى جيشه المكدوني اليوناني ، ويأمر رجاله ان يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط وازالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبلغه الانسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد .

التنبيه الثاني : في الاسكندر ، ان المرجع في تعيين شخص الاسكندر هم ائمة التاريخ وقد اطبقوا على انه الاسكندر الاكبر ابن فيلبس باني الاسكندرية بتسعمائة واربع وخمسين سنة قبل الهجرة ، وثلاثمائة واثنتين وثلاثين سنة قبل الميلاد .

التنبيه الثالث: في ذي القرنين ، اختلف في سبب تلقيبه بذي القرنين ، فقيل لشجاعته والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ، الذين هم السائلون على ان هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من اوضاع العرب خاصة ؟ بل هو معروف عند العبرانيين ايضاً ويظهر انه من رموزهم الخاصة التي سرت الى العرب ، واقرتهم عليها .

التنبيه الرابع : قال الرازي ، اختلفوا في ذي القرنين، هل كان من الانبياء ام لا؟ منهم من قال : انه كان نبيا ، واحتجوا عليه بوجوه :

١ — قول الآية : (انا مكنا له في الارض) حملها المفسرون على التمكين في الدين ، والتمكين الكامل في الدين هو النبوة .

٢ — قول الآية : (وآتيناه من كل شيء سببا) هو انه تعالى آتاه من النبوة سببا .

٣ — قوله تعالى للاسكندر : (قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا) والذي يتكلم الله معه لابد وان يكون نبيا .

التنبيه الخامس : حكي في قوله تعالى (ويسئلونك عن ذي القرنين) قولان فيان السائلين هم اليهود اوغيرهم ؟ ورجح الاول .

التنبيه السادس : قيل في السدين انهما جبلان في بلاد القفق — القوقاز — والراجح ان السد كان موجودا بينهما ويبدو ان آثارهم موجودة الى الآن .

التنبيه السابع : يأجوج ومأجوج اسمان اعجميان لقبيلتين تسمى احداهما (آغوق) والثانية (ماغوق) عربهما العرب بـ (ياجوج وماجوج) .

٣ — نظرة وتلخيص لآراء العرب والمسلمين في الاسكندر الكبير باني مدينة الاسكندرية

يبين تفسير الاقوال الكريمة التي اتينا على ذكرها ان القرآن ومن ورائه العرب والمسلمون لاينظرون الى الاسكندر نظرة فاتح مر بالتاريخ فاخضع اكثر بقاع الارض الى سلطانه حتى صار عظيما من عظماء العالم بل يرون فيه قائد فكر عالمي آمن بالله فمنعه ذلك من التعصب لقومه والتحيز لاهل مذهب دون آخر وفرض عليه ان يكون للناس جميعاً فاستطاع بذلك ان يتخذ من اصدقائه وتابعيه ومن خصومه واعدائه على اختلاف اجناسهم ، وتباين اهوائهم وتفاوت حظوظهم من الرقي العقلي جيشاً منظما عظيما عبر به البحر الى آسيا فافريقيا واصبح ذا سلطان على ملك الفراعنة والبابليين والآشوريين والفرس والفينيقيين واليونان فضم ذلك كله الى ملك مقدونيا الذي

ورثه عن ابيه ثم ارتاح في بابل استعداداً لحركة ابعد اثراً من الحركة الاولى ، يبسط فيها سلطانه على اوروبا الغربية فيتم بذلك دورته من حيث بدأها في مقدونيا داعياً الى الخير ، عاملا على صلاح المجتمع ، وهكذا كان الاسكندر في رأي العرب والمسلمين فتح الارض تمهيدا لفتح العقل وسعياً وراء نشر المودة والمحبة والاخوة والمساواة بين الناس ؛ غير أن المثل العليا الذي توخاها الاسكندر حال موته المبكر دون بلوغها فلم يستطع تحقيقها ولكنه غرس هذه الفكرة في جميع اقطار الارض التي وطئتها جيوشه فلم يكد ينتهي القرن الثامن حتى اصبحت الحضارة اليونانية حضارة جمعت بين حضارة الشرق القديم وحضارة اليونان ، واخذ الشرق يشارك اليونان في آدابهم وفنونهم وفلسفتهم فامتزجت بذلك العقلية الشرقية بالعقلية الغربية واصبح الشرقي والغربي قادرين على التفاهم .

تلك هي نظرة العرب الى باني الاسكندرية ، الراغب في جعلها عاصمة ملك ومنهـل علم ومركزاً لتبادل البضائع العقلية وقد تحقق له ما اراد واصبحت الاسكندرية القديمة لايذكر اسمها الا ويقرنه الذهن باسباب عظمتها وشهرتها .

٤ ـ نظرة الى مدرسة الاسكندرية القديمة

لقد وجه ازدهار العمران والحضارة في الاسكندرية رجال الحكم فيها الى انشاء المدارس واندية العلم حتى اصبحت الاسكندرية في طليعة مدن العالم القديمة بعلمائها وفلاسفتها وقصدها طلاب المعارف من جميع البلاد واصابت فيها المباحث العلمية والفلسفية قسطا عظيما من التقدم واسبغ على جماعة علماء الاسكندرية والعلوم التي تدرس في انديتها اسم مدرسة الاسكندرية فصارت علما لهم في اسفار التاريخ ، وقد انقسم علماؤها الى فريقين ، فريق المشتغلين بالعلوم الرياضية وفريق المشتغلين بالعلوم الطبيعية، فمن الفريق الاول العالم الرياضي الاشهر اقليدس واضع اصول الهندسة، ومن علماء مدرسة الاسكندرية الاعلام ارخميدس وكثير من الآراء والنظريات التي ابتدعهـا ارخميدس واقام الدليل عليها بالبرهان والتجربة لاتزال جزءاً لاينفصل عن التراث العلمي العظيم الذي يدرسه الطالب في مدارس اليوم .

اما مدرسة الاسكندرية الطبية فقد امتازت بعلم التشريح ، ولعل عادة استخراج امعاء الميت بعد الموت عند المصريين لغرض التحنيط شجع على ذلك ، ويلخص اثر مدرسة الاسكندرية الطبية في قول دائرة المعارف البريطانية ، اذا نظرنا الى اثر مدارس الاسكندرية الطبية تحتم علينا ان نعترف بان التقدم الذي تم على ايدي اركانها كان عظيما وخالدا ، ولعل اعظم خدمة قاموا بها هي درس علم التشريح درساً منتظما .

وكان يتصل بمدرسة الاسكندرية بستان للنبات تزرع فيه النباتات المختلفة الاقاليم وتتخذ العقاقير الطبية منها، وحديقة للحيوان، تربى فيها الحيوانات الكثيرة البرية والاهلية وتدرس طبائعها.

اما الآن وقد انقضت قرون تليها قرون على مدرسة الاسكندرية ، وتقدم العلم تقدما عظيما في جميع نواحيه باستنباط الاسلوب العلمي القائم على الاستقراء والتجربة فيجب ان نعترف لاولئك القوم في فجر المعرفة العلمية ، بانهم فطنوا الى الاستقراء والتجريب واخذوا انفسهم بهما فجاء كثير من علمهم راسخاً على الدهر، يشهد لعقولهم بالتفوق ولسلاح الاسلوب العلمي نفسه بالمضاء.

٥ – نظرة الى مكتبة الاسكندرية

اشتهرت مدينة الاسكندرية بمكتبتها او مكتباتها الشهيرة وبمدرستها الخالدة الذكر، ويقال ان ارسطو طاليس معلم الاسكندر ومثقفه في الحكمة والفلسفة اول من جمع مكتبة اليونان ، وان مكتبته اصل مكتبة الاسكندر وان كتبه جميعا كانت فيها وان البطالسة اكثروا من جمع الكتب اقتداء به واكراما لذكراه لانه هو الذي هذب الاسكندر قائدهم الاعظم .

ويقال كذلك انه بلغ من غرامهم بجمع الكتب انهم كانوا يستعيرون المؤلفات من اصحابها ويعهدون الى من ينسخها فيحفظون الاصول عندهم ويردون النسخ الى اصحاب المؤلفات ، وكانت المكتبات في ذلك العهد تعتمد على نسخ مكتبة الاسكندرية ، فكأن مكتبة الاسكندرية علاوة على كونها خزانة لحفظ المؤلفات ونادياً لمراجعتها كانت داراً للنشر كذلك ، بل يقال ان بطليموس رفض ان يمنح الآثينيين مايحتاجون اليه من الطعام في اثناء مجاعة اصابتهم الا اذا اباحوا له نسخ مايريد من كتبهم ، وانه لما فاز ببغيته سخا في توفيـــة ثمنها علاوة على ارسال مقادير الطعـــام المتفق عليها .

وكانوا يفتشون عن الكتب في امتعة المسافرين والسياح والتجار الذين يدخلون الاسكندرية ويشترون او ينتسخون مافيها ، ولعل اشهر رجل تولى ادارة مكتبة الاسكندرية عالم يدعى كاليماخس وهو باعتراف اولي الرأي ، اعظم امناء المكتبات في العصر القديم ، ففي عهده وضع فهرست للمكتبة ملأ مائة وعشرين مجلدا وكان فهرستا تاماً مرتبا بحسب اسماء المؤلفين وموضوع الكتب ، ويجب ان نشير في هذا المقام الى ان الكتب في ذلك العهد لم تكن سوى لفات من الرق نسخت عليها المؤلفات القديمة ، وكان المطالع يضطر عند المطالعة ان يتناول المؤلفات التي ينوي ان يطالع فيها لفة لفة ويبسطها ليطلع على محتوياتها ولايخفى مافي ذلك من الضرر على اللفة لما يمحى او يتلف منها بالنشر والطي ، وقد اختلفت آراء الثقات اختلافاً كبيرا في عدد الكتب والمجلدات التي كانت تحتوي عليها مكتبة الاسكندرية ، وقد قيل انها بلغت ٧٠٠ الف .

ولعل منشأ الخلاف في التقدير ناجم عن اختلاف الكتاب في النقل والرواية . ومن حسبان أحدهم لفات المؤلف الواحد كتباً مختلفة بيناً لم يحسبها الآخر الا كتاباً واحداً ، ومن تعدد مكتبات الاسكندرية اذ لم تكن مكتبة واحدة بل ثلاث مكتبات على الاقل .

٦ ـ نظرة الى ماقيل في حرق مكتبة الاسكندرية

جاء في تاريخ مختصر الدول لابي الفرج الملطي(١) عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص مايفيد ان يحيى النحوي شهد فتح عمرو بن العاص لمدينة الاسكندرية وانه دخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه وأنس به فقال له يحيى يوماً ، ان كتب الحكمة في خزائن الاسكندرية لاانتفاع لك بها فنحن اولى بها . فقال له عمرو ، هذا مالايمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب عمرو الى عمر وعرفه بقول يحيى فورد عليه كتاب من عمر يقول فيه واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها مايوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنها وان كان فيها مايخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية لاحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة اشهر ، والغريب في هذه الرواية ان بعض نسخ كتاب ابن العبري لم تذكرها كما يؤكد ذلك المؤرخ العربي الكبير رفيق العظم في هامش الجزء الثالث من كتابه عن مشاهير الاسلام .

وضع عدد كبير من مجاثي العرب ومؤرخي الغرب رسائل وكتبا تنقض هذه الرواية من اساسها ، ويرى اصحاب هذا الرأي ان مكتبة الاسكندرية احرقها الرومان قبل الفتح الاسلامي ، ولقد كان سنكا الفيلسوف معلم نيرون اول من اخبر بحرق مكتبة الاسكندرية ، كما ثبت ان يوليوس قيصر الذي امتنع عن تسليم كليوباطرة الى المصريين وقاتلهم بسببها اضطر ان يضرم النار في سفنه التي في المرفأ فاندلع لسان اللهب منها وامتدت الى المتحف والمكتبة فاحرقت مافيها من كتب

---

(١) يعرف بابن العبري ٦٢٣ هـ ـ ٦٨٥ هـ ١٢٢٦ ـ ١٢٨٦ م ، ولد في ملطيه وتوفي في مراغة أذربيجان هو غريغوريوس أبو الفرج اسقف حلب السرياني وجاثليق تكريت ، كان ابوه طبيباً ومن ملة اليهود ولذلك عرف بابن العبري، اشتهر باللاهوت والفلسفة والفراماطيق والسرياني وبعلم الطب ، تنصر في شبابه وشب على النصرانية الف كتاباً في تاريخ الدول بالسريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتاباً باللغة العربية سماه مختصر الدول .

وقد اكد هذه الرواية بولس أوروسيوس في التاريخ الذي ألفه نحو سنة ٤١٦ م حيث قال . صدرت اوامر قيصر في غضون القتال باضرام النيران في الاسطول الذي كان راسيا قرب الشاطئ. فاتصلت النار بقسم من المدينة وحرقت ٤٠٠ الف كتاب فتلف بها ذلك الاثر العجيب .

يتضح من ذلك ان حرق مكتبة الاسكندرية قبل الفتح الاسلامي امر مسلم به وليس هناك أي سبب يحمل على الشك فيه. ذلك مانوصل اليه واثبته كل من بحاثي الفتح العربي وبحاثي القرنين الحالي والماضي من مستشرقين وعرب نذكر منهم بطلر وكازانوفا والمرحوم الدكتور صروف ، ومما جاء في كلام الدكتور صروف قوله : واما ماقيل من ان الامام عمر امر باتلاف هذه المكتبة فرواية مطعون بها وعندنا انها كاذبة وقد ايد البحث الحديث هذا الحكم الذي حكم به الدكتور صروف والدكتور امين خيرالله (١) وحتى وجورجي وجبور (٢) .

وهنا يحق لنا ان نتساءل من اين جاء ابن العبري بهذه الرواية وعمن نقلها ؟ وهل المرجع الذي نقل عنه ، يصح الاعتماد عليه ؟ .

الغريب في امر هذه الرواية انه لم يذكرها احد من المؤلفين الذين شاهدوا الفتح وعاصروه وكتبوا كل شيء عنه بل قيلت جميعها في القرن الثالث عشر للميلاد او القرن السابع للهجرة اي بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص بما يقارب من خمسة قرون ومن قبل اشخاص كانوا شبه متعاصرين عاشوا في القرن الثالث عشر للميلاد وهم عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وابن العبري(٣) .

واننا لنؤيد الطاعنين بهذه الرواية من اكابر مؤرخي الغرب والعرب وبحاثيهم ونرى انه لايصح الاخذ بأقوال رواتها جميعا لان رواية كل منهم غير مستندة الى سند موثوق لايل خالية من السند تماما ، لنضف الى ذلك كله عدم اشارتهم الى تسلسل الرواية ، وبعدهم عن زمان وقوع الحادثة ، وعدم ذكر احد من المؤرخين قبلهم لها تخص بالذكر منهم من عزيت اليه هذه الرواية يحيى النحوي نفسه مؤرخ الفتح العربي لمصر وصديق فاتحها عمرو بن العاص .

---

(١) ان احراق مكتبة الاسكندرية بامر الخليفة عمر لأمر مشكوك فيه فاغلب البحاثة من اجانب ووطنيين يعتقدون ان لاصحة لهذه الرواية .

(٢) المجلد الاول في تاريخ الاسلام ص ٢٢٢ اما القصة التي تقول ان عمرا أحرق مكتبة الاسكندرية فينكرها البحث العلمي ولم يكن في الاسكندرية مكتبة عظمى يوم الفتح .

(٣) موفق بن عبد اللطيف البغدادي توفي سنة ١٢٣١م ابن القفطي سنة ١٢٤٨ ، ابن العبري توفي سنة ١٢٨٦ .

واقد تبين لنا من دراسة هذا الموضوع انه في الوقت الذي استطاع به المستشرقون الحسنو النية ومنهم كازانوفا ان يدفنوا هذه الرواية المكذوبة الى الابـد في اكاديمية الآثار والاداب بباريس حيث تلا في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣ رسالة اجتثت هذا الافتراء من اصوله فابطـل هذه الخرافة ، تطلع علينا آراء غريبة في بلاد عربية تقول بان مكتبة الاسكندرية احرقت بعـد الفتح العربي لمصر .

٧ — نظرة الى سيرة الخليفة عمر ، هل فيها مايـبرر ان يعزى له مثل هذا الافتراء ام مايجتذه من اصله

لقد اثبتنا مافيه الكفاية لبيان كذب الرواية القائلة باحراق العرب لمكتبة الاسكندرية بقي علينا اتماماً لدحض هذا الافتراء ان نبحث في سيرة عمر بن الخطاب فهل فيها مايدعو الى تصديق مثل هذه الخرافة ام فيها ما يبين بعد هذا الافتراء عنه .

لايخفى ان الخليفة عمر كان من اقدر الناس على تطبيق ما يأمر به الرسول واقوى على منع ما نهى عنه وفي زمانه تمت فتوحات بلدان كثيرة اعطيت حظا من العـلم والمعرفة وزخرت بمعالم وعلوم فلم يسمع من رواة سيرته مثل هذا الاتهام الذي ينافي تمام المنافاة تعاليم الرسول في احترام العلم والعلماء ذلك الاحترام الذي لم يسبق ان حث عليه في التاريخ رجال مثل ماحث عليه بوحي من ربـه محمد الرسول في القرآن الكريم وبأقواله التي وجههـا للناس اجمعين واقوال خلفائه واصحابه الاكرمين .

لقد قدس القرآن القلم رمز التعليم تقديساً جعله يقسم به في قوله :

« ن . والقلم ومايسطرون » .

وامتن الله على خلقه بان علمهم بالقلم في قوله :

« اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » .

لقد وائم القرآن بين العلم والعقل موائمة تجعل العلم حيث يكون العقل ، وتجعل العقل حيث يكون العلم .

لقد ظن اناس مسلمون وغير مسلمين بعيدين عن فهم حكم القرآن فهما عميقاً أن العلوم التي شجع القرآن الكريم على اكتسابها هي العلوم الشرعية فآذوا بزعمهم الخاطىء هذا سمعة الاسلام ايذاء ليس له حصر . والواقع أن العلوم التي شملها لفظ العلم في القرآن الكريم لاتقتصر على العلوم الشرعية ، ولا لفظ عالم فيـه يدل على عالم الشرع فقط بل قد شمل جل العلوم الباطلة المؤذية

كالسحر وما شاكله ، والدليل على ذلك ماجاء في الحديث الشريف بضرورة السعي الى كسب العلم وطواف العالم من اجله وذلك بقول الرسول :

اطلبوا العلم ولو بالصين .

وبدهي أن العلم المقصود في هذا البحث لايصح أن يعتبر العلم الشرعي الاسلامي حيث لا اثر له في ذلك الحين في بلاد الصين ، كما ان في الاحاديث الشريفة من الاقوال تشجيعاً لاكتساب العلم مالايمكن أن يقال أروع منه، من ذلك :

اطلبوا العلم من المهد الى اللحد .

طلب العلم فريضة على كل مسلم .

وقد جعل الرسول فضل العلم خيراً من فضل العبادة بقوله :

فضل العلم خير من فضل العبادة .

قليل من العلم خير من كثير من العبادة .

ورفع مرتبة العلم حتى ساواها بمرتبة الشهادة اذ قال :

اذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد .

ودعا الناس الى احترام العلماء واكرامهم فقال :

اكرموا العلماء .

ودعا الناس الى التعلم والتعليم فقال :

تعلموا وعلموا فان اجر العلم والمتعلم سواء .

وقال : كن عالماً أو متعلماً ولاتكن الثالثة : أي جاهلا .

ثم خشي على العالم من أن يلحق به العجب بنفسه ويستولي عليه الغرور بتوهمه اتقان العلم فقال :

لايزال الرجل عالماً ماطلب العلم فاذا ظن انه علم فقد جهل .

ثم حذر من كتمان العلم بقوله :

من كتم علماً يحسنه الجمه الله بلجام من نار .

وخشي على العلم من الضياع فدعا الى تخليده بقوله :

قيدوا العلم بالكتابة .

وحث على ذلك فجعل مداد اقلام العلماء ، خيراً من دماء الشهداء بقوله :

ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب ، ولمداد جرت به اقلام العلماء ، خيراً من دماء الشهداء . وسار بوحي هدي الرسول الخلفاء الراشدون فحثوا على طلب العلم باقوال

منظومة ومنثورة مأثورة عنهم ثبت منها ماروي شعراً عن عمر رضي الله عنه لانه هو المتهم زوراً وبهتانا بالامر بحرق مكتبة الاسكندرية :

تعلم فليس المرء يولد عالمـاً　　وليس اخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لاعلم عنـده　　صغيراً اذا التفت عليـه المحافل

وبعد لقد مر بالتاريخ قبل الاسلام وبعده رجال كانوا لايحترمون الا من يقول بقولهم أو يؤمن ايمانهم وكانوا يتلفون الكتب التي لاتساير آراءهم. على ان الخلفاء الراشدين كانوا جميعاً من غير طينة هؤلاء فانهم كانوا يشجعون العلم والعبادة وكانوا يحترمون إيمان من لايحاكيهم في الايمان، يدلنا على ذلك تكرار تواصيهم باحترام العابدين ، اخص بذلك القول المأثور الذي كان يقال،عند عقد الألوية على امراء الجيوش ألا وهو : وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع، فدعوهم ومافرغوا انفسهم له» الى مافي تلك الوصايا من أوامر خيرة انسانية .

ان ماذكرناه عن التشجيع على تعلم العلوم مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف والدعوة الى تخليده والتسامح فيه واحترام ايمان الآخرين وتمسك عمر رضي الله عنه بجميع هـذه المبادىء يجعلنا نستطيع التأكيد بان من يدعو الى تخليد العلم لايسعى الى تبديده وان من يحترم ايمان الآخرين لايدعو الى حرق كتب تبحث في عقائد الآخرين فضلا عن أن لغة الرواية تبعد عن لغة عمر بن الخطاب المعروفة وطريقة سردها تجعلها في نظرنا رواية خرافية .

٨ — نظرة حديثة واخيرة الى مكتبة الاسكندرية

نشر الاستاذ الياس بولس الخوري (١) مقالا ذكر فيه ان المكتبة مدفونة في اقبية الاسكندرية وان في بعض المخطوطات اليونانية القديمة علامات واشارات تدل على مكانها وان والده المرحوم المؤرخ بولس الخوري بحث عن مكان المكتبة فاستطـاع ان يحل رموز بعض الاشارات على انه لابد من استكمال البحث والشروع بالتنقيب لتعين مكانهـا وانهى مقاله قائلا واری من واجبي بعد مرور ٢٥ سنة من البحث ان اعلن للعالم بان العرب لم يحرقوا مكتبـة الاسكندرية خلافا لما ذكره قديما ابن العبري ومن بعده المقريزي وغيرهما .

ويرى اخيرا بعض الباحثين ان بناء مكتبة الاسكندرية حجري بجدرانه وسقوفه وان سر مكانه كامن مع سر مدفن الاسكندر وانهما موجودان تحت انقـاض من التراب والكثبان وانه قد يكشفهما الى العيون في يوم من الايام ضربة فأس اومعول عامل يوجهـه اختصاصي بالعاديات وخبير بالآثار .

---

(١) في مجلة الايمان ص ٤٤ من عدد آب سنة ١٩٥٨ .

تلخيص واستنتاج

ان غايتي من تقديم هذا البحث دفع الافتراءات الكاذبة التي تتهم العرب بحرق مكتبة الاسكندرية ولكن لدى مباشرتي كتابة هذا الموضوع رأيتني مضطرا لجعل عنوانه نظرات الى الاسكندر والاسكندرية القديمة وحضارتها وما قيل عن حرق مكتبتها .

واني لاستميح لنفسي ان احدث عن نظرة العرب الى الاسكندر الكبير وقول القرآن الكريم فيه حديثا يخيل الى ان اكثر عناصره غير معروفـة لدى الكثير من المؤلفين الغربيين والشرقيين ومن بينهم المؤلفين العرب .

١ — ان للاسكندر مقاما من التقدير والاحترام عند العرب وفي الاسلام لم ينله فاتح غيره رفعه في نظر الكثيرين منهم الى درجة الرسل والانبياء مستندين في ذلك الى ماذكر عنه في الآيات من ٨٣ الى ٩٨ الواردة في (سورة الكهف ١٨) من القرآن الكريم .

٢ — يدعو نبـأ ذي القرنين الاسكندر في القرآن الكريم الى الجد والعمل والعدل والانصاف وعدم السكر بلذة السلطة او الانتصار وبذل الجهد صيانة للحرية والتمدن والتعفف عن الاموال ومشاطرة ذوي السلطان العمال في الاعمال وتخليد جميل الثناء وجليل الآثار والاحسان الى النوع البشري والسعي الى توحيد الكلمة بين مختلف الشعوب .

٣ ــ يرى الاسلام ومن ورائه العرب والمسلمون ان الاسكندر فاتح فتح القلوب والعقول، قائد فكر عالمي آمن بالله فمنعه ذلك من التعصب لقومه والتحيز لاهل مذهب دون آخر وانه كان للناس جميعاً على اختلاف مللهم ونحلهم ،نشر المحبة والمودة والاخاء والمساواة بين الناس، وانه جعل من الاسكندرية منهل علم ومبعث حضارة اسكندرية جمت مع حضارة اليونان حضارات الشرق كله ، اراد الاسكندر نشرها في العالم جميعه لذلك وضع خطة تضمن نشرها في اوروبا بعد ان يظفر بها في الشرق فحال موته المبكر دون تنفيذ هدفه السامي الانساني .

٤ ــ اسبغ الاسكندر والبطالسة على جماعة علماء الاسكندرية والعلوم التي تدرس في انديتها اسم مدرسة الاسكندرية فصارت علما لهم في اسفار التاريخ ، تميزت المدرسة الاسكندرية بآراء يدعمها البرهان والتجربة والاختبار والدرس مما يحتم علينا ان نعترف لاولئك القوم في فجر المعرفة العلمية ، بانهم فطنوا الى الاستقراء والتجريب واخذوا انفسهم بهما فجاء كثير من علمهم راسخا على الدهر ، يشهد لعقولهم بالتفوق ولاسلوبهم العلمي بالمضاء .

٥ ــ ان ارسطو طاليس معلم الاسكندر اول من جمع مكتبة اليونان وان مكتبته اصل مكتبة الاسكندرية وان كتبه جميعا كانت فيها وان البطالسة اكثروا من جمع الكتب اقتـداء به واكراما لذكراه وان عدد الكتب في مكتبات الاسكندرية بلغ ٧٠٠٠٠٠ مجلد .

٦ ــ عزا رواة متأخرون عن الفتح العربي للاسكندرية الى عمر ، خليفة المسلمين الثاني الامر بحرق مكتبة الاسكندرية ، ولقد اجمع البحاثون المعاصرون من عرب ومستشرقين ان رواية اتلاف المكتبة على يد فاتح مصر عمرو بن العاص بأمر من الخليفة عمر رواية ملفقة عارية عن الصحة، ومن بين هؤلاء البحاثين بطلر وكازانوفا ويعقوب صروف وامين خير الله وحتي وجبور وكثيرغيرهم.

٧ ــ ان في تعاليم القرآن الكريم والاحاديث الشريفة من روائع الكلام في التشجيع على العلم واكتسابه وحفظ آثاره وتخليد ذكرى القائمين به كما ان في كلام عمر الخليفة الثاني للمسلمين من تشجيع للعلم واحترام لاعمال الاخرين وتقدير لهم وتسامح شديد معهم مايجنذ الافتراء عليه بحرق مكتبة الاسكندرية ،ومن المعروف ان تواصيه خيرة انسانية لامثيــل لها لم تبلغ مدنيتنا الحاضرة جزءاً من انسانيتها .

ان شخصاً هذه سيرته عرف بتقديره لاعمال الاخرين فوصى بهم، كما عرف بتشجيعــه على كسب العلم ،لايمكن ان يدعو الى تبديده. كما ان لغة الامر المزعوم بعيدة عن لغة عمر ولذلك فان الرواية افتراء عليه وعلى العرب تدحضها ادلة كثيرة .

٨ ــ ان سر المكتبة يصحب سر مدفن الاسكندر وقد يكشف القناع عن هذين السرين معول عامل يوجهه خبير بالماديات والاثار .

ذلك هو خلاصة ما اثبت في بحثي راجيا ان اكون قد وفقت الى تناوله من جميع جهاته .

أزمة الحياة البرلمانية في فرنسا

بقلم امانويل برل

EMMANUEL BERL

ترجمة وليم خوري

ان تاريخ فرنسا الحديث ، وعلى الاخص في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية مدرسة غنية بالعبر ، والاحداث ، والافكار أيضاً ، في مجال الديمقراطية بين النظرية والتطبيق ، وفي مجال أزمة الانسان الحديث بين حريته ، وضرورات تطوره وتفوقه .

وفي هذا المقال الذي اخترناه (المعرفـة) للترجمة ، يحاول المؤلف الفرنسي أن يجد لحياة الشعب طريقاً ثالثة غير طريق (التنازع الحزبي) وطريق (التحكم الفردي) : فما هي هذه الطريق ؟

ان فرنسا منهمكة الى ابعد حد ومرة اخرى بمشكلة دستورها نفسه ولقد اصبحت رغبـــة فرنسا بتغيير الدساتير قوية لدرجة كبيرة ولم تعـــد المحنة الدستورية توفر حتى واضعي الدستور، فقد اعترف رئيس الدولة بأنـــه في الفترة التي كان يقـــترح فيها دستور / ١٩٥٨ / كان يفكر في التعديلات التي سيدخلها عليه في المستقبل، وكان شأنه في ذلك شأن الرجل الذي بينما هو يحتفل بزواجه من امرأته السابعة يسر الى بعض الحضور بأنـــه مشغول الفكر بشكل غامض بالزوجة الثامنة.

ان كل شيء يجري في فرنسا وكأنه لم يتم وضع اي نوع من الدساتير مع ان الدستور هو وسيلة الاستقرار منذ الاستفتاء عليه او حتى قبل ذلك بقليل. فمنذ قيام الثورة الفرنسية لم تعرف فرنسا الاجماع وكذلك فمنذ الاستقلال الامريكي اتخذ الدستور صفة القدسية، وعمل واضعوه على ان يدخلوا فيـــه القوانين التي يريدون لها البقاء، الامر الذي كان في الواقع دون جدوى لان القوانين الدستورية لم تكن في فرنسا اقل زوالاً من القوانين الاخرى.

واذا كان الاستفتاء قد اصبح سلاحاً ماضياً مطلقا على الصعيد السياسي فهو بذلك غير مقبول عندما يتصرف به رجل فرد ويحتكره تماما، كما يكون من الرهيب المخيف ان يتمكن رجل امريكي او روسي بمفرده ان يعلن حربا ذرية.

اعتقد من ناحية اخرى انه لو امكن توجيه السؤال الى الفرنسيين عن طريق الاستفتاء : هل يجب اجراء استفتاء في / ٢٨ / تشرين الاول حول انتخاب رئيس الجمهورية لاجابت اغلبية ساحقة كلا.

وانه طبيعي جدا ان يستفتي رئيس الدولة جمهور الشعب ولكن الشيء غير الطبيعي هو ان لا تتمكن الجمعية الوطنية ولا مجلس الشيوخ ولا المواطنون انفسهم

من طرح مثل هـــذا الاستفتاء . ولقد تعلمت ان الاستفتاء هو عكس الانتخاب فبالانتخاب يسلم الشعب مقاديره الى شخص بينما الاستفتاء وسيلة تعاد فيها السلطة الى الشعب . وهذا يعني ان الحكومة لا تبدي رأيها في الأمر المطروح على بساط البحث وان الرأي يعود الى المواطنين وحدهم **ولكن عندما تكون الحكومة عاملة على وجه التأكيد بما يفرضه الصالح العام فان الشك يتطرق عندئذ بنيتها في طرح السؤال .**

وقد رأينا من ناحية ثانية ان الحكومة تخلص الى القول : أن المسألة التي أطرحها عليكم ليس لها اهمية في الحقيقة بل المهم في الأمر هو الثقة التي تمنحوني اياها او تحجبونها عني . وهكذا يدفع المواطنون الى اعطاء رأيهم حول موضوع يختلف في جوهره عن المسألة المطروحة او هو عكس ما يعتقدونه صحيحا لدرجة انهم بعد ان يكونوا اجابوا على السؤال لا يكون رأيهم أوضح منه عمـا كان قبل الجواب .

وتجرى الامور كما لو ان الحكومات ترى في الاستفتاء سلاحا مناسبا فعالا ولكنها لا تثق بهذا السلاح نفسه أكثر من ثقتـــها بالمجالس والاحزاب والجمعيـات .

ان المسألة الحقيقة تقوم على معرفة الكيفية التي اوصلت الفرنسيين الى هذه الدرجة من البلبلة ،ويحضرنا بهذه المناسبة الدستور الذي تخيله (روشفور) وينص:

المادة الأولى : لا شيء .

المادة الثانية : لا يكاف احد بتنفيذ هذا المرسوم .

ان الامر عندي كما هو عند أنصار الرئيس دوغول يتلخص في انه شخـــص لازم ولا يمكن لغيره ان يقوم مقامه الان ، ولكنه ليس مخلداً فكلنا صائرون الى الزوال عاجلاً او آجلاً .

منذ ان عرفت الوجود رأيت الفرنسيين مقتنعين في آن واحـــد بأن مجلس النواب هو السلطة الشرعية ، ولكن ليس له أي قيمة . ولقد كان الامر كذلك قبل ولادتي اذ ان بودان في عام / ١٨٥١ / اضطر الى ان يجازف بحياته ويقتل ليثبت ان النائب يمكن ان يكون شجاعاً فلا يفكر فقط بالخمسة والعشرين فرنكا التي يتقاضاها في اليوم . **لقد كان الرأي العام دائماً مع البرلمان وضد اعضائه في الوقت نفسه** وكانت المحاولات تجري لتجاوز هذا التناقض بلوم الاحزاب كما كانت الاتهامات القاسية توجه الى المجالس دون انقطاع. والغريب ان الاستنتاج كان يقول دائماً بالابقاء على هذه المجالس وبعدم جواز الغائها . لقد قال بومبيدو انه وجد في الجمعية الوطنية روح الشر وشعر بها ولكنه مع ذلك لا يريد ان يجردها من صلاحياتها .

ومثلما كان الحال يجري في ظل النظام الملكي حيث لم يكن يوجه الهجوم الى الملك بل الى وزرائه وحاشيته وحتى الملكة ، نرى الآن في ظل النظام الجمهوري أن الرأي السائد يقول ان البرلمان شيء صالح بطبيعته وان الاحزاب هي مصدر الفساد الذي يلحق به .

وليس هذا غير صحيح فحسب بل ان العكس هو الصحيح. ان الناس يأخذون على الأحزاب تعددها وتشابكها والمحالفات فيما بينها التي تملها بين حين وآخر على انها محالفات سياسية وغير أخلاقية ومن المضحك ان تلام الاحزاب على تعددها في الوقت الذي لم تنقسم فيه الاحزاب على ذاتها الا خلال الانتخابات. فماهي المصلحة في الاقتصار على حزبين او ثلاثة اذا كان كل حزب عند اول مشكلة ينقسم الى فئات مؤيدة واخرى معارضة وغيرها مستنكفة .؟

ترى ما الذي يولد هذه الانقسامات ؟ انه الاستفتاء والانتخاب اي الاداة البرلمانية نفسها التي تمزق الأحزاب، لانها تلزم اعضاءها بأن يتخذوا مواقف في مسائل مختلفة عن المسائل التي قام اتفاقهم ولقاؤهم عليها من الاساس وليس هنالك ما يثير الدهشة والغرابة في ان الاشخاص الذين اتفقت آراؤهم حول السياسة التعليمية مثلا يختلفون عندما يصبح الامر متعلقاً بسياسة الابنية اوالايجارات.

ولا شك في ان التنافس على السلطة وشهوة الاستيزار لعبت دورها في تغذية مثل هذه الخلافات. وان تتبعنا للسياسة منذ خمسين سنة اكد لنا انالمناقشات وانتخابات المجالس النيابية اثارت انقسام الاحزاب اكثر مما عمل انقسام الاحزاب على تزييف انتخابات المجالس المذكورة،وانمصدر الخلل هو انالمجالس قد تأسست في الوقت الذي كانت فيه الامة مجموعة اتحاداتمن المناطق الانتخابية، **وان الامة الحديثة تختلف** دوماً عن مجموعة المناطق التي تضمها . ومن المؤكد ان للحياة الاقليميةوجودها،ولا بد من رجوع النائب الطبيعي الىمحل تسجيله وهويعود الىهذا المكان ولو انه فرض فيه عن طريق حزبه . ولـمـا كانت السياسة العامة تتوزع دائماً في سياسات المحافظات والبلديات والمناطق الانتخابية فان هذه السياسة تؤدي إلى تمزيق البرلمانات وتزييف دور الأحزاب في الحياة الديموقراطية.

لقـد تجلت القيمة الكبرى لكتاب منديس فرانس الأخير **الجمهورية الحديثة** في انه شخص الداء بوضوح.

لقد ادرك انالاقتصادالحديث يتطلب التخطيط الذي يأتيفيالدرجة الاولى من الاهمية ، اذ لاشيء مثلالتخطيط يضمن مستقبل الشعوب واذا كان الانسان ديمقراطياً فعليه ان يرغب في ان يصبح الناس قادرين على مناقشة الديمقراطية والاهتمامبها الى أقصى حد ممكن ، وان مفهوم الديمقراطيةهكذا

يبدو متوافقاً مع حسن الادراك وأنه من غير المحتمل وغير المرغوب فيه أن لايهتم الناس اطلاقاً بالاشياء التي تخصهم . ويقترح السيد منديس فرانس :

١ — ان يساهم البرلمان في تأليف الحكومة ويبقى مكلفاً بأن يترجم ارادة الامة عن طريق القوانين .

٢ — ان تكون الجمعية الوطنية والحكومة مرتبطتين بنظام الاكثرية وان يرجع كل من هذين الطرفين الى ارادة الشعب في حال انحلال هذه الرابطة .

٣ — ان يكون رئيس الجمهورية شخصاً متميزاً عن رئيس الحكومة لتأمين هذا التحكيم الأخير .

٤ — ان يقوم مجلس اقتصادي موسع النطاق حتى حدود مجلس الشيوخ يساهم بشكل فعال في القرارات الكبرى .

٥ — ان يكون التخطيط الهدف الاول للمجلس الاقتصادي والجمعية الوطنية والحكومة .

٦ — ان تعبأ جميع الجهود لرفع مستوى الثقافة الاقتصادية لدى الفرنسيين ، ليس بالراديو والمدرسة فقط بل وبالاحزاب ايضاً .

ان هذا البرنامج يبدو منطقياً الى ابعد الحدود ولكنني اعتقد مع ذلك انه من غير المرجح تطبيقه بشكل فعال .

على انه من الممكن بل من الضروري بالتأكيد ان تعبأ الطاقات القومية لتنفيذ خطة موضوعة سلفاولكن يبدو صعباً جداً حمل المواطنين والاحزاب على اعلان رأيهم حول الفوائد التي قد تنتج عن تطبيقها .

انهم يرون مبدئياً وهم محقون في ذلك انه يوجد في هـذا النطاق حقائق واضحة لامجال للسياسة فيها ، فلايخضع للاستفتاء مبدأ كارنو او قانون

ماريوت . اما حيث لا يؤدي الحساب العلمي الى القرار اللازم فيصبح من الصعب تحديد طريقة الوصول الى القرار . اننا نفهم اليوم ان مستوى المعيشة لدى شعب من الشعوب يتناسب بشكل ملموس مع كمية الفولاذ التي يستهلكها والتي ينتجها ، وينتج عن ذلك ان كل فرد يجب ان يرغب في توفر انتاج متزايد من الفولاذ ، ولكن هذه الزيادة اذا كانت تقتضي الاختيار بين زيادة في انتاج الحديد او زيادة في انتاج معـــادن اخرى غير حديدية اجد نفسي عاجزاً عن الجواب ، وعندما ادرس هـذه المسألة اجد نفسي في مغامرة قد اضل معها الطريق ، لانني اجهل فعلا النسب التي تقوم فيها المواد البلاستيكية مقام الفولاذ كما اجهل كذلك ما اذا كان بامكان الكيماوي ان ينتج من القش والحشيش عصارة تقوم في انتاج الفولاذ مقام المعدن غير الحديدي الذي تقلقني ندرته ، مع العلم ان مزج الحـــديد بالمواد البلاستيكية امر محقق من ناحية اخرى .

واني لارغب كذلك في ان تهتم الاحزاب بالخطط الاقتصادية والاجتماعية اكثر مما تفعله في الوقت الحاضر . وان تساهم في هذه الخطط واني لاتذكر اعتزاز (فاندرفيلد) المحق عندما كان يعدد ويبين لي المنجزات الاقتصادية التي حققها الحزب الاشتراكي البلجيكي . لقـد اطلعني على منشآت الصيد والتعاونيات والمطابع والمطاعم التي انشأها الحزب .

لقد اصاب منديس فرانس كبد الحقيقة ، واذا كان يقول بأن الاحزاب تعبر عن الاختلافات العقائدية والسياسية ، فليس من الضروري ان تبدد الاختلافات تلك المكاسب التي تفرض الخطة حصولها ، واذا كان الامر يتعلق بالاختيار بين خط حديدي وقناة ري فليس هنالك مبرر يدفع الاشتراكي الى تفضيل احـــد المشروعين ويدفع غيره من الاحزاب الى تفضيل المشروع الاخر **فمن المستحيل**

كما انه من غير المرغوب فيه ان ينظر الى الامور الفنية من وجهة نظر سياسية .

وسيكون من الاسهل والاكثر تمشياً مع الطبيعة ان تقتصر مناقشات المجالس السياسية على المسائل السياسية البحتة وان توكل الى هيئات اخرى الشؤون الفنية . لقد كان افلاطون يعلم منذ القديم انه في نطاق صناعة الجرار يبقى الفاخوري صاحب الاختصاص وحده . واني لاعتقد جازما بان **البرلمانات والحكومات تضعف من اعتبارها عندما تدعي لنفسها كفاءة شاملة** وعندما تريد ان تحل بنفسها المسائل التي ليست من اختصاصها .

ان كل حكم يميل **الى** توسيع سلطاته وهو لا يدرك **انه يفقد في مجال القدرة ما** يحاول ان يكسبه في نطاق الاتساع ، وكذلك فان طبيعة الحكم « سواء اكان حكما شخصياً او برلمانياً » تدفعه الى محاربة الهيئات الوسيطة واخضاعها وحلها . والحكم يمارس بهذه العمليات تجارة خاسرة .

لقد عملت المجالس اخيراً على توسيع نطاق لجانها كما اقام الجنرال الرئيس حوله شبكة من المستشارين الذين يعالجون على هواهم جميع المشاكل من كل انواع القطاعات ، مع العلم ايضاً ان الوزراء قد وسعوا اعمال مكاتبهم الى درجة انتهت بأن اضيفت ادارة بأكملها الى الادارة الأصلية التي كان من مهمة الوزراء ان يديروها لا ان يبدلوها . واني لاعتقد ان الوزراء والمجالس خسروا بهذه الاجراءات بقدر ماربحوا ، وكان ليون بلوم يخشى ان تحمل اللجان البرلمانية بالنسبة للبرلمان اضراراً اكثر مما تجلب له من المنافع . والحقيقة ان هذه اللجان قد حققت كثيراً من الخدمات ولكنها مع الاسف ساهمت في اعطاء صفة عدم الاستقرار للمجالس التشريعية والاحزاب . ولهذا بات من المفضل ان تضم هذه اللجان فنيين يداومون

فيها بشكل مستمر وتلجأ المجالس الى خبراتهم دون ان تتركهم يتخذون قرارات ، ويجب على المجالس نفسها ان تتخذها اذا كانت من صلاحياتها. كما يجب على هذه المجالس ان تحيل الى الهيئات المختصة ما ليس من صلاحياتها المباشرة. وان هذه الهيئات موجودة على الغالب فهناك مجلس الدولة وديوان المحاسبات ولجنة الدستور والمجلس الاعلى للتربية الوطنية ومجلس القضاء الاعلى ومجلس الاذاعة ولجنة التخطيط . ولكي يتسنى للدولة ايضاً ايفاء الخطط الاقتصادية والاجتماعية حقها يترتب اعطاء لجنة التخطيط هذه صلاحيات اوسع مما تتمتع به حالياً وتشكيل اللجان الفرعية الاخرى التابعة لهذه اللجنة .

لم اصدم بتهجمات الرئيس على الاحزاب بقدر ما صدمت بالاستهانة التي ابدتها الحكومة نحو مجلس الدولة ولجنة الدستور . ولقد سمعت دائماً احاديث السوء عن الاحزاب ولكنني لم اذكر ابداً انني سمعت رئيس حكومة يتكلم كما تكلم بومبيدو عن مجلس الدولة. واني اعلم كذلك انه خلال مشكلة دريفوس تعرضت محكمة التمييز لكثير من السباب والشتائم ، ولكنني كنت صغير السن فلم احتفظ بذكريات واضحة عن ذلك مع العلم ان الشتائم كانت تصدر آنذاك عن الصحافة والجماهير لا عن رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء .

لقد تعرضت الآراء الاستشارية المحضة الى الهزء والسخرية سواء فيما يتعلق بلجنة الدستور او بلجان الاذاعة التي كان هنري توريز يترأس أهمها شأناً دون ان يتمكن من ان يعطي لاعمال هذه اللجان أي جـــدوى ومما لا ريب فيه ان القرارات من صلاحية الحكومة ولكن ما هو نفع طلب الفتاوى او اعطائها اذا كانت السلطة التي تطلب الفتوى وتتلقاها مصممة على ان لا تعيرها اي اهتمام .

ولكن هذا الوضع لا يمكن ان يدوم . ان الوسيلة الوحيدة لمنع الفنيين من ان يكونوا كل شيء هي القبول بانه يجب ان يكون لهم مكانهم في اللجان البرلمانية ، تلك اللجان التي تزود بالمعلومات عن طريق الموظفين الملحقين بها وعن طريق الوزراء انفسهم المفروض انها تراقبهم .

يبقى ان الوزراء انفسهم يكسبون عندما يرون امامهم والى جانبهم لجاناً من اصحاب الكفاءات كما يكسبون في الاقلال من منازعات هذه اللجان .

الخلاصة يجب **اولا المحافظة على عمارات الهيكل السياسي** وتدعيمها او انشاء الجديد منها . اذ بدونها لن يكون هنالك شيء اسمه فرنسا الحديثة اوالجمهورية الجديدة . ان الجمهورية الرابعة لم تدرك هذه الحقيقة كما لم تحاول الجمهورية الخامسة ان تدركها .

ومن المرجح ان يؤدي اسلوب اليعاقبة في العصر الحديث الى الفوضى لأن هذا الأسلوب على صعيد الرئاسة ، وفي ميدان البرلمان عاجز عن ضبط النظام بل هو السبيل الى البلبلة والاضطراب . وان فعالية (النظام) سواء في السياسة او الفن يفرض نكران **الذات وان الذي يطمع في كل شيء يخسر كل شيء** . ومع الاسف ان الفنيين ليسوا اكثر ادراكا لهذا الموضوع من رؤساء الحكومات ورؤساء الاحزاب ، ولهذا فالضرورة تقضي بأن يقرأ الانسان كتاب منديس فرانس وبأن يعيد قراءة مونتسكيو .



القات
عدو اليمن الاكبر

بقلم : المهندس الزراعي أحمد صدقي زكريا

لامراء في ان اليمن في ماضى من عهود المعنيين والسبأيين والحميريـــين الذين سادوا وشادوا فيه قروناً عديدة ، كان على قـدر كبير من الحضارة والعمران ورقي الزراعة والتجارة ورفه السكان حتى سماه الرومان (العربية السعيدة) وشهد بذلك القرآن الكريم في سورة سبأ حينما قال (لقد كان لسبأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) الخ الآية .

لكن اليمن بعد تلك العهود توالت عليه المصائب والمحن وكثرت فيـــه الحروب والفتن ولاسيما بعد ان ابتلي بالحكام الذين هبطوا وبسطوا فيه سلطانهم ولم يعملوا فيـــه شيئاً من الاصلاح والاعمار ولم يفكروا الا بتوطيد جبروتهم واملاء خزائنهم بأموال الضرائب المتنوعة يكدسونهـا ولاينفقونهـا في سبيل الله والوطن حتى اوصلوا اليمن الى حالة يرثى لها من الفقر والجهل والمرض والتخلف وحتى سمي في يومنا (العربية الشقية) .

ومصائب اليمن ودواعي شقائه وتخلفه كثيرة ، شاهدتها لما كنت في اليمن سنة ١٩٣٦ أخدم زراعتـه واسعى لترقيتهـا . وسأقتصر في هذا المقال على ذكر أكبرها وأدهاها التي اسمها (القات) . فالقات شجر خبيث ابتلي اليمانيون بمضغ أوراقه المخدرة ، كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم ورجالهم ونساءهم ، على حين أنه مضر أضراراً شتى . فقد أدى استعماله لديهم منذ أربعة قرون الى أن اضاع صحتهم واضعف همتهم وبعثر ثروتهم واصبحوا على توالي الاجيال صغار الأجسام هزال الابدان صفر الوجوه غائري العيون ضعاف النسل . لا دأب لأحدهم مها عضه البؤس بنابه الا ان يقتر على نفسه وعياله لينفق معظم مايجنيه على شراء القات ومضغه كما يخدر رأسه ويشرح صدره على النحو الذي يحصل للمبتلين بالأفيون والحشيش في الصين والهند وغيرهما . وهم لايبغون عنه حولا ولايقبلون به نصحاً ولاجدلا . بل يمدحونه ويتباهون به ويهجون من ينقده ويذمه بقصائد وأشعار لا يقرها العقل منها قولهم :

زبرجداً يقطف الاخوان أم قاتا   يسلو به العيش أحياناً وأوقاتا
ياعاذلي في بلوغ القات مت كمداً   لانترك القات احياءً وأمواتا

وجل ماللقات من نفع هو انه يخدر الفم والمعدة على النحو الذي تفعـــله أوراق شجر الكوكا التي يصنع منها الكوكائين . اي انـه يبعث الجذل والنشوة والسهر ، ويقال انه مضاد للزحار والملاريا ويقي من النزلات الصدرية . لكن إثمه أكبر من نفعه ، لأن اوراقه تحتوى على شبه قلوي خاص به يدعى (قاتين) وعلى شبه قلوي آخر هو (القهوئين) وعلى عنصر (التانن) . فالقاتين يجفف الباطنـة والقهوئين يطرد النوم وينبه الأعصاب والتانن يوجب العطش . هذا الى ان القاتين يقلل شهية الطعام ويضعف الباه ويوجب الصداع والقبض وآلام الامعاء الغليظة. والنشوة والاسترخاء اللذان يحدثها يؤديان الى فتور وكسل في البدن ينفذان الى قرارة النفس فيجعلها خاملة حائرة . ومن خواص القات ايضاً انه يؤثر في الغـدد اللعابية ويزيد افراز اللعاب ويجبر الماضغ على البصق بكثرة ومراراً عديدة كما يجبره عنصر التانن على شرب الماء بترادف واستمرار . وقد يؤدي الابتلاء بالقات لاسيما بالصنف الاول منه الذي سنتحدث عنـــه الى الجنون ناهيك عن مرض الباسور المتفشي في اليمن بكثرة . والنساء المبتليات بالقات يجنين على انفسهن واطفالهن . لأن الطفل اثناء الحمل والرضاعة يتغذى بخلاصة القات الذي تمضغه امه . اضف الى هذه الاضرار في الصحة ان المبتلى بالقات ينفق مايجنيه لقاء قوت يومه ثمناً للقات الذي يباع بأثمان عالية . بينما زوجته واطفاله يتضورون جوعاً او يقتاتون بالشيء الغثيث .

ووطن القات الأصلي الحبشة في شرقي افريقية . وقـد انتقل من الحبشـة الى اليمن في القرن العاشر او الحادي عشر الهجري . اي ان اليمانيـــين ما كانوا يعرفونه قبل القرنين المذكورين . والبرهان على ذلك هذه العبارة التي عثرت عليها في كتاب صبح الاعشى للقلقشندي (ج ٣ ص ٣٠٦) قال رحمه الله في بحث الحبشة

(وعندهم — يعني اهل الحبشة — شجر يسمى جات بجيم بين الجيم والشين ولا ثمر له ، وانما له قلوب — يعني اوراق — تشبه قلوب النارنج تؤكل فتزيد في الذكاء والفهم وتفرح . الا انها تقلل الطعام والنوم والجماع . وعنايتهم به كعناية اهل الهند بالتنبل وان كان بينهما مباينة . واي نفع فيما فائدته تقليل الطعام والنوم والجماع اللاتي هي لذائذ الدنيا . حتى انه يحكى انه وصف لبعض ملوك اليمن فقال : لا يذهب متحصل ملكي الا على هذه الثلاث فكيف اسعى لذهابها بأكل هذا ؟) (١) .

والقات ينمو في جبال اليمن ويجود في الاودية الرطبة الظليلة التي لا تتعرض لحرارة الشمس الشديدة الا بضع ساعات في اليوم . وهو من الفصيلة الذاتيـــة المساة (سلاسترينية) واسمه العلمي (قاتاادوليس) وهو في المنظر يشبه الجوز وعندنا اي انه ذو ساق قائم طوله بين المتر والخمسة امتار . وحول الســـاق فروع وأغصان منتصبة وموازية للساق . وخشب ساقه وفروعـه رمادي اللون كلون شجر الزيتون . واوراقه بكبر اوراق شجر اليوسفي او النارنـج وهي قلبية الشكل وشديدة الاخضرار . ولا يكون للقات ثمر . ومحصوله اي اغصانه الغضة التي تقطف اوراقها تحصل طول السنة . ولا يستفاد من الشجرة الا بعد غرسها بثلاث سنوات . وهو يتكاثر بفسائله التي تنمو حول ارومته او بغرس عقله (جمع عقلة) المأخوذة من قص اغصانه .

وللقات اصناف مختلفة تختلف اسماؤها باختلاف الاماكن التي ترد منها . اشهرها القات التعزي الذى يحصل في جبل صبر حول مدينة تعز ويشحن الى عدن . والقات الريمي الذي يحصل في جبل ريمة ويشحن الى الحديدة . وهذان الصنفان هما اجود القات وأغلاها ثمناً .

---

(١) قلت : اين هذا الملك يرى الآن مابلغته حالة أهل بلاده باستعمال ماعافته نفسه . وقد كان مصيباً جداً في رأيه .

وللقات ايضاً ثلاثة اصناف تختلف بحسب الاتربة والاجواء التي ينموفيها . فالصنف الاول شديد التخدير — يؤثر في دماغ الانسان اكثر من حشيشة الكيف وقد يسلب العقل ويؤدي الى الجنون . والصنف الثاني وسط في تخديره مها مضغت اوراقه وعصر ماؤه . يؤثر بقدر النبيذ المعتق او العرق القوي. والصنف الثالث — اقل تأثيراً من الصنف الثاني في بعث النشوة والانبساط ، لولا انه يحرم النوم ويجلب الارق . وطبيعة القات حارة تدعو ماضغه الى شرب الماء بكثرة وعلى التوالي . وهو يجعل الشفتين جافتين جفافاً شديداً . وان سألتهم عن سبب استعمالهم القات وابتلائهم به اجابوا **ماذا نعمل وليس لدينا سواه اقتل الوقت والترويح عن النفس انه يفرج الهموم ويبدد الغموم ويبعث الانبساط والانشراح .** والواقع ان بلاد اليمن محرومة من كل مقهى ونادٍ وملعب ومنتزه عام ، وليس فيها دار تمثيل او موسيقى او سينما . لأن كل هذه الأماكن والمباهج ممنوعة بأمر الحكام الشديدي التزمت .

والقات يعد في يومنا هذا اجل المحاصيل الزراعية في اليمن واوفرها ربحاً لزراعه وتجاره واكثرها ايراداً لبيت مال الحكومة . لكن ربحه محصور في داخل اليمن لا في خارجها . لأنه لا يصدر الى خارج اليمن ولا يستسيغ طعمه الا اليمانيون فحسب . على انه صار يصدر الى عدن وصارت الطائرات تحمله فيصل غضاً طرياً في اسرع وقت، وهذا هو المطلوب في مذهب المبتلين به . واذا قل محصوله في اليمن جلبه تجار عدن من الحبشة بالطائرات ايضاً . لهذا فقد انتشرت زراعة القات في اليمن انتشاراً هائلاً وزاحمت زراعة البن وغيرها مما هو صالح للتصدير الى خارج اليمن والى ادخال العملة الصعبة . واغصان القات المقطوفة تجمع وتعمل بشكل رزمة تشبه الخسة السمينة. وثمن الرزمة كما قدمنا غالٍ لايقل عن ٥٠—٧٥

قرشاً سورياً . ومن هنا كان الفقراء المدقعون في مدن اليمن وقراه يعجزون احياناً عن شرائه واستعماله فيبعدون عنه ،كرهين والحسرة مالئة قلوبهم .

واستعمال القات يدعى في اليمن (تخزين) من كلمة الخزن . ولهذاالتخزين أوقات واماكن معينة يرتادها اكابر القوم واغنياؤهم .اماالفقراءوالعمال والباعة والصناع واسم هؤلاء هناك (عيال السوق) فيخزنون وهم سائرون في طريقهم او قاعدون في حوانيتهم وراء بضاعتهم او منهمكون في صناعتهم ، لاتفوتهم لقمة منه . وتراهم وقد انتفخت اوداجهم بما وضعوه من ورق القات وجعلوه كالكرة التي اكبر من الجوزة وملأوا افواههم بها يحركونها دوماً . اما الكبراء و لاغنياء فلهم مكان مسقوف مغلق قد يكون خاصاً بواحد منهم اسمه في صنعاء (المفرج) وفي الحديدة (البرز) . . هو غرفة كبيرة مستطيلة تكون في أعلى طبقة من دورهم ذات الثلاث او الاربع طبقات ولها نوافذ واسعة مشرفة من عل على مناظر بعيدة ، يمدون فيها الطنافس والمفارش والمساند الجميلة ، يتكؤون عليها ويحتشدون . ويكون وسط المفرج ملآناً برزم القات وامام كل من الجالسين نرجيلة طويلة ضخمة يسمونها (مداعة) لايقل علوها عن المتر متقنة الصنع عليها رأس كبير فيه تنباك يدعونه الحومي مصدره من حضرموت ، وهو قوي شديد الاثر .ولكل نرجيلة نبربيج طويل وغليظ مغلف بقماش حريري رقيق مزركش وطول النبربيج لايقل عن الاربعة امتار . ويكون في وسط المفرج ايضاً منقل كبير عليه الاباريق النحاسية اللامعة بمنقوع قشر البن وفناجينه وابريق فخاري فيه ماء يستعمله ماضغ القات لغرغرة فمه ومبصقة نحاسية يستعملها للبصاق ولطرح بقية اوراق القات التي ينتهي مصها ولا يبلعها بل يمص ماءها ثم يطرحها في المبصقة .

ومجالس التخزين تبدأ كل يوم من بعد الظهر الى بعد العصر حيث يذهب

كل امرىء الى عمله . ثم يجددون المجلس من بعد العشاء الى وقت متأخر من الليل. وبينا هم يخزنون يتحادثون ويتنادمون او يتمازحون او يغنون ويطربون . وهم اذ ذاك لا بد ان يغلقوا الابواب والنوافذ لان نشوة القات وبهجته لاتتم مالم يكن جو المجلس حاراً محصوراً ، ولهذا ترى هواء هذه المجالس حاراً وكثيفاً وفاسداً من جراء تصاعد دخان النراكيل وانفاس الجالسين المزدحمين وروائح عرقهم الذي يكثر بسبب هذا الحر وكثرة شربهم الماء . فاذا دخل انسان غريب غير معتاد على هذا المنظر ضاق صدره واكتأب وحاول الخروج والابتعاد . واذا سألتهم عن سبب اغلاق النوافذ وتكثيف الهواء وافساده اجابوا ان ذلك لخوفهم من البرد بحكم ان جبال اليمن باردة وان البرد اساس كل علة. وهو جواب غير مقنع . ولما كانوا يقضون الساعات الطوال كل يوم في هذا الجو الفاسد منذ اجيال صارت اجسامهم هزيلة وصحتهم متأخرة على النحو الذي قدمنا ذكره .

هذا والقات يرد كل صباح محملاً على ظهور الجمال من اماكنه الى المدن فيهرع تجاره قبيل الفجر الى استقباله في خارج المدينة ، ويتخاطفونه ويشتري كل منهم ما وسعه الجهد ويأتون به الى السوق. وهنا تجد الناس قد تهافتوا على شرائه كتهافت الجياع على شراء الخبز ايام الحروب او المجاعات ، يتزاحمون بالمناكب ريثما يفوز كل منهم برزمة او عدة رزم ، يهرول بها راجعاً وكأنه حاز سعادة الدارين .

وجملة القول أن اضرار القات باليمن وشعب اليمن جسيمة ، تعصف بصحتهم وحيويتهم وتهدد نشاطهم وتضيع اوقاتهم ، وفي اعتقادي انهم ماداموا مبتلين بهذا القات ومواظبين على استعماله كل يوم لاخير لهم ولا مستقبل ولا مجال لبروزهم ومجاراتهم شعوب العالم . وان مكافحة هذه الشجرة الخبيثة والسعي الى استئصالها وحرقها وتحريم زراعتها والاستعاضة عنها باشجار مثمرة اقتصادية صالحة

للتصدير وجلب العملة الصعبة كالبن الذي هو اصلح ما يعيش لديهم ويجود ، ثم البرتقال والليمون والزيتون والفستق والصنوبر المثمر ثم الاشجار الحراجية التي تعطيهم ما هو مفقود لديهم من خشب الصناعات وغير ذلك مما يثبت بعد التجارب المكررة انه يعيش في أجواء اليمن واتربته — كل هذا من اول واجبات الجمهورية اليمنية الفتية التي بدأنا نسمع بمشاريعها واحداثاتها الطيبة ، فلعلها فاعلة بما تمنيناه ان شاء الله .



كتب اصدرتها وزارة الثقافة والارشاد القومي — دمشق

• **الرأي العام**

تأليف الفريد سوفي
ترجمة الدكتور كامل عياد
مراجعة الدكتور جميل صليبا
٣٠٠ صفحة ــ قطع متوسط

الثمن ١٥٠ قرشاً سورياً

• **عباقرة العلم**

تأليف فيليب كين
ترجمة أديب يوسف
مراجعة الدكتور عبد الرزاق قدورة
٣٢٤ صفحة ــ قطع كبير

الثمن ٢٨٠ ق.س

• **افريقية الغربية في ظل الاسلام**

تأليف نعيم قداح
مراجعة عمر الحكيم
١٦٨ صفحة ــ قطع متوسط

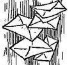
الثمن ١٦٠ ق س

الفنون

الكتاب والموضوعات



من أدب الرسائل



هل قرأت موراڤيا؟

تحليل "سأم" موراڤيا في رسائل متبادلة بين الأستاذين : ظافر القاسمي ونزار قباني

يسر (المشرقة) ان تقدم لقرائها في حقل الادب ، مقتطفات من رسائل متبادلة بين صديقين في موضوع أدبي ، شغل المثقفين والادباء في العالم ، واستكتبهم مقالات ومعالجات كثيرة في مواضيع مختلفة مثل أزمة الانسان الحديث واخلاقية الادب ، وحرية الفنان ، وجمالية الفن وفي هذه الرسائل والآراء المتبادلة ، تصوير لواقع عربي ، في النظر الى المعضلات الفكرية والفنية التي يعانيها ويعالجها المفكرون والأدباء الغربيون .

اخي نزار

اشواقي وتحياتي .. وبعد

فلعلك علمت أنني بادرت ، أول مابادرت ، في باريس للبحث عن كـتاب (مورافيا) ـالسأمـ L'ennui ، وقد وفقت اليه لدى اول مكتبة سقطت عليها .

وأنا لم أنس أنك أوصيتني أن أقرأه في باريس ، وفي جوها ، ولعلك علمت أيضاً أنني لم أوفق لا كثر من قراءة مقدمته والفصل الاول منها .

كذلك مازلت اذكر انك احتطت ، احتياط الفطن ، فأوضحت أن الكتاب (وسخ) ، ـ هذا لفظك ـ ولكن مؤلفه حلق في تحليل السأم من خلال القصة التي وضعها أو رواها .

ولقد طلبت الي رأيي في الكتاب ، وقد اتممت قراءته ، وان شئت دراسته ، اول امس ، وهأنذا أجد بعض الفراغ ، فألبي رغبتك ورغبتي ، وما كان لي ان لاأجيب طلباً لك ، ولا سيما مثل هذا الطلب ، الذي هو من شؤون الفكر ، ومن امور الفن الخالص .

وقد ترى أن الدراسة ، مهما بلغ شأوها ، ناقصة ، لأنها لم تستجمع شرطها الاول ، وهو قراءة الكتاب في باريس . ولكني أستطيع أن اطمئنك الى انني خلقت جو باريس ، وانا أقرؤه ، وتصورت كل مافيها ، وما اظن ان ذلك عسير ، وتقدير الدراسة ، في كل الاحوال اليك لا لي ، ولا يهمني الا رأيك ، لأنني اكتب رسالة خاصة ، ولا اكتب بحثا اعددته للنشر على العامة ، بل خصصت به خاصة الخاصة .

لقد عذلتك يانزار ، ثم عذرتك ، ثم شكرتك .

عذلتك لأنني لم اكد امضي في قراءة القصة حتى سئمت ، وبلغ بي السأم مبلغه من هـذا الحوار التافه ، الذي مثل له (مورافيا) عدة مرات ، وقد كانت تغني فيه مرة واحدة .

وعذلتك ، لأنني لااهوى هذا النوع من القراءة ، وليس لي به شغف . ان قصص الجنس متماثلة ، في كل الاقطار ، وفي كل الامصار ، وفي كل الادهار . ولقد بلغت من الحياة مبلغاً ، لم يعد يروقني فيه هذا الحديث السافر ، عن شؤون الجنس ، الا لماماً . اما الاغراق فيه الى مثل هذا الحد ، واما الاستغراق في موضوعه الى مثل هذا الحد ، فشيء اضحت تأباه طبيعتي ، ولااجد فيه اية متعة وكم حدثتك وانا اقرأ : ترى هل اردت ان تردني مراهقاً ، ام هل حسبتني مولعاً بالشهوات ام هل عرفت مني (او عني) انني شديد الولع بهذه النغمات ؟

ثم عذرتك ، لأن معرفتك بي سطحية ، ولم تدر شيئاً عن دراساتي في هذه الايام ، وعن الكتب التي اطالعها ، والمواضيع التي أهتم بها ، وتأخذ علي تفكيري ، وتستغرق وقتي .

وعذرتك ، لأنك رجل فنان ، وليس للفن قواعد ولاقوانين ، وان كان ينظمه الذوق العام . وقد شئت ان ترشدني الى ماجهلت ، وان تعرف مبلغ اثر هـذا النوع من الفن في نفسي ، وربما كان ذلك منك بغية اكتشاف المجهول ، او بغية الوقوف على رأيي ، (ان صح ان يكون لي رأي) .

ثم شكرتك ، لأن هذا الكتاب ـ واصارحك في هذا ـ هو اول كتاب من نوعه قرأته في حياتي كلها . وذكرت حديثاً جرى ربيع عام ١٩٦١ في دمشق بيني وبين عالم فرنسي ربطتني به صداقة قديمة تعود الى عام ١٩٢٩ ، يوم كان يتابع دروس اللغة العربية في مكتب عنبر ، وكان **يجلس بجانبي** في المقعد الامامي . انه (لاووست Laoust مدير المعهد الفرنسي بدمشق اليوم ، واستاذ في الكوليج دوفرانس . كان احد المحاضرين في مهرجان ابن تيمية ، وقد دعوته الى الغداء في نادي الشرق ، مع فريق من الاصدقاء . وخلال الغداء جرى ذكر (بريجيت باردو) والقانون الخاص الذى اصدرته الجمعية الوطنية في فرنسا باعفائها من ضريبة الدخل ، لأنها هددت بالانقطاع عن التمثيل اذا فرضت عليها الضريبة ، ولأنه ثبت ان موارد فرنسا من القطع الاجنبي من افلامها **تعادل موارد** معامل (رينو) بكاملها ، او تزيد عليها . انني اعرف ان (لاووست) مختص بالمذهب السلفي ، يدرس رجاله وآثارهم ، من أمثال ابن تيمية وابن القيم ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم . وكانت آخر محاضراته عن تفسير المنار في الكوليج دوفرانس ، ولست أدري لماذا بدا لي أن أسأله عما اذا كان قد شاهد أفلامها ، واذا به يجيبني: نعم ، شاهدت فلماً واحداً ، هو اقلها خلاعة ، واسمه (الحرية) ، وذلك لاتمام تربيتي ، قال بالفرنسية :(pour compléter mon éducation) . ذكرت هذا الحديث . وأنا في أواسط دراستي للكتاب ، وقلت: هذا رجل عالم غرق في أسفار العرب الاقدمين ، لايكاد يعرف غيرها ، وقد رأى لاتمام تربيته أن يقتطع من وقته الثمين جزءا في مشاهدة فلم لخليعة اسمها (بريجيت باردو) ، قد لا يعني شيئاً ، لا بالنسبة اليه وحده ، وانما بالنسبة الى اكثر الناس . فما بالي أضيق بقراءة كتاب قيل انه خير ما أنتج كاتب ايطالي قصصي معاصر ؟ لقد عرفت هذا من تعليق مجلة العربي (العدد ٤٨ — صفحة ١٢٧) على هذا الكتاب . انني سأضم الى القليل الذي تقفته شيئاً جديدا ، كنت أجهله ، فشكراً لك يا نزار !

وأعود الى الكتاب لأصارحك أيضاً أن الكتاب كله في مقدمته . رأيتها طريفة حقاً ، وفيها ما يستحق الوقوف عنده . واياك أن تزعم أن مرد رأيي هو قراءتي للمقدمة في باريس ،

فانها — أي المقدمة — وحدها من الكتاب ، تقرأ في اي مكان ، وتترك الأثر نفسه ، وقد يكون لغيرها من الفصول أثر مختلف ، إذا اختلفت أمكنة قراءتها .

أعجبني ايجـاد صلة بين شيئين ، يعتقد الناس للوهلة الاولى أنهما نقيضان ، هما السأم والتسلية . وأعجبت أيضا بتشبيه السأم بانقطاع التيار الكهربائي ، وبتعليله بفقد الحيوية (ص٦) .

ولقد أشار المؤلف في مقدمته الى فكرة رددها في معظم أنحاء الكتاب ، هي تعليله السأم بفقدان الاتصال،أو عدم امكانه Incommunicabilite ، فيا بين الناس والناس ، أو فيما بين الانسان والأشياء . ان فلسفة السأم هذه التي أوضحها (مورافيا) ، قد لا تكون مبتكرة ، ولكنه وفق في عرضها الى أقصى حدود التوفيق (ص٨) .

لقد عرفنا مذاهب عديدة في تفسير التاريخ ، ففريق ذهب الى تفسيره بالعقيدة الدينية ، أو بالمثل الاعلى ، أو برغبة التسلط ، أو بالتفسير المادي ، أو في غير ذلك من المذاهب المعروفة . أما تفسير التاريخ بالسأم . فشيء جديد لم أسمع به أبداً ، ولم يخطر لي في بال ، اسمع ماذا يقول (ص ٩) :

« لقد سئم الله فخلق الارض والسماء والماء والحيوان والنبات ، ثم خلق آدم
« وحواء . وسئم آدم وحواء من الجنـة ، فأكلا الثمرة المحرمة ، وأضجرا
« خالقهما فطردهما من الجنة . ثم أضجر قابيل هابيل فقتله . ولما بلغ السأم مبلغه
« من نوح اخترع الخمر . ويوم سئم الاله مجدداً من العالم أغرقه بالطوفان ،
« ولكن الـكارثة أضجرته من جديد فأعاد العهد السعيد . وهكذا دواليك .
« ان امبراطوريات المصريين ، والبابليين ، والفرس ، والاغريق والرومان ،
« اضطربت من السأم وانحدرت اليه . ان الوثنية سئمت فأوجدت النصرانية ،
« وولدت البروتستانتية من سأم الـكاثوليكيـة . ان سأم أوروبا دعا الى
« اكتشاف امريكا ، وسأم الاقطاعية خلق الثورة الفرنسية ، وسأم الرأسمالية
« خلق الثورة الروسية ...»

قد يكون في هذا الكلام شيء من الواقع ، ولكنه لايخلو من شيء من الفكاهة .

ويقيني ان رجلا لو عمد الى رسم كاريكاتور للدنيا من الخليقة الى ايامنا هذه ، لما جاء بأروع من هذه اللوحة . أليس الـكاريكاتور جزءاً من الواقع وجزءاً من الفـكاهة ، ان لم يكن الواقع في ثوب الفـكاهة ؟

أما السأم من المال ، فأسطورة لم تعرفها الانسانية منذ خلقت ، الا عنـد بعض الشواذ

الذين ماوجدوا الا لتثبيت القاعدة ، أو هكذا يقولون (ص ١٠) . وعلى هـذا فان القول بان الكتاب يصور فتى العصر ، قول غير صحيح ، عندي على الأقل . ولا أدل على ذلك من أنـه استخدم مال أمه في شهواته ، لابل سرقه في بعض الاحوال .

وامـــه المسكينة ، التي ما انفك يهجوها من مطلع الكتاب الى آخره ، هذه الام التي (أرادت أن تتزوج أباه بالقوة ، على الرغم من انـــه ردد على مسامعها دوما أنه لايحبهـا ، وهجرها في اسرع وقت) ، هذه الأم التي هاجمها في ذوقها ، وعقلها ، وفهمها ، وتصرفهـا ، وهجرها ، ليعيش وحده ، على الرغم من حنوهـــا عليه ، وبذلها المال له ، هـذه الأم لا أسيغ أبدا أن يكون حظها من الكتاب ما قرأت ، لأنني لا أتصور مجتمعاً صالحا يكره فيه الأبناء أمهاتهم على هذا النحو !

ستقول لي ، انه الفن ، الذي قررت أنه ليس له قواعد ولا قوانين ،ولكن الفن ياسيدي لايجوز أن يخلو من الانسانية ، واذا فقد المرء انسانيته مع أمه ، فمن تراه يجدها ؟

لقاء علل عزوفه عن القراءة فقال ، ان الكلمة عنده رمز لشيء ، فاذا ماسئم ، فقدالصلة بينه وبين الاشياء ، ولم يستطع القراءة . (ص ١٦) .

اما الموسيقى فلم يزد على أن قال ، أنـه في وقت السأم لم يكن غير قادر على الاصغاء فحسب ، بل على السماع أيضاً ، وان هذه الفكرة كانت تقضي عليه بالكساح ، أية موسيقى يمكن سماعها في ساعات السأم ؟ (ص ١٦)

لقد فشل في هذين ، فما كانت الكلمة تعبيراً عن شيء من الاشياء الالدى الشعوب الابتدائية ، اما لدى الشعوب المتحضرة فالكلمة تعبير أيضاً عن النفس والروح والفكر والعقل ، وما احراها ، اذا كانت كذلك ، أن تكون ماحية للسأم . أما الموسيقى فما عزف عنها الا من فقد انسانيتـه فالثابت أن الانسان موسيقي بالطبع ، كما هو مدني بالطبع .

هذا ما كان من أمر المقدمة .

أما القصة ، فليس لي اعتراض على حبكها من حيث هي قصة ، ولعلي لا أعدو الصواب اذا قلت أنها قد تضمنت بعض المزايا والعيوب التالية :

١ ـ في القصة اسهاب في الوصف احياناً لاطائل تحته ، ولايعني شيئاً . كوصف بهو من الابهاء وما فيه من أثاث مما يمكن أن يتصوره القارىء وحده ، مهما كان مستواه . فضلا عن انه في بعض الأحوال شبيه بما يسميه التجار (الجرد) .

٢ ـ وفيها ايضاً ثرثرات طويلة ، تجلت اكثر ما تجلت ، في الحوار التافه .

٣ ــ وفيها شؤون الجنس السافرة . وليس في الدنيا انسان يكره شؤون الجنس ، فيما أرى ، ولكن اذا اضحت الشغل الشاغل ، كانت ادنى الى الحيوانية ، منها الى الانسانية . وفي القصة ، كانت شؤون الجنس ، بحسب الظاهر ، الشغل الشاغل لبطلها ، وربما كان المؤلف قد اصطنع مثل هذا الوضع ، ليكثر من راغبي الكتاب وطلابه ، كما قال الحريري في مقدمة المقامات :

(ولم أقصد الى الاحماض فيه ، الا تنشيط قارئيه ، وتكثير سواد طالبيه).

لست أرى بأساً فيما سماه الحريري (الاحماض) ، اما الاستغراق ، فذلك امر يدعو الى كراهة الجنس ، وما اظنك تخالفني في هذا ، ألم تقل لي عن الجمال ، في مدريد : ينبغي أن يستمتع به وينطفئ ، والا أضحى كشمس افريقية اللاهبة التي لاتورث الا الكلل ؟ اذا كان هذا رأيك في الجمال ــ واسمح لي أن اخالفك فيه ، فأنا لا أشبع من الاستمتاع به ــ فما هو رأيك في الجنس ؟

قل لي بربك ، ما معنى هذا الوصف المكشوف لبعض الاوضاع الجنسية ، التي يعرفها الحيوان بغرائزه ، ويدركها الانسان الاول ، أي الابتدائي ، فضلا عن المتحضر ؟ وماهو معنى هذا الحوار فيمابين (دينو) و (سيسيليا) حول لذتها ، ومع من تستمتع أكثر ، أمعه أم مع غريمه (لو سياني) ؟ الست ترى فيه كثيراً من البدائية ، أومن حياة الرواخير، اومن اساليب المتوحشين؟

٤ ــ وأرجو أن تغفر لي قولي : انني بحثت عن تحليل السأم في الكتاب فافتقدته ، ولم اجده في المقدمة ، وفي مواضع قليلة في آخر الكتاب . لقد ادرك ذلك معلق مجلة العربي ، فقال : (والواقع أن كلمة السأم العربية ، ومرادفتها الكلمة الايطالية ، لاتصوران تماماً المعنى الذي قصد اليه مورافيا . فالسأم حالة عاطفية سلبية ، وما يعنيه مورافيا هو انعدام الاحساس كليا ، سواء بالفرح أو الحزن (العدد ٤٩ ــ ص ١٣٧) .

وارجو أن تعلم انني لم اقرأ تعليقاً على كتاب نويت دراسته قبل معرفة مافيه ، لئلا أتأثر برأي غيري . وهذه القاعدة قد جريت عليها منذ مطلع شبابي . فأنا لم أعرف رأي معلق العربي الا بعد أن أتممت دراسة الكتاب ، فرأيت أنه قد وجد فيه ماوجدت ، فاعتذر عن المؤلف بالكلام الذي نقله بحروفه . وهو كلام غير مفهوم ، ولا يمكن أن يسمى (السأم) ، مهما تمحلنا في التأويل ، وفي تحميل اللفظ فوق مايحتمل : انعدام الاحساس كليا بالفرح او الحزن !

أضف الى ذلك أن اللغة الايطالية ، تعتبر من بين اللغات اللاتينية لغة (مصنفة Langue Classifiee) ، كالفرنسية . أي أن لكل لفظ فيها معنى خاصا ، لايؤديه غيره ، لاسيما في شؤون العقل والنفس . فالتسمية ان لم تكن خطأ ، فهي تسمية عجيبة !

٥ ــ أما الشيء الذي وجدته عرضا ، وأكبر ظني أنه هو الذي قصد اليه المؤلف ، فهو

فقدان الملكية (Possession) ، الذي يبحث عنه بطل القصة في كل مراحلها فلم يظفر به . وهو الذي سماه (Insaisissabilite) .

لقد شاقني هذا الموضوع حقاً ، لأنه كان موفقاً في تحليله كل التوفيق . انه اراد انتلاك (سيسيليا) بالحب ، فلم يوفق ، ثم حاول أن يظفر بها بالمال ففشـل وسعى لامتلاكها بالشدة فأخفق ، ثم باللين فعاد بخفي حنين . هذا هو أحلى مافي القصة في نظري . حاق فيه المؤلف واجاد الاجادة كلها . ولو انه سمى قصته اسما يدور حول هذه الفكرة ، لـكانت التسمية اكثر انطباقاً على الواقع .

٦ — وعلى الرغم من ان الكتـاب يعطي عن صاحبه فكرة في انه يساري، الا ان وقائع القصة المادية والعاطفية ، تناقض الاتجاه اليساري ، فبينا يزهد بطلها بالقصور والمال ، ويعيش عيش الفلوكين بـدون سبب ، اذا به يقرر العودة الى القصر يوم اعتزم الزواج بعشيقته ، والاستمتاع بما فيه من اثاث ، وبما لدى صاحبته (امه) من مال . صحيح أنه علل ذلك بأنه اذا تزوجها انتهى منها ، ولكنه لم ينب عنه مافي حوزته من رفاه ، وعيش رغيد .

والقصة من الناحية العاطفية تدور — كما قلت — حول تملك المرأة ، وفرارها منه . وهنا ترى ايضاً ، أن المؤلف قد آمن بالملكية المعنوية .

٧ — وفي القصة وصف جميل لحفلات الاستقبال (الكوكتيل) التي يقيمها المتغطرسون من العجائز الاغنياء . لقد صور المؤلف هذه الحفلات تصويرا جميلا حقا ، حتى خيل الي انني بين هؤلاء الشيوخ الكريهين ، وهم يتحدثون في غث الامور ، وقد تحلقوا حلقات بغيضة ، ولبسوا فاخر الثياب ، وتزينوا بأبهى الحلي !

وفي الكتاب امور اخرى تستحق البحث . ولكني لا اقدم دراسة الى استاذي ، وانما اكتب رسالة الى صديقي . وقد لاحظت انني قد اطلت ، فاغفر لي تجاوزي .

قد توافقني او تخالفني في كل او بعض مارأيت ، فلا تضن علي برأيك .

ظافر القاسمي

★

— ٢ —

مدريد ١٥/١٢/١٩٦٢

أخي ظافر

رسالتاك الحلوتان تخفقان أمامي كجناحي فراشة .. كزورقين يقلان الطيب ، والعاج ، والبخور الى شاطىء مفتوح الذراعين .

الرسالة الاولى كان فيها حديث عن الكلمة الجميلة وعن تذوقها . انت ترسم خطاً بين صنع الكلمة الجميلة وبين الاحساس بها . اما انا فلا احب ان اقيم الجدران في هذا المعبد العظيم الذي نشكل نحن ــ انت وانا ــ سدنته وكهنته وشموعه وزيته ..

في بهو هذا المعبد العظيم ، يتلاقى جميع العابدين ، كتفاً الى جانب كتف . كل واحد يحمل شمعته .. وكل واحد يتمم كلمته .. ومن مجموع الصلوات،والضراعات ، والتمتمات..يتكون الرب .. ويتكون المعبد ..

القصيدة في دفتر الشاعر .. لؤلؤة في محارة.لن يشعر بها تاريخ اللؤلؤ .. الا اذا اخرجت من غلافها الكلسي لترف على نحر غانية .. او اصابع متذوق ..

وكذلك اللوحة ، والتمثال ، والسمفونية ، والرواية ؛ والعطر الجميل ، والثوب الجميل ، انها جميعاً لاتحقق وجودها الا حين تصطدم .. بعيون الآخرين .. واصابعهم .. وتشتبك بلحمهم واعصابهم ..

الفن العظيم ، كالقبلة الناجحة ، عمل ثنائي .. لايمكن تنفيذه من جانب واحد أبداً .

تصور ياأخي ظافر مأساة نجمة لاتجد من يراها .. وشقاء عينين خضراوين لاتجدان من يقول لها ان جميع غابات التيرول النمسوي تختبيء فيهما ..

هل ادركت الآن روعة مهمتك في هذه الدنيا ؟

أما رسالتك الثانية فقد كانت موسوعة تتحدى الموسوعة البريطانية . فقد حملت ياأخي ظافر كتاب السأم فوق مايحتمل .. وحملتني أو حملت كلمتي اليك عنه فوق ماتحتمل . وانا حين اقترحت عليك قراءته ، لم يكن في ذهني انك (مراهق كبير) .. او انك (مولع بالشهوات) او بحديث الجنس ..

هذه الاشياء لم تمر بذهني اطلاقاً . ولو أن كل انسان يوصي انساناً آخر بقراءة كتاب ويستهدف من وصيته ارضاء نزوات الآخرين واشباع ميولهم وتحديد موقفهم الاخلاقي لاستحال الادب الى خطبة من خطب الجمعة .. او الى موعظة طويلة في تكية ..

كل مافي الامر انك صديق اكبر فيه ذوقه الادبي ، ورهافة احساسه بالاشياء الجميلة ، وقد وددت ، بدون فكرة سابقة ، ان اسمع رأيك في هذا الادب المتوتر القلق الذي يقول كل مايريد بالشكل الذي يريد .. والذي يرمي من النافذة كل مايقع تحت يده من أدوات الادب القديم بشعائره .. ومحابره .. ومنابره ..

ان قصة مورافيا تطرح امامنا سؤالاحاداً : هل هناك أشياء تقال في الادب واشياء لاتقال؟ وبكلمة اخرى هل هناك منطقة حرام لايسمح للأدب أن يمد اصابعه اليها .وماهي السلطة التي تسمح وتمنع ؟ ومن منح هذه السلطة سلطتها ؟

يبدو لي ان الفنان ـ اذا كان اصيلا ومتمكناً من فنه ـ يستطيع ان يغير ملامح الاشياء، فيقلب القبح الى جمال ، ويجعل من الجثة قارورة طيب كما فعل بودلير . الفن يااخي ظاهرة ذلك الساحر الذي يحول النحاس الى ذهب في ثانية ، ويقلب ثغر الحبيبة في اقل من ثانية .. الى زهرة توليب لاتشابهها اية زهرة توليب اخرى في كل حقول هولندا ..

ماروع كلمة (لاووست) عن بريجيت باردو .. انها تختصر كل الفطنة .. وكل الذكاء وكل المعرفـــة .

المعرفة ليست طبقاً من اللحم او الخضار نعيد اكله كل يوم ولاهي مخدة نرفض تغييرها بحجة ان رأسنا تعود عليها . لابد من تغيير خبزنا اليومي ... والا انقلبت حياتنا الى فلذ زمنية متشابهة .. كحياة ساعة البرامكة التي تجتر كل يوم رنين جرسها النحاسي ..

كل واحد منا بحاجة الى اقام تربيته (كما قال لاووست) فلنمد اصابعنا الى كل الاطباق فلكل واحد فيها نكهته .. ومذاقه .. ولأن يصاب الانسان بعسر الهضم خير له الف مرة من ان يصاب بفقر الدم ..اذا تعصب لطعام واحد و(ريجيم) مرسوم ..

انني اشكرك جزيل الشكر على عنايتك بالكتاب واهتمامك هذا الوقت الطويل في قراءتـــه وتحليله وانتقاده ، والواقع ان ملاحظاتك كانت في غاية الرهافة . اما المقطع الذي ترجتــه من الكتاب والذي يتحدث عن ملل الله ، وملل آدم وحواء ، وملل الانسان ، وملل الحضارات من نفسها ، فهو احلى مقطع في الكتاب . واختيارك لهذا المقطع دون سواه دليل آخر على انك صياد جمال من الطراز الاول .

نزار قباني

★

— ٣ —

دمشق في ١٩٦٢/١٢/٢٦

اخي نزار

رسالتك الأخيرة ، قصيدة من قصائدك المرسلة ، أو هي شعر منثور ، تميزت بـــه من الاقران ، حتى عرف بك ، او عرفت به ، ويقيني أنني لو طرحتها بين اوراق مجهولة ، خالية من التوقيع ، وعثر بها أي قارىء عربي، لعرف أنك أبو عذرتها ، وناسج بردتها ، وكفاك بذلك فخراً.

والشعر لون من ألوان الموسيقى ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر العقول ، فيجعل ميزان الحكم ، في كثير من الأحوال ، بعيداً عن الصحة ، مائلا مـــع الهوى . فما بالك اذا تضمنت القصيدة مدح المخاطب ، والثناء عليه ؟ ألم يقل الرسول الاعظم : ان من البيان لسحرا ؟

وما أدري ، هل اوفق في رسالتي هذه ، الى تناسي سحرك ، وتجاهل عبقك ، واغماض

العين عن فتنتك ، أم انني سأظل انساناً ، يغره الثناء ، ويميله المديح ، وينقاد الى قلبه ، فيتيه عن وجه الحق ؟

انني لا أقف عند بحثك عن ابداع الكلمة وروايتها ، فقد قلت رأيي ، وفيه جزء من الحقيقة ، وقرأت رأيك وفيه منها جزء آخر ، وقديما قيل : اختيار المرء قطعة من عقله . والنقل عند الاقدمين ، كثيرا ماعنى القلب ، وربما عناهما معاً . فاذا أنا رويت ما قال غيري وحفظته ، فما ذلك الا عنوان على عقلي حيناً ، وعلى قلبي حيناً آخر ، وقاك الله مزالقهما !

اما أن دراسة كتاب الـأم موسوعة تتحـدي الموسوعة البريطانية ، فقول لا أدري أمدحتني فيه أم هجوتني . فالموسوعات لا تقرأ ، وانما تصف على رف المكتبة ، ويرجع اليها حين الحاجة . وكأني بك قد أردت مداعبتي ، فنقضت الجد بالهزل ، ورأيت انني قد حملت الكتـاب فوق ما يحتمل ، وما كان ذلك من شأن الموسوعات ، التي اصطلح الناس على أنها المرجع الاخير للعلم اليقيني ، اذا اختلفوا فيا بينهم في شأن من شؤون الفكر ، لا ينبغي أن ترى في بحوثهـا عوجا ولا أمتا ، ولا زيادة ولا نقصا . سامحك الله يا نزار ! هل كنت تريد من رجل مثلي ، أن يطلب منه رجل مثلك ، دراسة كتاب ملأ نفسك اعجابا ، أن يحسو من معينه حسو الطائر ، أو أن يتزود منه بزاد المسافر؟ انني أرجو أن تصدقني يوم قلت في ختام رسالتي اليك : ان في الكتاب أموراً أخرى تستحق البحث ، ورجوتك أن تغفر لي تجاوزي ، لأنني خفت الاطالة . فقد كنت في قولي جادا ، وتعمدت الاختصار ، خيفة الاملال ، وما كنت أدري أنه (قد كان ما خفت أن يكونا) !

وأعود الى الموضوع الرئيسي من الرسالة ، وهو الادب ، أو الفن . وأسارع لأقول: ان طبيعة الموضوع ، تدعو لاختلاف الناس فيه ، والا لما كان فنا ، ولأضحى علما . وما أظن أن الناس قد اتفقوا فيه حتى اليوم ، ولن يتفقوا في أي يوم ، ما دامت الطبائع مختلفة ، والامزجة متغايرة ، والعقول متباعدة ، او متقاربة غير متطابقة . وسترى أن بحثي خالص للعقيدة ، ورأيي نابع من القناعة ، وما كان ذلك ابن يوم وليلة ، ولكنه خلاصة التجارب والسنين ، ومطالعات ابتدأت ، ولعلها لن تنتهي . ولا عليـك ، ولا علي ، في أن نختلف في مثل هذا الموضوع ، الذي لم يوجد الا ليختلف الناس فيه !

والفن ، ماهو الفن ؟ هل يمكن أن يعرف تعريفا جامعا مانعا ، يرضى كل العقول ، وكل الاذواق ، ماأظن ذلك . ولنأخذ الشائع من التعاريف . قيل : انه الحياة ، وقيل انه الطبيعة ، وقيل انه الانسان . وقيل غير هذا مما أعلم ، ومما تعلم ، وماالله به اعلم .

فاذا كان الفن هو الحياة ، فهل الحياة جنس خالص ، ولاشيء غير الجنس ؟ كذلـك الانسان ، وكذلك الطبيعة ، لقد تفرد (فرويد) وحده من بين علماء النفس برد سلوك الانسان

الى الغريزة الجنسية،فالى أي حد كان رأيه موافقا للصواب ، وكم عدد العلماء الذين خالفوه وانتقدوه؟

لست أشك في أن الجنس شأن من شؤون الحياة . ومن كابرَ في هذا ، كان حقا من الذين يريدون ان يحيلوا الادب الى خطبة من خطب الجمعة . . او الى موعظة طويلة في تكية . وليس أبلغ في الرد عليهم من القرآن الكريم ، الذي يتعبد به المسلمون في صلواتهم الخمس كل يوم. هذا القرآن الكريم قد تحدث في شؤون الجنس ، باشكال مختلفة ، في سورة يوسف ، حيث جلا أعمق الغرائز الانسانية ، واوضحها . وفي سورة النساء ، حيث نظم العلاقة الجنسية بالزواج وفي غيرهما منددا بالفاحشة ، او مرغباً بحور وولدان الجنة . لابل حدثنا القرآن الكريم عن العلاقة الشاذة في اكثر من موضع . افيمكن ان يقال بعد هذا ان الجنس ينبغي ان يهمل ؟

ولاجناح علي، اذا انا ذكرتك ان القرآن الكريم قد اتى على هذه الشؤون كلها باسلوب عجزت عنه الانسانية حتى اليوم ، ويقيني انها عاجزة عنه ابد الدهر . ذلك لأن القرآن ، كما قال طه حسين في بعض أماليه ، ليس شعراً وليس نثراً ، وانما هو قرآن . وهل بي حاجة الى الاستشهاد ببعض الآيات ؟ انني اكتفي بقوله تعالى : (وهمت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه).

ليس الخلاف بيني وبينك في ان الجنس عنصر اصلي من عناصر الفن ، ولكن الخلاف في اسلوب عرضه وكميته . ومازلت من الذين يرون ان الاسلوب نصف الادب في لغتنا على الاقل ان لم يكن اكثر من نصفه . فمن قدر على امتلاك ناصية اللغة ، قدر على اداء المعاني المبتذلة، واساغتها القارىء بكثير من السهولة . فأنا من أعداء الاسلوب السافر الذي يكشف كل شيء ، لأنه يحرم الادب من لذة التطلع الى المجهول ، ومن لذة التخيل ، ويجعله مثل بائع (البسطة) الذي يعرض كل مالديه على أنظار المشترين . وانا من أعداء الاسلوب السافر ، لأنه اذا اتفق مع اذواق وأمزجة بعض الناس في سن مبكرة ، فانه ، في نظري على الأقل ، يتناكر مع اذواق اكثر الناس ، بعد المراهقة . وأنا من أعداء الاسلوب السافر ، لأنه يقف في وجه تربية الذوق وصقله هذا من الناحية الفنية المحضة ، دع عنك الناحية الاخلاقية ، وخلاك ذم .

هذا رأيي في اسلوب العرض ، ولعلك عرفت الآن تعليل ماذهبت اليه في نقد (مورافيا)، اما الكمية، فاني لاأخاطب فيك الا الرجل المرهف الحس ، المفرط الذوق . **قل لي بربك أليس من المتعب ان لاتجد بين دفتي كتاب من الفه الى يائه الا شؤون الجنس؟** ألا يدعو هذا الى الملل والكسل؟ اليس الحديث الطويل عن الجنس ، كالطريق الصحراوي الطويل، الذي لانبت فيه ولاماء ولاظل ؟ ومن يزعم انه يستطيع ان يصبر على حياة ليس فيها الا الجنس.

أنا أعلم أنك لم ترد هذه المعاني ، وأنها لم ترد في رسالتك . ولكني ذهبت الى ابعد مما في

بجنك الشعري الجيل ، واردت ان ادلي لك برأيي في الكتب التي استفاضت في هـــذه الايام ، واعتبرت لوناً من الوان الادب الذي ينبغي أن يعيش ، وان تكون النظرة اليه كالنظرة الى الالوان الاخرى . اسمح لي ياسيدي ان اخالف . قرأت شيئاً من هذا لزعيم الوجوديين (سارتر) في كتابه (سن الرشد L'age de raison) ، كان موضوع الجنس فيه لا يذكر بالنسبة لما قرأت في (السأم) ، فاستغنته نسبياً ، ولكني مججته كلياً ، لدى (مورافيا) ، لأنه كان حقاً كشمس افريقية اللاهبة لاتدعو الا الى الكسل . ومن هنا استطيع أن اقول أن الفن الصحيح بعيد عن مثل هذه الكتب ، لا بل انها تسيء الى الفن ، والى القراء ، بإفساد اذواقهم على الاقل .

ولعلي لا أخرج عن الموضوع اذا استشهدت بشيء من كلام (موروا) حول هـــذا الموضوع . قال موروا في كتابه (حوار الأحياء Dialogues des vivants) ـ ص ٥٠ ـ :

ليس الفن الطبيعة وحدها ، وانما هو كما كان يقول باكون : الانسان مضافاً الى الطبيعة L'homme ajouté à lanature . ليست مهمة الفنان في أن ينقل الطبيعة ، ولكن في أن يحولها.

وقال في موضع آخر (ص ١١٠) : ماهو الفن ؟ انه خلق عالم يختلف عن العالم الحقيقي قام الفكر البشري بتنظيمه . لقد قيل : (انه زاوية من الخلق نظر اليها من خـــلال مزاج من الامزجة) ، وهو تعريف حسن اذا اضيف اليه : (نظمها فكر بشري) . لاحظوا أنني لا أعارض الفن بالطبيعة . ان الفنان يستخدم بعض عناصر الطبيعة ، واذا وجد احياناً في الطبيعة قطعاً من آثار الفن ، فما ذلك الا المصادفة السعيدة . ان الاثر الفني الكامل يستثير الطبيعة ، ولا يقلدها ، انه يخلق فوقها . ان الفن ينتزعنا من عالم الواقع ، حتى حينما يصفه ...

هذا كلام لا أتصور أنني وفقت الى ترجمته كما اشتهي ، فما زلت احس ان فهمي له بالفرنسية عمق من ترجمتي له بالعربية ، واني لأشعر وأنا اعيد قراءته بضيق في صدري ، لأنني لم أؤدِ معاني موروا حقها من التعبير . ارجوك ان تعود اليه بالفرنسية ، فسترى مافي هذا الكلام من السمو .

الانسان مضافاً الى الطبيعة . ماهو حاصل الجمع ؟ انه في نظري المجتمع الصالح ، الذي يقوم على العلم والاخلاق ، كما يقوم على الذوق والتفهم ، وكما ينبغي له الترفيه والسرور .

خلق عالم يختلف عن العالم الحقيقي (او الواقعي) ، قام الفكر البشري بتنظيمه ، ولو ان الفن صورة عن العالم الواقعي لكان فاتراً ، لا حاراً ولا بارداً ، وذلك اسوأ أنواع الفن ، كما قال الجاحظ قبل اكثر من الف سنة .

لقد قلت شيئاً يشبه هذا الكلام ، ان لم يطابقه في كثير من معانيه . قلت : ان الفنان ـــ اذا كان أصيلا ومتمكناً من فنه ـ يستطيع أن يغير ملامح الأشياء ، فيقلب القبيح الى جمال ، ويجعل من الجثة قارورة طيب ، كما فعل بودلير ...

هذا كلام جميل ، فيه السمو والعمق اللذين ينشدهما الفن ، ولكن هل كان كذلك صاحبنا مورافيا ؟ أجزم أنه كان عامياً مبتــذلا ، نقل قارئه الى المواخير ، دون زيادة أو نقصان . **وعلى حد تعبيرك انت ، لم يغير ملامح الاشياء ، فأبقى القبح قبحاً ، وترك الجثة بكل مافيها من صديد ونتن !** ولا أدعوك اكثر من الرجوع الى الكتاب .

وأرى أن هذا الموضوع الذي أتناوله مروراً ، وتناولته انت ، ليس فيه قديم ولاحديث وانما فيه جمال وذوق ، وجد منذ أزل الدهر ، وسيبقى الى أبده . ولهذا لست أرضى لك ان تؤيد هــذا (**الادب المتوتر النزق ، الذي يقول كل مايريد ، بالشكل الذي يريد .. والذي يرمي من النافذة كل مايقع تحت يده من ادوات الادب القديم، بشعائره :. ومحابره .. ومنابره ..**) إن هذا الأدب المتوتر لن يفيد الانسانية شيئاً ، وسيفقدها كل شيء اذا هو استغنى عن شعائر الأدب القديم ومحابره ومنابره ، فليس في الدنيا جديد لم يسبقه قديم ، ولم يعتمد عليــه في كثير او قليل .

ومــــالي أراك تفضل الاصابة بعسر الهضم على الموت بفقر الدم ؟

اليس ممكناً اجتنابهما معاً ! وهل خلق الفن ليضع الانسانية في مضيق تختار فيـه احد هذين الشرين ؟ ما أظن ذلك ، تربت يد اعدائك .

لقد احسنت الي يانزار على أن دفعتني الى الكتابة في مثل هذه المواضيع فنقلتني من هذا العالم الواقعي ، الى سحب الفن وسماواته . وتلك يدلك علي لن انسا ما حفلت نفسي بالحياة .

ظافر القاسمي



أديب حلبي

يسين عصمة

بقلم : سامي الكيالي



ات من حياة المفكرين السوريين
في القرن التاسع عشر

عرفت مدينة حلب ، في مطلع القرن التاسع عشر ، غير واحد من الادباء والشعراء ، لأجانف الحقيقة ، حين اقول ان أدب بعضهم ، لايقل في ميزان النقد ، عن ادب جهابذة الادب الذين أنبتتهم مصر ولبنان في تلك الفترة ، بل كانوا اجرأ في التعبير عن الكثير من النزعات التجديدية والاتجاهات الثورية .

وحين اطلق هذا الرأي لا افاضل بين اديب واديب ، ولا بين شاعر وشاعر ، بل أطلقه على علاته ، وهو رأي ، له عندي حججه وبراهينه .

من هؤلاء الادباء فرانسيس مراش « ١٨٣٦ — ١٨٧٣ » الشاعر الاديب، الطبيب ، العالم الذي كتب في الفلسفة ، ونظم الشعر ، ووضع الرواية فكان في جميع محاولاته أديباً مجدداً سبق عصره .

وقبل ان اتناول الحديث عنه ؛ أريد ان امر مروراً سريعاً بكلمة عن أخيه عبد الله مراش « ١٨٣٩ — ١٩٠٠ » ، واخته مريانا مراش « ١٨٤٨ — ١٩١٩ » وهما يمثلان فترة من فترات النهضة الفكرية في اوائل نموها البطيء .

* * *

قد لا يكون لعبد الله مراش شهرة أخيه فرانسيس ، ولا شهرة اخته مريانا ، وان كان يبزهما في فن الترسل ، وكان الى اشتغاله بالتجارة متضلعاً في الادب ، ولاساوبه الرصين هذه الجزالة التي تفصح عن ادق المعاني بأعذب الكلمات .

ولا استرسل في الحديث عن أدبه فحسبي ان استشهد بكلمة لسيد بلغاء عصره الشيخ ابراهيم اليازجي الذي وصف اسلوبه بقوله :

« كان رحمه الله من أكابر اهل الانشاء ، حسن الترسل ، سهل العبارة واضح الاسلوب ، بصيراً باختيار الالفاظ والتراكيب ، حسن النقد ، حريصاً على البلاغة ووضوح المعاني ، آخذاً بالنصيب الأوفر من قوالب فصحاء العرب ، والفاظ الخاصة من أهل الادب ، وكان مع ذلك متقناً اللغة الانكليزية والطليانية والافرنسية ، يكتب فيهن جميعاً . وكان له باع طويل في التاريخ والفلسفة وعلم الاخلاق والاديان والشرائع المختلفة » .

والحديث عن الشاعرة مريانا لا يقل طلاوة عن عبد الله وفرانسيس ، فقد تكون اول اديبة سورية لمعت مواهبها في تلك الفترة ، نشأت على غرار اخويها

فحذقت الصرف والنحو والعروض على أبيها فتح الله، والعربية على اخيها فرانسيس، والافرنسية في مدرسة راهبات مار يوسف، واشتد ولعها بالموسيقى فكانت من أبرع العازفات على «البيان» كما اشتد ولعها بحفظ الشعر الوجدي والشعر الصوفي. ونظمت الشعر، وكان بيتها ملتقى الادباء والشعراء ورجال الفكر، وربما كان اول صالون أدبي عرفه الشرق العربي، وتركت ديوان شعر بعنوان «بنت فكر» وتشابه حياتها حياة مي من بعض الوجوه، وقد اعود الى الحديث عنها بأسهاب في مقال آخر.

* * *

واعود الآن الى فرنسيس مراش الاديب الحر والمفكر الجريء الذي سبق عصره.

فهو اديب عالم، وشاعر رومانتيكي، وروائي قاص ذو نزعات فلسفية.

درس الطب وتعلق بالادب وقضى ايام شبابه بين باريس وحلب فكانت سويعات البؤس والشقاء اكثر من لحظات السعادة والهناء فقد صدمته المصائب منذ نعومة اظفاره.

اصيب وهو في الرابعة من عمره بداء الحصبة فثقلت وطأتها عليه حتى كادت تودي بحياته الا انه شفي منها وبقي من آثارها في جسمه وبصره ما نغص عليه عيشه واوهن قواه مدى العمر.

نظم الشعر وهو صغير، ثم ملك قياده وهو شاب، ولكن ازدراء الناس للشعر في زمنه حفزه الى ان ينصرف عنه الى العلم، والى دراسة الطب، وقد تتلمذ في حلب

على طبيب انكليزي مدة اربع سنوات مكنته من ممارسة هذه الصناعة ، ولكنه شعر أنه لم يبلغ منها مرامه فقرر السفر الى باريس لينهل العلم من ينابيعه .

ويصف لنا القلق الذي ساوره ويساور كل شاب حين تزحمه شتى الاراء ويريد ان يبني مستقبله على دعائم وطيدة من المعرفة .

يقول : « في اليوم الواقع في ٧ ايلول ١٨٦٦ ، وأنا داخل في دائرة الثلاثين - كانت ولادته سنة ١٨٣٥ - خرجت من ابواب الشبهاء ، فلما ادركت رشدي وبلغت أشدي دخلت هذا العالم لأتجسسه ، وأرى كيف يجب اعتباره مني ، وعلى أي وجه ... فلم أجد بضاعة اشرف من انتقاد هذه الحوادث والبحث عن حركات هذا العالم ، رغبة بنيل علم المحيطات حولي ، والمقدرة على التأسي في أسى الدنيا ، غير ملتفت الى ما رأيت من السوء الذي يلحق بتبعة هذه البضاعة .. فانخرطت في سلك طلبة العلم ، وأخذت أخوض تلك العباب التي ليس لها قرار وأنا في سن الأربعة عشر ولم أزل انخبع مع الباخعين حتى بلغت العشرين ، وهنا شرعت امتحن نفسي لأرى ماذا جنيت من الثمرات ، فلم أجد في مخيلتي حينئذ سوى كمية وافرة من الوف المسائل ومشاكل العلم العربي ، ولم أعثر في خزانتي على كتب مطولات ومختصرات في النحو والصرف وما يلحقها ، واذ تأملت الفائدة لم اجد سوى نظم الشعر .. فها أنا شاعر إذا أراد شعراء العصر ، ولكني رأيت جملة اضرار تقابل هذه الفائدة وتنازعها الوجود ، وهي اولاً كساد سوق الشعر ، ومقت العامة له ، جهلاً بشرفه وكونه صناعة لا يوجد في عالم الأدب أجمل منها ، ومزية أودعها الله في الأنفس التي شاء لها الانفراد » .

وبعد أن يصف كراهته تلك « الفائدة المفتداة بأفخر سني حياته » يذكر

عكوفه على تعلم العلوم العلمية واللغات ، وانكبابه على الدراسة ليلاً نهاراً ، وأخذه مبادىء علم الطب على يد طبيب انكليزي ماهر فيقول :

« وبدأت ادرس عليه العلوم الطبية وأنا في سن الخامسة والعشرين ، ولم أزل ان هضمت أربع سنين كوامل على مائدة هذه الدراسة حتى صرت طبيباً على رأي العلم ، وجهولاً لدى نفول الناس . فشرعت اباشر الأمراض متلاعباً بصناعة إبو قراط ، وداويت على ذلك نحو سنة ، ثم أوعز الي ضميري أن أرحل إلى مدينة باريس ، محط عرش الفرنسيس لكي انضم في سلك مدرستها الشهيرة حيثما يأخذ الدرس حقه ، ويحصل على مالا يوجد خارجاً » .

في هذه السطور نقرأ صورة من الحيرة والقلق الذي هز ضمير هذا الشاب التواق الى المعرفة في بيئة حرمت من المعرفة ، ولاسيما في الفترة التي تأرجحت حياته بين نفحات الأدب وحقائق العلم .

وأخذ طريقه الى باريس ، فاجتاز طريق حلب الوعر الى الاسكندرونة ليركب البحر .

ولم تكن الطرقات معبدة كما هي اليوم ، ولم يكن السفر ميسراً ، فقضى اياماً لاقى فيها الأهوال الى أن وصل إلى الاسكندرون ـ ثغرنا الحبيب الذي اقتطعه الأتراك من أمه سورية ظلماً وعدواناً .

وقد وصف اثر هذه الاهوال بقوله :

« فما بلغت الاسكندرونة ميناء حلب الا وانا نضو التعب والوصب ، لان المشقة التي كابدتها في طي هذه الشقة غاية ..

« او عار ملقاة في وسط الطريق كأنها امواج البحر الجامد معدة لتمزيق سفن البر ..

« قفار محرقة لا ينبت فيها سوى شوك القتاد وهو ام السموم ..

« صخور منفردة في العراص الخالية كأن الايام نخرتها ، والرياح صقلتها لتكون اوقاداً لمضارب الخراب والكآبة ..

« جبال صلعاء القمم ، معممة بسحب القتام ، ولا مزية لها سوى الشمخ الى السماء فهي كالجاهل المتكبر والاحمق المدعي » .

وبعد ان يصف التلال الوعرة والهضاب المجدبة والاودية والوهاد وقبل أن يشرف على البحر ويتنسم روائحه العبقة التي تحمله الى باريس ، اقتعد صخرة في ظلال شجرة من اشجار بيلان الباسقة وأخذ ينفس عن صدره وحشة السفر والضيق الذي لازمه من فرقة الاهل ووعورة الطريق بقصيدة رسم فيها خوالجه النفسية جاء فيها :

هداة السرى مهلاً فهذي خيامها

وتلك روابيـها وذاك غمامـها

قفوا ساعة نشتم رائحة الحمى

هنا علقت روحي وطال هيامها

والقصيدة طويلة يختتمها بقوله :

تقلبني الدنيـــا على موقـد البلا

ولي همة في الصبر عز انصرامها

ويجري علي الدهر جيش خطوبه

وما انا ذا نفس يهون اقتحامها

ومن عرف الدنيا وادرك سرها

تساوى لديه حربها وسلامها

وركب البحر الى باريس ، فلم يكد يصل اليها وتحقق بغيته بالانتساب الى معهد من معاهدها ، ولا يكاد يغشى انديتها ويزور متاحفها ويستمتع بمباهج حدائقها حتى تبهره مظاهر حضارتها واضواء لياليها ومتعة فنونها .

وهنا تثور نفسه الشاعرة فيعبر عن خلجاته واحاسيسه وانطباعاته بعدة قصائد وموشحات ..

فمن موشح يصف باريس بقوله :

انـني جئت باريس السـلا   ورأت عيناي ماقد سمعت
شمت مالا نظرت عيني ولا   سمعت اذني ولا روحي وعت
آه ماهذي المباني والعـلا   هل بروج ام نجوم طلعت

كل حي او جماد قد سما
وبثوب المجد والكبر كسي
مشهد يسطو على العقل بها
فيها آي من الدهر نسي

نعم ، شدهته باريس ، فلم يترك ظاهرة من ظواهرها الا خصها بالوصف ، وصف غابة بولونيا وساحة الكونكورد ، وسجل انطباعاته الذاتية عن الحفلات الراقصة والسهرات الخاصة .

فمن قصيدة له يقول :

ما القلب الا شجـر   وما المنى الا الورق
ومنبـتي مدينـة   فيها لي السعـد برق
أقطف من لذاتهـا   كل أسى قـد احترق
لا ارعوي ، ولو عوى   كل عـذول أو نهق !

لقد اعطى العنان لشبابه الغض فغاص في خضم المباهج والملذات وشرب من كئوسها حتى الثمالة .

وهذه طبيعة كل شرقي شاب ترك وطنه المثقل بالتقاليد الى الدراسة في باريس — عاصمة النور والفجور — حيث الحياة المنطلقة والمتع الرخيصة التي تعج بالمغريات — اريد بالفنون والمجون .

ولكن سويعات الصفاء عند شاعرنا لم تدم ، فقد هد المرض جسمه ، فتوقف عن الدرس ، وتوالت عليه المصائب ، وزاد في مصابه واحزانه ان نعي اليه والداه ، فاسودت الدنيا في وجهه ، ولازمه اليأس والالم ورثاهما بقصيدة تعبر عن عميق لوعته وعظيم مصابه ، فمن قوله :

فأنـــا ابكيكمـــا يا والدي   بدموع ما بكاهـــا أحـــد
ان في موتكما القـــاسي لدي   مات حقـــاً سندي والعضد

حتى باريس الزدهرة بمغانيها ، المشرقة بلياليها لم تعد في نظره كما كانت حين أخذ ينهل من ينابيعها الصافية ويطرب لاغانيها المرقصة .

انها اصبحت كابية مظلمة .. يقول :

لم أجد والله في هذي البلاد   غير داء لي وللغير دوا
ذقت فيها كل كاسات البكاء   وكما غيري من البشر ارتوى
وبها الدهر كساني بالحداد   وكسا الكل بأثواب النوى
يافؤادي قد جرى فيك الردى
فعلى هذا الردى مت او عش

وعاد الى وطنه كئيباً حزيناً ، وكان لهذه الارزاء المتوالية اثرها في نفسه التي غلب عليها التشاؤم فالتزم بيته واختار العزلة .

كانت سلواه وهو في عزلته قراءة شعر ابي العلاء وفلسفة شوبنهور فتأثر بهما ، ورأى في قراءة هذا اللون من الادب الاسود — اريد الادب الذي تغلب عليه نزعة التشاؤم — رأى في هذا الادب علالته ومناه وتجاوباً صادقاً مع نفسه .

وأخذ يدون آراءه وخواطره نثراً وشعراً فترك لنا أكثر من كتاب واحد في اغراض مختلفة .

فمن تصانيفه « غاية الحق » و « مشهد الاحوال » وديوان شعر سماه « مرآة الحسناء » ورسائل موجزة في موضوعات شتى لم تطبع . ووصف رحلته الى باريس في كتاب بعنوان « شهادة الطبيعة بوجود الله والشريعة » و « غرائب الصدف » — رينه المصادفات — ورواية مترجمة عن الايطالية .

وقد عرف بنزعته الحرة وكرهه لكل ما يتنافى ونزعة التجدد حتى ذهب بعض المفكرين الى انه اول اديب عربي عالج نظرية داروين في مذهب التطور فسبق بذلك الشميل وسلامه موسى واسماعيل مظهر .

والى ايمانه بالحرية كان ديموقراطي التفكير وقد نادى ، في تلك الفترات المظلمة ، بوجوب تمثيل كافة طبقات الشعب تمثيلاً صحيحاً في الندوات البرلمانية فلا يقتصر الأمر على اصحاب الجاه والنفوذ في توجيه سياسة الدولة .

يقول :

« لماذا يوجد حق لاصوات الاغنياء فيرن في قاعات السياسة ، ولا يوجد هذا الحق لاصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الاكبر والأهم والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك ، وعليهم يتوقف مدار السياسات » .

وينادي فرانسيس مراش بمبدأ التساوي بين جميع افراد الشعب فيقول :

« لا يجب الأخذ بيد الكبير ودفع الصغير ، والالتفات الى الغني والاعراض عن الفقير ، ولا مؤازرة القوي ومواراة الضعيف ، بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل في نظام الحق ، لان كل فئة من الناس لها منزلة في طريق السياسة تستدعي النظر اليها .

« فكما ان العظماء والاغنياء هم القوة الواصلة . وكذلك الصغار والفقراء هم الالة الموصلة فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير . ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر ارباب الغنى ولم تحرس اموالهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة ».

وقد نادى بوجوب صون حقوق العمال في الفترة التي لم تكن فيها هذه الخلافات المستعصية بين العمال وارباب العمل ، فطلب ان تكون الحقوق متساوية كل بقدر جهده على أن يأخذ الحق مجراه .

والى ميوله الأدبية ونزعاته التجديدية كانت النزعة العلمية في أدبه واضحة فثقافة العقل عنده لا تكون الا بترويضه على العلوم ، والى هذا اشار في بعض مباحثه بقوله :

« لا يتم تثقيف العقل الا بالتروض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية ، على أنه لأمر محقق كون العلم يخلق في الانسان قلباً نقياً وروحاً مستقيمة ، ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية ، ونافراً عن كل ما يشين الجوهر الانساني ، ولا يترك لهسبيلاً الى التفكير بالامور الدنية والميول المنحرفة الامر الذي منه تشتق كل افعال البشر ، وعليه تبنى كل دعائم التوحش » .

ولا مجال الى الاسترسال لكل جوانب حياة هذا الاديب الحلبي الذي سبق عصره في الكثير من الاتجاهات الفكرية .

لقد رأى الشرق في ديجور من العادات والتقاليد والخرافات فثار عليها يعبر عن احاسيسه بروح منطلقة .. تارة شعراً ، وتارة مباحث اجتماعية ، وتارة روايات طويلة ضمنها الكثير من ارائه الفلسفية ونزعاته الاجتماعية وميوله الاصلاحية متأثراً بمبادىء الثورة الافرنسية وبما قرأه لادباء فرانسا الأعلام .

وقد اصاب الاستاذ شاكر مصطفى حين قال انه « يمثل بدء تطلع الطبقة البورجوازية في سورية نحو التكون والاتصال بالحضارة الحديثة ، وعنده ، قبل غيره في سورية ، ظهرت منذ سنة ١٨٦٥ فكرة « القومية العربية » وظهرت بوضوح افكار الثورة الافرنسية التي كانت « مودة » العصر في الغرب ، كما ظهر اللون الادبي الجديد : القصة » .

واذا كانت القصة العربية المعاصرة بدأت تاريخ حياتها منذ ثلاثين سنة فان فرانسيس مراش قد بدأها منذ مئة وثلاثين .

-٣-

ولا علينا ان نقف وقفة قصيرة مع بعض قصصه .

فقد كتب قصة « غرائب الصدف .. في اثناء حرب السبعين المعروفة ، ونشرها في بيروت سنة ١٨٧٢ ، وهي « في واقعها قصتان توأمان لاعلاقة لاحداهما بالأخرى سوى انهما من غرائب الصدف ، وان حب التداخل القصصي العريق في الادب التقليدي ، هو الذي سيطر على ذائقة القصاص فشبك ماينهما في نوع من ضفر الخطوط في الزخرف العربي .

« والجديد في القصة اولا : الجرأة على صوغه القصص الطويل كلون من الوان الكتاب والادب .. ثم الشكل : من تقسيم الى فصول بعد فصول ، ثم

مافيها من « مونولوج[1] » داخلي قد يطول ، وما فيها من التعبير عن دقـات النفس بالاحسـات الفيزيولوجية الظاهرة ، وكلها من دعائم القصة الغربية الحديثة » .

وقد اتخذ من هذه القصة اداة لبث ارائه الجريئـة ، فهي « نقد اجتماعي للمناصب الضخمة ، ولعادة استنشاق العطوس ، والتطيب بالعطور ، ولثرثرة النساء عن الملابس ، والمتفرنجين دون فهم ، وللتطبيب على الطريقة القديمة .. وللتخنث .. الخ .. او ، هي نصح اخلاقي في الاباء والعلم ، وفي الرجولة ، وفي ضرورة التجربة والصبر ، والكد ، وعدم الحكم على الناس بملابسهم ..

« وفي كثير من الاحيان يجهر بالفكر الحديث على مايحب له ، فهو يتحدث في العروبة ، ويمتدح الحب ، ويتـكلم في العطف الانساني ، ويزرع هنا وهنـاك اراء قد لانجدها اليوم شيئاً عجيباً ، ولكنهـا كانت ، في ايامها تدور الأعين من العجب (1) » .

ولا مجال لتلخيص هذه القصة الطويلة البالغة فصولها ثمانية عشر فصلاً ، فحسبي الالماع الى قصته الفلسفية « غابة الحق » الـتي كتبهـا سنة ١٨٦٢ وطبعها في المطبعة المارونية في حلب سنة ١٨٦٥ وتعتبر اقدم مشروع قصصي في الادب العربي .

يحكي المؤلف قصة الصراع بين الحرية والطغيان ، بين التسامح والعبودية وبين السلم والحرب . ونقرأ بين السطور تأملات انسان يريد ان تعيش البشرية في هناءة ازلية ، لاظلم ولا طغيان ولا عبودية .

واشخاص الرواية اكثر من شخص واحد ، كل واحد يمثل نزعـة من

(1) القصة في سورية ص ٩٦ .

النزعات ، فرجل يمثل الحرية ، وامرأة تمثل الحكمة ، وقائد جيش التمدن ، ووزير محبة السلام، وملك العبودية .

وفي الحوار الذي يجريه في اطاره القصصي حيث تتلاقى الاراء وتتصادم يرسم لناصوراً عن سير الامم منذ العصور القديمة ، كيف كانت امماً لا هم لهـا الا البناء والعمران ، ثم استحالت الى امم همها الاكبر الغزو والفتح ثم يصور حرباً نشبت بين ما سماه مملكة الحرية وبين « مملكة العبودية » وتنتهي الحرب بانتصار الحرية ووقوع ملك العبودية في الاسر .

ويعقد الرائش محكمة تضم « ملك الحرية » وزوجتـه « ملكة الحكمة » ورئيس جنده « قائد جيش التمدن » فيمثل امامهم « ملك العبودية » واعوانه لمحاكمتهم ، وتطل شخصية الفيلسوف فيقوم بدوره الكبير في النصح والتوجيـه والارشاد ، وتطول المناقشات ، ثم تعود الحكمة في النهاية للفيلسوف الذي يريد ان تقوم دعائم البشرية على قواعد خمس :

١ — تنقية السياسة من الاوشاب .

٢ — تثقيف العقل .

٣ — اصلاح العادات والاخلاق .

٤ و ٥ — تركيز قواعد المدنية والمحبة .

ويخرج بفكرة تنصر العدل على الظلم، والحق على الباطل، والحرية على العبودية ، إنه خلق مجتمع جديد تسوده المحبة ، وتسيطر عليه العدالة .

فمن كلماته التي جاءت على لسان الفيلسوف في الرواية قوله :

« هاهو ذا ملك التمدن قد انتصب على عرش جلاله واسنة الحرية لمعت في الآفاق .

« زولوا من الوجود يامستعبدي البشر .

« هاقد هبت بكم عواصف القضاء المبرم الى غابة الحق .

« ان الخالق منح البشرية نعمة الحرية فمن ابن يسوغ لكم تمزيق جلبابها .

« ان الحيوان لا يقبل العبودية ، وهل يوجد قلب بشري حساس لا يلعن عادة اتخاذ العبيد بين الناس .

« اطلق هذا العبد الغريب فلا يسوغ لك استعباد الجنس البشري » .

ويتحدث عن السلام فيقول :

« لا برهان على سمو عقل الانسان أعظم من محبته السلام .

« بالسلام تنمو الهيئة الاجتماعية .

« وبالسلام تخصب الحقول وتعطي الارض غلاتها .

« بالسلام تعمر البلاد والقرى »

وهكذا فقد صب في روايته هذه الكثير من النزعات الخيرة التي آمن بها ودعا اليها ، فهو يريد من الانسان ان يصقل عقله بالمعرفة ، وان يؤمن بالحرية ويدعو الى المحبة ، ويحرر نفسه من الموبقات – اي من الكذب والدجل والربا والنفاق والكبرياء والحسد والبخل والضغينة والنميمة والخيانة .

ولا يتردد الأستاذ شاكر مصطفى الذي درس مراحل سير القصة السورية ان يعتبر المراش من بناة القصة الحديثة وأنه في محاولته كان قريباً من العمالقة فيقول : « ولعلنا نكون أقرب الى الصواب لو وضعنا عمل المراش قريباً من فولتير في « زاديك وكانديد » ، ومن دانتي في « الجحيم » ، فثمة تأثيرات واضحة من هذه الأعمال فيه .

ان المراش يدخل من « غابة الحق » مدخل دانتي من غابته ، ويتحدث

هناك تارة بلسان روسو وتارة بلسان فولتير ويقطف تارة بعد أخرى ، من عصر ما قبل الثورة الأفرنسية .

« لقد اتبع طريقة روسو في « العقد الاجتماعي » واميل في الفونس اسكيروس في « اميل القرن التاسع عشر » ، وأحياناً على الطريقة التي اتبعها علي باشا مبارك في مصر ، في مقاماته « علم الدين » لتعريف الناس بعض المعارف المتفرقة ، وشيئاً من أسرار الخليقة » (١).

وفي الحقل العربي يقول عبد المسيح الانطاكي في المقدمة التي كتبها لرواية « غابة الحق » في طبعتها الثانية .

« وفي نظرنا ان اول من أقدم على تنبيه خواطر العرب الى النهوض هو وطنينا المرحوم فرانسيس مراش بكتابة « غابة الحق » فقد تحدث حديث القومية والعروبة في ثنايا كلامه » .

هذه الممة واسعة عن فرانسيس مراش الاديب الحر والمفكر الذي سبق عصره بالاراء التقدمية التي ضمنها كتبه ورواياته والتي ستبقى بتاريخها المبكر وأفكارها المثالية الحديثة من أبرز الكتب في تطور الوعي العربي الحديث : « انها تعكس المستوى الثقافي الرفيع الذي وصل اليه بعض الرواد الاول ، وتخطط آمالهم المثالية في محاولة جريئة ، ولئن جاءت الرواية صيحة في واد ، فان صاحبها لم يدرك وهو من شبابه المبكر ، يوم ذاك ، في الثالثة والعشرين ، انه يتمس التبر في مستنقع مظلم ! وانه لن يجد في معاصريه من يفهمه » (٢)

(١) القصة في سورية ص ١٦٦
(٢) نفس المصدر ص ١٦٧

العروبة في شعر المهجر

بقلم : فريد جحا

* اصحيح ان الأدب العربي في المهاجر ، يحتضر بعد أن تساقطت كواكبه ، واذنت شمسه بالمغيب ؟!

مقدمة

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية ، تحررت بعض الأقطار العربية من ربقة الاستعمار ، وازداد العرب ثقافة ومعرفة وعلماً نتيجة تحررهم واتصالهم بالعالم الخارجي وكان في جملة ماوصل اليهم الأدب الذي أنتجه أبناء العروبة في المهاجر الاميركية صوت عربي أصيل فيه العذوبة والانسانية تارة ، والثورة العربية العارمة تارة أخرى ،

* المعرفة ، تفتح المجال ، أمام المفكرين والأدباء ، للبحث فيما يجب القيام به ، لانعاش الادب العربي في المهاجر .

وكلما ازداد العرب بالادب المهجري معرفة، ازدادوا بـه اعجاباً وله حباً، ذلك أن ماوصلهم منه كان كافياً ليطلعهم على مافيه من نفحات جديدة وصفحات طريفة، فيها الصدق في التعبير عن تجارب انسانيـة لم يعرفها الأدب العربي من قبل.

فاذا ما كثرت بين أيدي القراء العرب الآثار المهجرية الرائعة، ومضت فترة الحماسة بما فيها من اعجاب وحب، أخذ النقد يلقي على هذه الآثار نظرات واعية، وأخذت (الدراسات المهجرية) الجدية تتوالى لتعرفنا بذلك الصوت العربي الرائع الذي انتجه أخوتنا وأبناؤنا من أدباء المهاجر وشعرائهم في ظلال ناطحات السحاب ومشارف غابات الأمازون. وهكذا عرفنا دراسات كثيرة تتعلق بأدب المهجر يرتفع بعضها الى الذرى، ويعيش بعضها الآخر في السفوح وقرأ العرب كتب جورج صيدح، وعيسى الناعوري ووديع ديب ومحمد عبد الغني حسن وعبد الكريم الاشتر وغيرهم...

من هذه الكتب مادرس أدب المهجر بصورة عامة ، ومنها مادرس ناحية خاصة فيه ، ولقد كان كتاب جورج صيدح (أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية) خير كتب الفئة الاولى في شموله وأصالته واسلوب صاحبه المجنح واحكامه النقدية الموفقة ، كما كان كتاب عبد الكريم الاشتر (النثر المهجري) خير الكتب التي درست ناحية خاصة من أدب المهجر ، لانه دراسة جامعية نيرة خصبة لنثر كتاب الرابطة القلمية .

والمتتبع لهذه الدراسات يلاحظ أن الذين كتبوا عن أدب المهجر قد مروا سريعاً بموضوع هام عرفه الشعر المهجري وهو (شعر العروبة) . ونريد به ذلك الشعر الذي أنشده الشعراء المهجريون حنيناً الى وطنهم وتغنياً بآلامه وآماله ومشاركة بقضاياه . ان هذا الشعر كثير جداً ، ويمكن ان يؤلف اذا جمع ديوانا ضخما انشده أناس فجر حب الوطن في قلوبهم مشاعر سامية ، فانطلقت السنتهم تغنى بافراحنا وتبكي احزاننا ، وتشاركنا على بعد الدار أيامنا السود وأيامنا البيض .

عمق الشعور وصدقه ، وعنف التعبير عن ذلك الشعور ، لفتا نظري الى هذا الموضوع فأخذت أتتبعه في دواوين الشعراء حتى اجتمع لدى منه طاقة تتفجر ناراً ونوراً . ان الصفحات التالية ليست الا قبساً من تلك النار وشعاعاً من ذلك النور ، وعسى ان تكون مقدمة لدراسات أوسع وأغنى .

الحنين :

وأول مايطالعنا في شعر المهجر ، هذا الشعر الذي تغنى فيه الشعراء حنيناً الى وطنهم وشوقاً وأملا في اللقاء . ولوضم هذا الشعر لكان مجموعة ضخمة من رائع الشعر الذي يملك على القارىء مشاعره كلها .

في شعر الحنين نجد طبيعة وطننا الجميلة . لقد طال شوق **شفيق معلوف** الى وطنه ، حيث كان يقضي الليل في الكروم المتسلقة على الروابي . هناك يغري البدر صبايا الحمى فيقبلن ليشاركن الشاعر سمره

طـــال بي الشوق ولج الظما
الى ليـــالٍ في اعالي الكروم
يغري بها البدر صبـــايا الحمى
كأنمـــا البـدر خلال الغيوم
جمع انوار جميـــع النجوم
وصبهـــا من كوة في السما

وعندما يظهر خيال الوطن في وجنة البدر امام فوحات وتبدو مغاني لبنان الجميلة يتمنى أن يكون هناك :

اني انتظرت القمر	اشكو له امري
فازددت لمـــا نظر	جمـــراً على جمر
هـذا خيـال الوطن	في صفحـــة البدر
هـذي عيون الجبـال	تجري مآقيهـــا
هـذي سفوح التلال	هـــذي أعـاليهـا
هـــذي ديار الصبا	ياليتـــني فيهـــا

والوطن في شعر الحنين افضل الاوطان . ان **رياض معلوف** بعــــد أن طوف في البلاد وساح في المعمور ، لم يغر بمنظر . فبلده زحلة وبيته المهجور فيها أحلى من قصور الدنيا :

كم سحت في المعمور ‏ مـــاغرني منظـر

فبـلدي المهجور   وكوخي الاخضر
أحلى من القصور   والـذهب الاصفر

هل ياترى نعود
اليك يالبنان

وكانت أمانيهم تتجلى في العودة الى الوطن وزيارته والموت فيه . كم كان شوق عقل الجر الى وطنه كبيراً في هذه الأبيات التي يحن فيها الى (الارز) حيث الشفق المستنير يلف الربى والوهاد .

أعدني الى الأرز ياخالقي   فليست بلادي هـذي البلاد
أعدني الى الشفق المستنير   يلف الربى ضوؤه والوهاد
أعـدني فاني في مهجري   غريب اللسان غريب الفؤاد

ويتلخص أمل الياس قنصل حين عاد الى الوطن وشاهد علمه يرفرف سيداً ، في أن يموت ويدفن في تراه الطاهر :

وطني ولو نحتوا بهاك وأنصفوا   ماكان يعزل عابد الاصنام
أملي وقد شاهدت بندك سيداً   بالحق ان يطوي ثراك عظامي

ويتمنى جورج صيدح في أعذب اسلوب لو انتهى عمره حيث ابتدأ ، أي في دمشق . ان حبه لمسقط رأسه لايمكن أن يتبدل ، وكم يتمنى أن يكون قبره هناك ، حيث مجد الجدود وصل الى السماء بعد أن ضاقت به الحفر :

يامسقط الرأس والارحام تجمعنا   حاشا تغيرني في حبك الغير
أنسى يميني ولا أنساك ياوطنـاً   فيك ابتدا ليته فيك انتهى العمر
أوصيك بالروح رتبها متى انطلقت   الى ظلالك حيث الماء والشجر
حيث القبور على الاجداث حاضنة   مجد الجدود الذي ضاقت به الحفر

الوحدة العربية :

والأمر الثاني الذي طالما تغنى به شعر المهجر هو الوحدة العربية . تلك الوحدة التي تصورها نسيب عريضة في نشيد المهــاجر ، من العراق شرقاً الى الجزائر غرباً بعد أن داس في طريقه حدوداً أقامها المستعمر :

لاحد عندي اذا جارت حدودهم — الشام شامي ومصر أخت لبناني
وفي فلسطين أقداسي ، وعاطفتي — في نجد ، والقبلة السمحاء ايماني
لي العروبة أمشي في مخارقهـا — من العراق الى مابعد وهران
أزهو بثوب فخار من مناسجها — حتى تقرب أيدي البين أكفاني

وهي الوحدة التي لاينساها جورج صيدح في فرحته بجلاء الفرنسيين عن سورية فيدعو اليها :

ياحداة هودج النصر ضجوا — بدعاء للوحــدة العربية
وحـذاراً ياحامليه فانتم — تحملون الكرامة القومية

وحين تقام الحدود بين سوريا ولبنان عام ١٩٥٠ يهزأ بهــذه الحدود في بيت له يفيض شعوراً وعاطفة :

رب سور على الحدود منيـع — لو لمسناه بالشعور تهدم

أما الشاعر القروي فأعطوه عيداً يجمـع العرب أمة واحدة ،وسيروا بعد هذا بجثمانه على دين برهم :

هبوني عيداً يجمع العرب أمة — وسيروا بجثماني على دين برهم

وكم كانت حملاته على المستعمرين قاسية قوية . إنــه لن يهدأ له بال مادام يرفرف في سماء عربية علم أجنبي :

واذا بيروت ، أم النور ولى

عن سماها أثقل الراويات ظلا
واذا السيف من الصحراء سلا
نافضاً عن اربع الفيحاء ذلا
واذا لبنان بالأمر استقلا
فلبسنا العز أو متنا كراما
عند هذا سوف نقريك السلاما

أمجاد الاسلام والرسول العربي :

والموضوع الثالث هو التغني بأمجاد الاسلام ، وبمآثر الرسول العربي محمد (ص) . ففي تلك الأيام السود التي كانت التفرقة ، بتحريض الأجنبي تنخر في صفوف أمتنا ، وحين كان المعصبة عيونهم ، عن الحق وعن روح الدين السمح ، يفرقون الأخوة في الوطن الواحد ، كان اولئك الشعراء ، في تلك البلاد البعيدة ، قد طهروا أنفسهم من رجس الطائفية ، وفهموا الدين محبة وتسامحاً ، وآمنوا بالعروبة فكرة تجمع العربي المسلم والعربي المسيحي في رابطة واحدة .

كتب **القروي** في مقدمة ديوانه : « قولوا العروبة شعار الأمة العربية وروحها وشمس أوطانها ... العروبة دين شامل ... الدين ايمان ومحبة وتعاون وخير عميم والطوائف طقوس وشقاق وشر مستطير . » وانشد في قصيدته (عيد الفطر) أنه يصبو :

الى علم من نسج عيسى واحمد   وآمنة في ظله أخت مريم

وأن في الوحدة خيراً ولو كانت كفراً :

سلام على كفر يوحد بيننا   وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

وليس هذا فحسب بل انهم تغنوا بأمجاد الاسلام ومجدوا الرسول العربي

الكريم ، واحتفلوا بيوم مولده اكثر من مرة ، وانشدوا في ذلك الشعر الكثير .
فعل ذلك **رياض معلوف** في قصيدته (وحد الله) :

يارسول الأنام أنت وعيسى ... خير من يصطفى ويرجى ويقصد
عيدك اليوم غبطة وابتهاج ... لجميع الاعراب والله يشهد
ايه قرآنك الكريم فشعر ... رائع كلـــه ودر منضد

وفعل مثل ذلك **جورج صيدح** في قصيدته ، المولد الشريف ، حين جعل يومه أغر على الزمان ، ففيه أشعة النجوم وانفاس الجنان :

وجه أطل على الزمان ... لألاؤه شق العنان
فيــه شعاع النيرات ... وفيــه انفاس الجنان
ياصاحـــبي بأي آلا ... ء الرسول تكذبان

وكم كان رقيقاً ندياً هذا الخطاب يوجهه الى الرسول العربي بأمجاده ومعجزاته لكي يجدد ليلة المعراج ويكون الرائد في انقاذ الديار المقدسة :

يامن سريت على ابرا ... ق وجزت اشواق العنان
آن الأوان لأن تجد ... د ليـلة المعراج آن
عوج على القدس الشر ... يف ففيه أقداس تهـان
ضج الحجيج به وريع ... ضريحـــه والمسجدان

قضية فلسطين :

ونتطلق من هـذه الأبيات الى موضوع جديد هام هو قضية فلسطين فلسطين الوطن السليب ، والمأساة العربية التي أهدرت كرامة الانسان بقدر ما أهدرت كرامة العرب ؛ فلسطين بما رافقهـا من مخاز ، وما نتج عنها من آلام صفعت وجه الذين صنعوها .

هزت هـذه القضية ، وهي قضية العرب الأولى ، قلوب المغتربين عامـة والشعراء منهم خاصة ، كما لم تهزهم قضية . وليس هذا غريباً لأن سنة ١٩٤٨ وما سبقها وما تلاها تمخضت عن أبشع كارثة ألمت بالعرب ، الذين يحبهم المغتربون حباً عرفنا منه الشيء الكثير . لذلك انشدوا فيها شعراً كثيراً ، وجمعوا لها مالاً وافراً: وضع **جورج صيدح** كل نسخ ديوانه (النوافل) تحت تصرف لجـان نصرة فلسطين . ورد الشاعر **القروي** مبلغاً ضخماً من المـال أرسل اليه من وزير عربي ليسلح به الجيش العربي ، وليكون رصاصة في صدر يهودي ، أو قنبلة فوق (تل أبيب) .

وفي مرارة وألم يناجي **ايليا ابو ماضي** ديار السلام وأرض الهنا :

ديار السلام وأرض الهنا   يشق على الكل أن تحزنا
فخطب فلسطين خطب العلى   وما كان رزء العلى هينا
سهرنا له فكأن السيو   ف تحزُّ بأكبادنا ها هنا

ويتمنى **الياس فرحات** لو يملك نفط الكويت ليحوله جنوداً يسيرون لاسترداد الوطن السليب

لو كان لي نفط الكويت جعلته   يمشي على جثث اليهود جنوداً

أما مأساة اللاجئين الذين يعيشون بأمل العودة الى ديارهم حيـاة البؤس والتشرد ، فقد صورها **زكي قنصل** بأبيات تفتت الكبد :

لهفي على أحراره غصت بهم   بيدٌ وضاقت أنجـد وسهول
مليون عان في العراء تشردوا   لم يختلـج لهوانهم مسؤول
نصبوا على درب الرياح خيامهم   يذكي جراحهم غـد مأمول
إن يرقدوا فالذعر في أحلامهم   واذا صحوا فالهول والترحيل

الحر يجلدهم بنار سياطه　　والقرسيف فوقهم مسلول
يسخو عليهم بالفتات منعم　　ويمن بالثوب الارث بخيل

أمجاد الامة العربية

وحدث ماشئت عن تغني المهجريين بأمجاد امتهم العربية. فأجدادنا العرب عند الياس قنصل نشروا في الدنيا خير العلوم وانبل الاعلام وابدعوا دنيا تزهو بكل ماهو سام:

هذا التراث مقدس ذراته　　دفقات مجد زاخر مترامي
فيه بقايا الناشرين على الورى　　خير العلوم وأنبل الاعلام
المبدعين بجودهم وبحلمهم　　دنيا تميس بكل مأتى سام

وحين زار الشاعر الاسباني فيلا سباسا البرازيل، وتغنى بأمجاد العرب وبنسب يصله بأب عربي، احتفي به على أنه نفحة من ذلك الفردوس المفقود، ورأى فيه شكر الله الجر أخاً تمثل فيه روح ابن زيدون:

أمير بلابل الحمراء أهلا　　حللت على ذويك المعجبينا
اذا لغة الاعاجم فرقتنا　　فقد جمع الدم العربي فينا
أرى روح ابن زيدون تجلت　　ببردك تنفح السحر المبينا
وفيك من ابن هانيء ريقات　　كسين من النهى الوشي الثمينا

وهكذا أنشد شكر الله والياس فرحات والقروي وغيرهم قصائد من اجود الشعر الذي تغنى بأمجادنا العربية في الاندلس: فالشاعر القروي يأبى أن يحيي يد لم تحمل سيفاً هذه الاندلسية التي تلمع في يدها سيوف مشرفية:

يا ابنة الزهراء يا أندلسية
لم تزل فيك من المجد بقية

لمعت فيهـــا السيوف المشرفية
ضـــاربات بزنود عربيـــة
فعلى مثلك لاتلقى التحيـــة
بأكف لم يجودن حسامـــا
خبرينا كيف نقوبك السلاما ؟

اما **فوحات** فقد حيا هذه (الاندلسية) لأنها اجداداً لايزالون شامخي الرأس لم تفرقهم مساعي الأجنبي ، ولم يقطعوا صلتهم بالنسب العربي ليصلوه بنسب (فينيقي) كان يدعو اليه بعض سفهاء الشعوبية :

يابنة الزهراء ياأندلسيـــة
ان من اجدادك العرب بقيـــة
لم تزل شامخة الرأس نقيـــة
لم تفرقها مساع أجنبيـــة
لم (تفينقها) دواع مذهبيـــة
كلما موت بها ريح الخزامـــى
أوسلت معها لأهليك السلامـــا

وكان **شكر الله الجر** قد مر بشواطيء الأندلس عائداً الى مهجره عام ١٩٥٧ فوقف يذرف الدموع على ماضي اجداده ، ويعود بالخيال الى ايام الاندلس الغابرة ، يوم كانت قصورها تناطح السحاب ، وجداولها تجري بين الخمائل يتضوع منها شذى الفل والورد والنرجس :

وقفت بشاطيك أذري الدموع وأنـدب بالأمس ماضيعوا
وأسأل فيك الطلول العفاة فلا من مجيب ولايسمـع

فأين معاهدك النيرات — وأين مآذنك اللمع
وأين قصور كساها النضار — وشاحاً من الخلد لايقشع
قصور تناطح صدر السماء — يضل بها النجم لايسطع
وأين جداولك الجاريات — وأين خمائلك الضوع
ولله فلك والياسمين — ووردك والنرجس المونع

شعر اللقاء

ولا بد لنا من اشارة سريعة الى موضوع اخير في شعر العروبة وهو ما أسميه (شعر اللقاء). انه الشعر الذي أنشده المهجريون الذين اتيح لهم لقاء الوطن بعد طول غياب، فاذا فرحة غامرة بهذا اللقاء، وتحية للوطن، ثم آمال عريضة بمستقبله.

لقد عاد شفيق معلوف عام ١٩٣٧ الى موطن الالهام (لبنان)، فألقى قصيدة طويلة كانت سعادة كبيرة بلقاء الوطن واعتزازاً كبيراً به، وبابنائه الذين التمع منهم في كل أفق نجم. في شعر عربي أصيل يتهادى في اناقة وفخامة لاءم الشاعر بينها وبين جلال المناسبة:

يالطود أعناقه آخذات — بحبال شم من الأمجاد
هو لبنان هب بنيه سيوفاً — تلفظ الروح وهي في الاغماد
هبه مستضعف الجنان فلم يفخر — بماض ولاازدهى بتلاد
أو فهبه كما تشاء فحسبي — أن لبنان خفقة في فؤادي

وعاد ابوماضي منذ خمسة عشر عاماً وزار لبنان ثم سورية وكرم في في البلدين تكريماً عظيماً. أما في لبنان فذكريات الطفولة البريئة ومحاولة لتعريف الشاعر الى وطنه:

وطن النجوم أنا هنا — حدق أتذكر من أنا ؟

ألمحت في الماضي البعيد ، فتى غويراً أرعنا
جذلان يمرح في حقو لك كالنسيم مدندنا
أنا ذلك الولد الذي دنياه كانت هاهنا
أنا من مياهك قطرة فاضت جداول من سنا
أنا من ترابك ذرة ماجت مواكب من منى
أنا من طيورك بلبل غنى بمجدك فاغتنى

وفي دمشق تحية لمدينة البطولة والعلم التي ارتفعت قبابها عزما تمرد على المعتدين والزمان والفناء .

حي الشآم مهنداً وكتاباً والغوطة الخضراء والمحرابا
ليست قباباً مارأيت وانما عزم تمرد فاستطال قباباً

ووصف جميل لبردى ، وتحية ليوسف العظمة ، ثم استغراب لحياة الهدوء في الوطن وهو في حرب ضارية مع عدو ضار ، تخاذلت سيوف العرب عن سحقه حين أصبح النصر وشيكاً :

عجباً لقومي والعدو ببابهم كيف استطابوا اللهو والألعابا
وتخاذلت أسيافهم عن سحقه في حين كان النصر منهم قابا
تركوا الحسام الى الكلام تعللاً ياسيف ليتك ماعرفت قرابا

وعاد **جورج صيدح** الى دمشق عام ١٩٥٠ بعد شوق طال . لقد فرح لما شاهد في الوطن من عزة ورفعة ، ولكنه تألم لتفرق الاهواء والمنازع ، ولهذه الحرب يشنها الاخ على أخيه . وتمنى لو طرد الفساد كما طرد الأجنبي ، إذاً لما بح صوت فلسطين وهي تطلب الثأر فلا يغضب لها أحد :

كل له من نفسه دولة توطيدها أول ماجتبي

من سلم حرب على أهله في حربه بكو على تغلب
يا ليته استأصل من نفسه ـم ـ الفساد يوم استأصل الاجنبي
اذاً لما بحت فلسطيننـــا تستغضب العرب فلم تغضب !

وعاد الياس قنصل بعد ثلاثين عاماً الى سورية، واذا بفرصة اللقاء تكبر عن ان تستطيع عروس شعره الشدو فيها . فاذا مرت على الفرحة ايام ، ارتوت عيناه فيها من جمال بلاده ، واستقرت عواطفه وهدأت ، عادت اليه عروس شعره بقصيدة تجيش بالعاطفة وتمور بحلي اللفظ :

هذا غريبك يابلادي عاد من أرض الدراهم عودة استسلام
قضى لياليه وبين ضلوعه نار تعج بشوقه السنام
لولا الرجاء بأن يعود اليك ما حمل الذي عانى من الايام
لاتعجبي لبكائه مادمعـــه الا شعور سعادة وغرام
ان التجـــلد في البكاء محوم أمـا البكا فيه فغير حرام

أما الشاعر القروي فكانت قصيدة لقائه لدمشق طويلة . أجمل مافيها انشودة العروبة في ماضيها وحاضرها ، في أمجادها وبطولاتها :

أنا العروبة لي في كل مملكة انجيل حب ولي قرآن أنعام
سل عهد شامي وبغدادي وأندلسي عن عمق فلسفتي عن عدل أحكامي
ما اخضوضر الشرق الا تحت اقدامي وازهو هر الغرب الا تحت أعلامي
تمشي البطولة والسحر الحلال معي فالارض مسرح آساد وآرام
ماغيرت نكبات الدهر من شيمي وان طوت في ثنايا الترب آطامي
حطمت أشرس ضار في جزيرته ما ابتل نعلي ولا دنست أقدامي
كم نبضة في فؤادي في عمان لها قصف يدك الصياصي في بكنهام
وزأرة في جبال الاطلس اخترقت كالنصل سمع المصلي في نوتردام

ثم سعادة كبرى بلقاء الوطن طرحت معها في البحر كل آثام الشاعر :

سيان بعد التلاقي يابلادي لو   خلدت أو حكم الطاغي باعدامي
أما رجعت ألم انشق هواك ألم   ألثم ثراك ألم أسمعك انغامي؟
أحس بالراحة الكبرى كأني قد   طرحت في البحر عني كل آثامي

ومنذ ثلاثة أعوام زارنا **الياس فرحات** الذي كان يحلم منذ عشر سنوات بزيارة الوطن والذي أعد قصيدتين احداهما لحلب والأخرى لدمشق :

جددي يانفس أفراح الشباب   واستمدي البشر من هذي الروابي
كنت لحناً عربياً تائهاً   وسؤالا مبهما دون جواب
لاتظني ماتراه حالماً   انه اليقظة توحي بالصواب
نحن في العش الذي ظللنا   والخوافي زغب فوق الاهاب

أما للبنان فقصيدة اخرى تستنكر أصواتا شعوبية تسمع هناك :

لبنان ياوطن الجمال تحية   تغشى ربوعك مع شذى نيسان

ماهذه الاصوات أسمعها هنا   وهناك وهي الوقر في الآذان

وثورة على أعداء العروبة من مستعمرين وصهاينة ، ثم تحية للوطن الذي يريده معطراً بالورود والريحان :

وطني المفدى طال عهد فراقنا   ليت اللقاء يطول كالهجران
أنا ما أتيتك واعظاً بل شاعراً   متغزلا بجمالك الفتان
لكنني وأنا الغيور أثارني   قول يثير كوامن الاشجان
ولنحن نأبى أن نريك راشفاً   الا بماء الورد والريحان
حتى يكون لنا ونحن أعزة   وطن نتيه به على الاوطان

خاتمـــة :

وبعد فانني لا أزعم ان لهذه الصفحات الكمال ، بل لعلها على العكس من ذلك متواضعة موجزة اشد الايجاز ، وفيها من غناء الصوت العربي من المهاجر أكثر مما فيها من تعليق ودراسة . ان سبب هذا ضيق المجال الفسوح للمقال من ناحية، وتعمدي الاكثار من شعر المهجر من ناحية ثانية .

وفي اعتقادي ان المقال مع هذا يؤدي الغرض الذي اردته منه ، وهو نقل الكثير من القراء الى صف المعجبين بالصوت العربي المهجري ، ثم تنبيه العرب من مسؤولين وادباء الى ضرورة العناية بأدب المهجر ورعايته حتى لا تسكت بلابله المتغنية بلغة الضاد الحبيبة، أشجى الغناء .

ولعلي أكون أكثر صراحة حين أدعو الى ما اريد على صفحات هذه المجلة التي تتبناها وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية العربية ويشرف عليها أديب اعرف الكثير عن صلته بأدباء المهجر واعجابه بأدبهم . وهل أطمع بعد هذا في أن تهتم الحكومات بقضية الصوت المهجري ، فتدعو لاتخاذ موقف رسمي يبقي الحياة للأدب « يحتضر بعد أن تساقطت كواكبه وآذنت شمسه بالمغيب ..! »(1)

ولست اريد هنا ان اردد برنامجاً طالما دعوت اليه كلما تحدثت عن ادب المهجر، حسبي أن أشير الى خطورة القضية، والى اننا في صراع مع الزمن، وانه من المؤلم حقاً أن يأتي يوم يسكت فيه الصوت العربي في المهاجر، ويسجل تاريخنا الحديث أن أدب العرب في الاندلس الجديدة قد لفظ انفاسه الاخيرة دون ان نصنع شيئاً من اجله .

ألا بعداً ليوم لا نسمع فيه في (نيويورك أو سان باولو او بوينس آيرس) تحية عربية ، وما أسعدنا يوم تخرج الى الوجود خطة جدية صابرة تبقي لنا شيئاً من ذلك التراث عربي الفؤاد واللسان والهوى .

(1) من كلمة جورج صيدح .

شاعر وأديب روسي
يحلل الأدب
السوفييتي الجديد
في عهد ذوبان الثلوج.

الأدب السوفييتي الجديد

بقلم: افتشنكو

ترجمة وتقديم: قلم التحرير

تقديم الكاتب

كان الشاعر السوفياتي الشاب (افتو شانكو) قد زار العاصمة البريطانية فلقي فيها استقبالاً حاراً وحفاوة بالغة . فلما اوشك ان يغادرها أحب أن يلخص للصحف مجمل آرائه في التغيرات التي طرأت على البلاد السوفياتيـــة ، عقب وفاة ستالين .

وكان الشاعر في لندن دائم الحركة ، كثير الانشغال يلقي المحاضرات الادبية ويعقد المؤتمرات الصحفية . ويجوب المخازن والشوارع ، ويحضر الحفلات الرسمية ، ويجتمع بأهل الادب والشعر من البريطانيين . ومع ذلك ، وفي هذه الغمرة من المشاغل ، استطاع ان يجد وقتاً لهذا المقال ، فجاء صريحاً واضحاً يصح ان يعتبر كأول محاولة ايجابية يقوم بها أديب من الجيل الصاعد السوفياتي ليشرح موقفه ومجمل آرائه امام « اناس غرباء » .

وهو وطني شديد الاخلاص متقد الشعور، وهو مؤمن بأن النظام السوفياتي نظام في أساسه وعمقه نظام انصاف وعدالة . بيد انه يثور بعنف شديد على كل سلطان شخصي ، وتحكم فردي ، وكل اساءة في استعمال السلطات . وهو في كل هذه المشاعر ينطق بلسان جميع المثقفين الشبان في بلاده .

لأجل ذلك كله . ولأن افتوشنكو اسم من ألمع الاسماء في الادب الروسي الحديث ، نرى ان هذا المقال الذي كتبه في لندن يلقي الضوء على صفحة الأدب الروسي المعاصر . قـــال :

مقدمة مترجمة عن الفرنسية

المقال

لا أزال أذكر أن حيرة قاسية كانت تستبد بي ، وأني كنت أتساءل في قلق ولهفة عما يكون مصيرنا بعد هذا الامر الفادح والخطب الجلل . ولا ازال اذكر ذلك اليوم الأغبر البارد من أيام آذار ، إذ كنا نمر الوفاً بعد الوف ، في قاعة الأعمدة حيث سجي جثمان ستالين ، وما ستالين في نظرنا **إلا تجسيد كامل للحكمة السامية الكاملة العارفة بكل شيء** . وفي خارج البناء ملايين من الناس ، طلاباً ، وعمالاً ، ومثقفين ، وقفوا منتظمين صفوفاً وراء صفوف ، ينتظرون دورهم لوداع الميت الكبير ، وقد تصاعدت انفاسهم في هذا الجو البارد ، فانعقدت منها غمامة بيضاء في الجو الأكدر ، وإن أنسى لا أنسى ظلال الأغصان العارية وقد تجمدت في هذه الأنفاس المنعقدة غماماً ، فكأن حفيف هـذه الغصون يعبر عن التأثر الشديد الذي هز أفئدة الناس ، كلهم أو جلهم . فقد كنا قد تعودنا على أن يكون هنالك شخص كبير ، يحمل عنا عبء التفكير في امورنا ، ويحل لنا مشاكلنا كلها مهما صعبت وتعقدت . ولقد مات .

ولا ننكر أن بين الناس من كان يشك في عدالة الكثير من أعمال ستالين، بيد أن هؤلاء الناس أنفسهم كانوا يحاولون ، مع ذلك ، أن يجدوا لهذه الأعمال مبرراً ، وان يقنعوا أنفسهم أنها ، **وإن لم تكن منطبقة على مقتضيات العدالة ، فهي لابد منطبقة على مقتضيات المصلحة العليا** ، وانها صحيحة ، سليمة ضرورية لخير البلاد وأمنها .

ومن الخطأ الفادح أن يظن أحد أن هذه العبادة لستالين لم تكن إلا أمراً مفروضاً بقوة العصي وأعقاب البنادق. فهي ناتجة ، على الأرجح ، عن حاجة الشعب إلى الاعتقاد بأن عبادة ستالين تخليد في الحقيقة للينين نفسه ، وكان لينين ، ولا يزال أحب رجل إلى قلوب الروس جميعاً ، وقد أدرك ذلك مؤيدو ستالين وانصاره فحرصوا أشد الحرص على أن يبقى اسمه مقروناً باسم لينين فيتلازم الاسمان دائماً في مقالات الصحف وقصائد الشعر وافلام السينما . بحيث يمكن القول أن ثقة الناس بستالين ظلت كبيرة عميقة ، رغم ما كان عام ١٩٣٩ من أهوال وفظائع ، بل أن هذه الثقة مازالت تتزايد يوماً بعد يوم حتى بلغت ذروتها إبان التصنيع وأثناء الحرب ، ومن التصنيع ومن الحرب كليهما خرج ستالين بالظفر الكبير .

ومن البديهي أن لكل شيء وجهين وناحيتين ، خيرة ، وغير خيرة ، وكذلك هذه الثقة الكبرى التي أحسها الروس نحو ستالين ، والتي قادتهم معه الى ميادين النصر الكبير ، كانت في الوقت نفسه ، سبباً في شل التطور في كل القوى الخلاقة لدى الشعب ، بل في شل تفكيره كله ، بل في شل ايمانه بذاته وكيانه .

فلما مات ستالين اضطربت نفوسنا اضطراباً عنيفاً . ثم مسحنا دموعنا وتماسكنا ، وأدركنا أن على كواهلنا عبء مصير الامة . ونحن ، الروس ، شعب لا يعرف الحقد ، ولا نحب الثأر والانتقام . وقد غفرنا الكثير لستالين أيام حياته ،

لا خوفاً منه بل رغبة منا في الاعتقاد أن ما يعمله ضروري لابد منه لمصلحة البلاد العليـا .

وكانت أعمال ستالين ، قد أدخلت في أعماق نفوسنا المبدأ القائل بان الغاية تبرر الواسطة . **وأن تفجير ألم كبير لابد منه لتفجير طاقة كبرى** ، على حد قول ستالين ، ولعمري ، قد فجر الرجل آلاما كبرى ، وقضى كثيرون نحبهم في المعتقلات والسجون ، ولا بد أن ذلك اقتضى منه طاقة كبرى ، وحزماً كثيراً . والشعب الروسي ظل مؤمناً أن الوسائل لاتشوه الهدف ، وأن الهدف يظل كبيراً مهما كانت الوسيلة اليه طالما استعمل له حزم كثيروطاقة كبيرة ..

لكن الامر قد تبدل الان . ولقد ادركنا الآن أن الوسائل يجب أن تكون جديرة بالاهداف ، وهذه من البديهيات المألوفة . لكننا لم ندركها الا بعد آلام كثيرة .

* * *

واذن . فقد مات ستالين .

وظهرت أفكار مختلفة ، بين غث وسمين . وذهب النـاس مذاهب شتى فتشاءم البعض وانهاروا . وظل البعض متماسكين ، فما استسلموا للخوف والقلق بل ثبتوا وصبروا . وقامت دنيـا جديدة من افكار ، ونوازع ، وعقـائد . ونشأ جيل جديد ..

وقد شبه الكثيرون جيلنا الروسي الجديد بالجيل الاميركي الجديد أيضاً وفي هذا التشبيه بعض حقيقة ، فنحن نشبه الشبان الاميركيين ، لاننا مثلهم نحتقر كل فخفخة فارغه ، كل شيء زائف ، كل شيء (مغشوش) . لكن الشبان الاميركيين لايجمعهم حزب ولا يسيرون وراء راية ، اما نحن فلنا عقيدة واحدة وراية واحدة ..

أما انا شخصياً فقد لقبني البعض هنا (بالشاب الروسي الغضبان) ، ومع أن الانسان لا يستطيع أن يعرف نفسه معرفة عادلة نزيهة ، استطيع التأكيد باني رجل سوي ، طبيعي : أثور ضد كل ماهو شر ، وأحب كل ماهو خير وصلاح وعدل . ولذلك أثور ضد مقال نشرته المانشستر غارديان ووصفتني فيه بأني عدو للنظام السوفياتي وجعلت عنوانه (خارج عن خطة الحزب) وأعرف أن كثيراً من الناس يتمنون ان يكون ذلك صحيحاً .

اذا كنت اهاجم في قصائدي التعصب العقائدي الأعمى والتعصب القومي الأعمى والبيروقراطية كلها ، فما معنى ذلك الا أني صادق في معتقدي ورأيي ، وأنا اعتقد ان الشيوعية والبيروقراطية أمران لا يمكن اجتماعهما ، أمران متضادان ينفي وجود احدهما وجود الآخر . . . وليس ما قلت آنفاً خاصاً بي وحدي . بل هو مشترك بين كل الشباب من الجيل الروسي الاخير الذي بدأوا يحسون أنهم فعلا أسياد في موطنهم .

* * *

ثم ماهي التغيرات التي حصلت أو تحصل في روسيا ؟ انها تغيرات يمكن ادراكها من امور كثيرة وبسيطة منها أني استطعت أن ازور انكلترة وهو أمر لم يكن من المعقول حدوثه من قبل . وتتجلى هذه التغيرات بصورة خاصة في هدم السجون وتشييد المنازل لأصحاب الدخل المتواضع ، وتخفيض الاجور المرتفعة جداً ورفع الاجور المنخفضة جداً ، وتتجلى بصورة أوضح وأنقى في أن الشعب يستطيع أن يتكلم بحرية عن كل شيء ، وأن اعمال الترجمة عن الأدباء الأجانب ناشطة الى حد بعيد ، وان هؤلاء الأدباء الذين تترجم مؤلفاتهم ليسوا شيوعيين ولا يمتون الى الشيوعية بصلة وأن الشعر يتفتح والنثر يتقدم في جميع أرجاء بلادنا .

وقد درج الأدباء الغربيون على تسمية العهد الذي يلي ستالين « بذوبان الثلوج » على حد تعبير ايليا اهرنبورغ . وأنا أوثر أن أسميه (بالربيع) . وهو ربيع صعب عسير ، تخللته وقفات وخطوات متعثرة ، بل خطوات إلى الوراء ، لكنه مع ذلك ربيع ظل يسير إلى الأمام ، بشجاعة وصبر ..

* * *

وقد عانى الشعر كثيراً أيام ستالين . أما الآن فيقام في كل سنة ، في موسكو وفي غيرها من المدن ، يوم اطلق عليه اسم يوم الشعر ، وقد أصبح هـذا اليوم مهرجاناً قومياً روسياً وفيه يقرأ الشعراء قصائدهم في المكتبات ، فاذا جاء المساء ، اجتمعوا في ميدان مايا كوفسكي وأخذوا يتلون أشعارهم أمام جمع كبير من الناس يضم حول عشرة آلاف شخص احتشدوا في ذلك الميدان ، ليستمعوا إلى قصائد الشعراء ، مدة ساعتين او ثلاث ساعات ، وأحياناً تحت الثلج المتساقط ، وفي يقيني أننا سنقيم قريباً (يوماً دولياً للشعر) فيذهب شعراء روسيون الى انكلترة مثلا يتلون فيها مختارات من اشعارهم ويذهب شعراء انكليز إلى موسكو يقرأون أجمل قصائدهم ...

وإن الدواوين التي يصدرها شعراؤنا ، وبصورة خاصة الشعراء الشبان ، ما تكاد تظهر حتى تنفذ من السوق . وكان رواج الديوان الشعري في عهد ستالين مرتبطاً بنظرة الجهات الرسمية إلى الشاعر . أما الآن فقد اختلف الحال وأصبح القراء هم الذين يؤثرون في عدد النسخ التي تطبع أو تباع ، وللنقاد تأثير كبير في ذلك أيضاً . وعلى سبيـــل المثال أذكر أن آخر ديوان لي قد طبع منه مائة الف نسخة .

وإذا تساءلنا عن سبب رواج الشعر في الاتحاد السوفياتي لوجدنا أن الشعر اكثر فنون الادب تمجيداً للتقدم الاجتماعي الذي حدث في بلادنا ، وإن من

يحضرون (الامسيات الشعرية) يعرفون أنهم إنما يستمعون ، من خلال الشعراء ، الى تعبير جميل عن افكارهم وعن آرائهم وأحاسيسهم .

* * *

وبعد هذا يسرني ان اقـــدم لـكم شاعرين عظيمين من شعراء الشباب السوفيات ، وهما (اندريى فوسنسنكي) و(بللا أحمدولينا) :

فأما فوسنسنكي فهو مهندس في الثـامنة والعشرين ، ولم ينشر شعره إلا حديثاً لكنه لقي إقبالاً شديداً وصعد بسرعة هائلة حتى بلغ سماء الشعر المتلألئة النجوم : وقد صدر له ديوانان : الموسيقى ، والمثل . وشعره مجدد ، حديث النغم والجرس حتى ليذكر بنوع من موسيقى الجاز السمفونية ، وتمتاز قصائده أيضاً بصدق التصوير وروعة الوصف . ومن آخر ماشعر هذا الشاعر قصيدة اسماهـا (الـكمثرى المثلثية) خصصها لأميركا التي زرناها معاً ، أنا وهو ، في العام الماضي . وأكثر قصائده مهداة إلى الشباب الأميركي ، وأعتقد مع ذلك ، أنها قد تلذ الشباب الاوروبي أيضاً .

وأما بللا أحمدولينا فهي في الخامسة والعشرين ، تخرجت حديثاً من معهد غوركي للآداب (وقد أسس هذا المعهد عام ١٩٣٤ ويضم حالياً نحو ٣٠٠ طـالب من روائيين مسرحيين وشعراء ونقاد ومترجين) .

وللشاعرة اسلوب خاص وجرس موسيقي ممتاز . وقد يكون بيانها أقرب الى الاسلوب القديم ، من حيث العبارة واللفظ ، ولكن شعرها يبقى رغم ذلك شعراً محدثاً ،خالداً كخلود لوحة (الجوكوندا) الشهيرة .

وهذان الشاعران لم يسلما من نقد النـاقدين اللاذع : ومن بعض التهجم العنيف ، لكن ذلك لم يحل ولن يحول دون مضيها الى الامام وانتشار شعرهمـا

ورواجه ، مثلما كان يحصل في الأيام الماضية ، فقد حدث في عام ١٩٥٧ ان احدى الصحف كتبت مقالاً تهاجم فيه الشاعر الممتاز ليونيد مارتينوف ، وجعلت عنوان مقالها : ليس سيلك سبيلنـــا يامارتينوف : فكان من جراء ذلك أن الشاعر لم يستطع نشر شيء طيلة ستة أعوام .

ومثل هذا الامر لم يعد يحدث في بلادنا مطلقاً . ولم يضطهد شاعر واحد مهما كان النقد الموجه اليه . حتى لم يعد يخطر في بال أحد في الاتحاد السوفياتي أن تحدث مثل هذه الاشياء . وأكثر مايمكن ان يتعرض له الاديب لدينـا هو أن تسري بين الناس بعض الشائعات عنه .

ان الكثير مما نراه لم يكن من رأي ستالين . لكننا الآن قد نبذنا نهائياً كل رأي يجعل المقـام الاول للهدف ، مبرراً بذلك الوسائل المستعملة لبلوغه . وانا نحاول الان ان نصل الى اهدافنا العظيمة بوسائل عظيمة مثلها .



زحفت من بطن الجبل كتلتان بلون الصخر ، لهما اربع عيون سوداء كبيرة، ارعشتا اهداب عيونهما في وجه الشمس ثم نفضتا عن هيكلها غبار الرمل، ودون أي معجزة او انفعال خاص تحولتا الى آدميين ..



مخلوقان عجيبان

قصة بقلم : فارس زرزور

كانا نادراً مايرفعان رأسيهما ، ولكنهما فعلاهذه المرة . فضرورة الحال كانت تقضي بذلك. فقد أحسا انهما معلقان في الفضاء والارض تحت أقدامهما غير ثابتة ، وألم برأسيهما دوار غريب فأغمضا عيونهما وهما يتمثلان الموقف . سأل الاول بتهيب كبير :

ـ كيف اصبحنا هنا .؟

ورد الآخر محاولا أن يعطي اجابة صادقة قدر المستطاع :

ـ في الحقيقة .. لا أدري ..

حالما أن يريا المدينة الجبارة على هذا الشكل غير الطبيعي . كانت في الماضي تبدو لمداركهما رهيبة غامضة ، أما الآن فقد استحال على عقليهما أن يجدا لهـذه الظاهرة الفريدة صفة او تفسيراً وعندما طرح الاول سؤاله ، لم يكن ليعني مدلول الكلمات التي باح بها ، كان يقصد أن يقول مثلاً :

(ترى هل في مقدورنا أن نرجع الى اوكارنا .؟)

أو يورد تعريفاً نادراً لهذا المحيط الآسر الذي لم يألفه في حياته ، أو تعبيراً خاصاً عن شعوره ازاء هذه السرمدية المطلقة . ولكن خانه الفهم قبل أن يخونه التعبير . وعندما اجاب الثاني بعدم قدرته على التفسير ، كان يدرك جيداً ما كان يقصده رفيقه ، وبما أنه عانى الشعور نفسه ، فقد كان موفقاً عندما رد : (في الحقيقة .. لا أدري) .

ان كلا منهما يعرف جيداً كيف وصل الى بطن الجبل . ولم يكن ذلك بفعل أيد سحرية و قوة خفية . فقد حمل الاول من باب الجابية على ظهر عربة يجرها بغل ، وتلاه الآخر من الزرابلية على عربة مشابهة ، ثم التقيا هنا دونما سابق خطة أو ترتيب وقد انتقاهما متعهد بناء له خبرة واسعة بأصحاب العضلات والهياكل القوية ، ليحفرا بطن الجبل ويستخرجا منـه الرمل . وعند الظهيرة استغنى فجأة عن خدماتهما بعد أن قاما بمهمتهما على خير مايرام ..

كانا فلاحين من حوران . من تلك الجموع الزاخرة الهائمة التي هاجها غول الجفاف سنين متعاقبة، فتركت اراضيها للدود واكتسحت طرقات المدينة لتعشش في منافذها واسواقها الضيقة ، ولتقوم بالاعمال التي تكفل لها سد الرمق ، والمحافظة على استمرار الحياة ، دونما قيد أو شرط او أي اعتبار من الاعتبارات التي تمس الشخصية والكرامه والطاقة الجسدية . فلم يكن لهذه العناصر ـ مجتمعة أو متفرقة ـ أي شأن في حساب أحد ، فهي الرأسمال الوحيد ، الذي يمكن طرحـه للبيع دون اعتبار لجدول الارباح والخسائر ..

حين أفاق الفلاحان على آدميتهما ، وطرفا اجفانهما في وجه الشمس . شاهدا السماء بمقلهما المرملة تتلون بألوان تغري بالانطلاق من أي حيز . وفكر كل منهما في أن يصبح شيئـاً خارقاً

لايمكن تحديده . ولو كانا على قليل من الخبرة ، لآثرا أن يتحولا الى طائرين أو شاعرين او شيء من هذا القبيل . ولكنهما رجعا الى واقعنا في أقل من لمح البصيرة :

(ينبغي أن نكسب الوقت ونبحث عن مستأجر جديد) .

كانت شمس الظهيرة قد ارتكزت في كبد السماء لا تريم : وكأنما ادركها التعب فتوقفت لينعم بها الكون بأسره . وعلى جميع الابعاد كانت المعالم تذوب مع بعضها لتشكل معان جديدة لم يسبق لأي منهما أن حلم فيها . والى الجنوب .. اقصى الجنوب تخيلا الارض ، لم يكن هناك افق كالافق الذي يعهدانه . فزرقة السماء لم تكن ممتزجة بسمرة التراب كما يحدث عادة عندما كانا في الماضي يطلان بعيونهما من وراء المحراث . لم يكن هناك شيء ..

ظلال .. مجرد ظلال باهتة لا لون لها . كانت الوانا لطيفة رائعة ولكنها فارغة لاتوحي بالشبع . وفكر كل منهما بصمت :

(أنا .. من أنا .! وفي أي مكان أوجد .؟ يبدو أنني عاجز عن أن أقيس نفسي الى هذا العالم ... الى هذا العدم .. انني لاأفهمه . لابد أنني عظيم وتافه بآن واحد . ولهذا لاأستطيع أن أعرف أهميتي ...) .

ولم يدم تفكيرهما هذا غير لحظة قصيرة ، فرضاها استراحة كانا في غنى عنها ، ثم مالبثا أن نهضا وشرعا في هبوط الجبل . وكان بمقدورهما أن يوفرا الجهد الذي بذلاه من أجل الاسراع . فلم يدخل في حسابهما يوماً أن يهبطا مرتفعاً ، اذ لم يصلا أبداً الى قمة .. من أجل هذا وجدا نفسيهما يهرولان دون أن يتمالكا أو يحدا من سرعتها المتزايدة . وتجاوزا سطوح المنازل الاولى وهما يضحكان ويهزجان . ثم سقطا في حفرة كالبالوعة فغرت أمامهما بغتة ، وجدا نفسيهما بعدها ينحدران في طريق منسكب هو الجادة السابعة من أحد أزقة المهاجرين .

وعندما لمحا الترام يهدر في القاع حاولا عبثاً السيطرة على اندفاعهما الجنوني ، خشيا أن يفقدا زمام ساقيهما فيجرفهما ذلك الحيوان الرهيب . كانت أنفاسهما تتلاحق ولكن دون جهد . وفكر كل منهما : (لاشك أن الهبوط أسهل من الصعود) ولم ينطف هذه الفكرة على لسان أحد منهما ، فقد عرفا أنها بديهية لاتستحق الجدل .

وفي تلك اللحظة لاح لأعينهما مشهد يستحق الاهتمام . في منتصف الطريق تقريباً كان رجل يصرخ ويهوي بعصاه على مؤخرة كتلة كبيرة الحجم لها أذنان مميزتان . وقال الأول :

ـ أظنه حماراً .

ورد الثاني مؤكداً .

ـ لابد أن يكون كذلك ..

لم يكونا من أنصار الرفق بالحيوان وذلك لسبب بسيط ، هو اعتقادهما بأن لأنفه حيوا منزلة توفر المعاملة اللائقة ، وتقيه شر الظلم والتعسف ، فضلاً عن أن في صدر كل منهما ذكرى مشبوبة لايمكن تجاهلها . فقد ترك هناك بهيا كان صديقه ومعينه الوحيد ، يقضي معــه النهار في حراثة الارض ويشكو اليه أفراحه وأحزانه . وعندمــا غادر الفلاحون قراهم ، سرحــوا بهائمهم لترسم بحوافرها طريق رزقها القـوم .

وصحت ظنون الرجلين عندما وصلا الى المـكان ؛ كان هناك حمار حقيقي غائص تحت حمل ثقيل فلم يبرز منه غير الرأس ، تسمرت قوائمه في الارض ترفض أن تتزحزح أنملة واحدة . وقد بدا واضحاً ان الدابة قررت قراراً أكيداً لامحيص عنه أن تقف في مكانها . ومن الطبيعي ان هذا التصميم لم يكن قد ارتسم على وجهها ولم تبح به لاحد ، ولكن الدلائل كلها كانت تشير الى صحته . فالحمل الثقيل الباهظ والطريق الصاعدة بشكل عمودي البادية للحيوان كالجدار القائم ، جعلته يتمرد بصورة عفوية وبحسن نية خالصة على متابعة الصعود .

ورفع الحمار الى الفلاحين القادمين رأسه المكدود ، وكأنه اشتم فيها رائحــة خاصة ، ثم شخر شخرة طويلة ، ليحذرهما من مغبة الاتيان بعمل ما أوليشكو اليهما ، اسفه الشديد على خور قواه وقل عزيمته .

كانت ساعد الحمال قد كلت ، وبح صوته من فرط الجهد الذي هدره في الشتم والدفـع والضرب . واخيراً لوح بعصاه المحطمة ثم قذف بها في الهواء وهو يغمغم بحنق :

ــ لافائدةيجب انزال الحمولة . واعترض رجل كان قريباً من المـكان ولعله البقال صاحب البضاعة :

ــ ولكن يجب ايصال الاغراض الى الدكان .. وهز الحمار رأسه وكأنه يرفض هـذا الاحتجاج ، فطارت من اذنه ذبابة فرس ثم عادت الى مكانهـا دون ابطاء ، فيا شرع يتأمل المخلوقين العجيبين اللذين وقفا يستوضحان المشهد . قال احدهما لاغماً :

ــ مع ان حميركم تأكل الشعير..

واضاف الآخر بينه وبين نفسه :

(الذي لوتوفر لنا نحن الآدميين لكنا في خير حال .)

ورد الحمال مدافعاً عن حماره :

ــ القصة يا اخوان ليست قصة شعير .. ان اي حيوان لايمكنه صعود الجبل بهـذه الصناديق الثقيلة .

ولسبب ما ندم الحمال على هذه الاجابة رغم ضرورتها . فقد واتته فكرة واضحة وطلب

الى الفلاحين انزال الحمولة . وزفر الحمار بارتياح وهو يلتفت الى الخلف معبراً عن امتنانه لهذين المخلوقين الظريفين برمعان متلاحق من خيشوميه الواسعين .

وحدث بعد ذلك ما كان يتوقعه الحمال فقد جرت مفاوضة بسيطة بين صاحب البضاعة والمخلوقين العجيبين ختمها الأول بهذه الحكمة البليغة :

ــ سبحان الله .. لهذا فضل البني آدم على الحيوان .

وضحك الحمار في سره :

(فليكن ... ان ذلك لن يضيرني)ثم عبر عن سخريته من سائر الحكم بأن رفع جحفلته الى الاعلى وراح يكشر في وجه الشمس .

كان كل من الفلاحين قد تمنطق بحبل في وسطه قطعة من اللباد يلصقها على جبينه عند رفع الاثقال . وقد برزت من تحت شملته البالية قبعة من الشعر كانت تتخذ على الدوام لون آخر مهمة يقوم بها . وقد أحاطت بقدميه سيور من الكاوتشوك نزعت من اطار عجلة السيارات . اما الهيئة العامة فكانت ــ لنافرها ــ تحض الشاهد على الاعتقاد بأن صاحبها قد تخلى نهائياً عما يسمى بالذوق السليم . وعلى هذا فلا يمكن للانسان العادي أن يشعر بحضرة امثال هذين المخلوقين بأي حرج ، كما انه يستطيع ــ بكل بساطة ــ أن يوكل اليهم القيام بأحط الاعمال أو اصعبها دون أن يضيع وقته الثمين في المساومة أو وزن الاعتبارات .

وانحنى الرجلان على صناديق الفاكهة والصابون والاشياء الاخرى ، يتقاسمانها الى حصتين فيما كان البقال يسائل نفسه بتوجس :

ــ ترى هل بمقدورهما أن ينهضا بها .؟

وبسرعة فائقة وبخبرة من له مائة عام أحاط كل من الرجلين صناديقه بالحبل ثم جثم وراءها مسنداً اياها الى ظهره ، لاصقاً قطعة اللباد الى ناصيته و .. صرخ البقال بعزم :

ــ يا الله .. ياقوي .. وكأنه استشعر بالحمولة تنقض على كاهله وتخمد منه الانفاس .

ونهر الفلاحان برأسيهما الى الامام ثم اندفعا واقفين ، فطقطقت مفاصلهما كما لو أنهما تتقصف . ومال كل منهما حول نفسه قبل أن يتخذ وضعاً تتوفر فيه الراحة للحمل ، وما أن حرك قدمه ليخطو خطوته الاولى ؛ حتى وجد نفسه يتأوه الى نصفين ، بحيث اصبح رأسه قريباً جداً من قدميه ، ولأول مرة لاحظ احدهما أن ابهام قدمه اليمنى ينزف دما . فتذكر بأنه أحس في فترة ما من فترات النهار بألم خاص يأكل ناحية من جسده ، غير أنه لبان انشغاله في حفر الجبل ،نسي الالم وأسبابه ، ولكن الألم لم ينسه ، ظل يلح عليه طوال الوقت حتى اصبح عادة كريهة يصعب التخلص منها . وقال الرجل في نفسه وهو يركز انظاره على الظفر المقلوع :

(سأصب عليه عند عودتي قليلاً من البترول وبذلك ينتهي الالم) ومن ثم اقنع عينيه

بالنظر الى مكان آخر . وتمنى لو يستطيع أن يرفع رأسه قليلا ليرى الطريق الصاعدة أمامه ، ولكنه فشل . التي نفسه مجبرا على أن يظل منحنياً الى الاسفل . وراح يجاهد ضد عاملين قاسيين أشد القسوة ، الطريق الصاعدة على نحو عمودي والحمل الثقيل الذي يهد حيله . وفي لحظة ما ساءل نفسه :

(ترى هل ذلك حقيقة .. أن الله فضلنا على الحيوان .؟

ومن سوء الحظ أنه كان يفرض نفسه آدميا ، ودليله الوحيد أنه في الاحوال العادية يمكنه السير على قدمين ، ولكنه الآن يكاد يمشي على أربع ... وأنه ليتمنى ذلك بشكل بساطة ، على السير بهذه الطريقة يصبح أقل مشقة : وانتشله من خواطره صوت زميله الذي بدا مبحوحا ضائعاً وسط الزفير :

— اظن انهم سيعطونني دية البنت .. ألا تظن ذلك ..؟

كان هذا قد هبط على المدينة مع بناته الخمس ، فأجر الكبرى كخادمة ، وأودع الباقيات زاوية على رصيف النهر في الزرابلية ومنذ يومين عاد من أحد الاعمال فقيل له بأن ابنته الوسطى قد انتشلت جثة من تحت عجلات السيارة . وقد حدث وتيقه عن القصة خلال وجودها في بطن الجبل ، وها هو الآن يعود الى استئناف الموضوع الذي يقلق نفسه . كان يتكلم بصوت كالفحيح وهو يهدج بصناديقه الاربعة وفي صدره ينخر كالسوس ألم أسود :

— علمت بأن سائق السيارة قد اوقف ثم أخلي سبيله . وقال لي الشرطي أن أقدم دعوى .. أنا لا أعرف الشؤون هذه الدعاوي .

ولكن لو أعطاني السائق نقوداً فستحل المشكلة من تلقاء نفسها ..)

وكان الآخر يفكر على منوال آخر :

(اذا قبضت الآن ربع ليرة اجرة حمل الصناديق فسيكون معي ليرتان ..

كان تفكيرهما في جميع الحالات يؤدي الى نتيجة واحدة . . النقود . . فقد رهن كل منهما ارضه في السنة التالية للجفاف ، وهو الآن يعمل ما استطاع ليوفر قليلا ويحرر الارض من الدائنين وعاد الأب يستشير صاحبه :

— إنهم هنا — كما علمت يعتبرون قضية الدهس كقضية القتل ... اليس كذلك . ؟ وعلى هذا سآخذ دية كما حدث عندما ذبح نواف الصالح .. وفكر الآخر :

(ترى الا يحس هذا الرجل مثلي بأنه يكاد ينسحق تحت وطأة الصناديق .. ؟

وخلد الأب الى أفكاره :

(إن البنات مفيدات على أي حال . . على ان لا يمتن ميتة طبيعية) كان بدوره يشعر

بأن الحمل انقض ظهره ، وكان يعتمل في نفسه خـلال الحديث : (إذا بدرت من صاحبي أية بادرة في الاستراحة فأني سأجلس على الفور . .

وربما كان الاب يتحدث عن ابنته القتيله من قبيل التسلية وإضاعة الوقت ، وليتسى حالته البائسة التي كان عليها . وعندما يصمت كان يحس بأن الصمت يرهق صدره اكثر مما يفعـله الحمل الثقيل .

كان الرجلان يرقيان المرتقع مكورين على نفسيهما ، وقدضاعت منهما المعالم الآدمية . كانا عبارة عن كومتين ثقيلتين مكونتين من أشياء يصعب تعريفها .. أرجل متورمة ، وسراويل مغبرين ، ومواد أخرى مجهولة ومخفية عن الانظار ، تتميز منها أنفاس لاهثةوعيون يأكلهاالرمش وقلبان يعتصرهما القلق اكثر مما يؤثر فيهما الكدح المتواصل الشاق .

وجرش ذو الاصبع الدامية ريقه بصعوبـة . كان يختمر في رأسه المكدود سؤال أو حديث غريب يصعب نطقه . وفي كل مرة كان يؤثر الصمت . انه لايفهم شيئاً . كان يقول في نفسه : (نحن كنا فلاحين .. واسمنا فلاحون .. أما الآن فمن نحن .؟ ولو كان يعرف جيداً أنه سيجد الاجابة عند زميله لصارحه في القضية ، ولكنه لم يكن واثقاً من ذلك ، فضلا عن أنه في هذه الآونة وجد أن السؤال او مجرد الكلام يتطلب جهداً فائقاً لاضرورة لمعاناته . وعلى هذافقد راح يستغرق في احلام مبهمة .

واحيانا يوهم نفسه بانه يحلم ، دون ان يدري بأنه يفعل ذلك ببلاهة غريبة .. وظل يتمنى ولو لحظة قصيرة ، ان يفلح في تجريد ذاكرته من هذه الحقيقة التي تدعوها جسده . كان يلاحظ ـ وهو يجر قدميه او يصغي الى زحف اقدام زميله ـ بأن الطريق ثابتة في مكانها لاترجع الى الخلف كما هي البادرة التي يلاحظها السائر . وخيل له لفترة معينة بانه يسير على شريط يتحرك الى الوراء بحيث لن يصل من يمشي عليه الى اي مكان ..

وهناك بادرة ساءته كثيراً وراحت تعذبه بدأب . فقد لاحظ بان الكلل بدأ يتسرب الى اعماقه وارعبته حقيقة بسيطة للغاية :

(ماذا لو بدأت اتعب من الآن .؟ من يستطعمـني .؟ وكيف أستطيع ان اوفي ديوني وارجع الارض .؟

وفجأة احس بظلم فادح يأكل ضميره . فانتفض بقوة ولكن كما تنتفض نملة تحت حجر . وتصاعدت من جوفه حشرجة اليمة . في حين كان الآخر ينقب في ذاته عن تلك النشوة الـتي تملكته عندما وجد نفسه منذ قليل في احضان الجبل ، يذلل جبروت المدينةالظالمة التي تمضغه بقرف دون ان تتلذذ بطعمه . واغمض عينيه ليتخيل الابنية المرتفعة تلعق سيور حذائه المحترق . وغاص

ذو الاصبع الدامية بكل رصيده من افكارواطلق من جوفه صفيراً غامضاً شبيهاً بنقيق الضفدعة:

— اني لاأفهم .

وفتح الآخر عينيه وارهف اذنيه رغم استعداده لسماع اي شي .. واستطردالاولقائلا:

— ان الفلاحين .. لهم دائرة أو ما أشبه ذلك .. على كل حال يوجد في الدولة من يهتم بأمرهم .. أما نحن فلا أحد .. أعني .. لا أدري كيف أعبر ..

وفي تلك اللحظة انطلق من احدى الشرفات صوت نسائي ينادي :

— انظري يابنت هل يوجد أحد في الطريق .. :

وردت الخادمة بعد لحظة :

— لا ياستي .. لايوجد احد ..

وكانت الخادمة سليمة النية عندما أجابت . فقد اطلت من الشرفة ولم تر احداً . لاحظت فقط وجود كومتين مبهمتين تتحركان كالسلاحف . وسفحت المرأة صفيحة الماء من الاعلى . فطار رذاذه على الارض محملاً بالغبار والبصاق والنفايات وبكل ماتحمله الاحذية في نعالها ، ثم لطخوجهين مدفونين تحت الاعماق ولعق الاول شدقيه وهو يغمغم :

— أظن .. قلبي يحدثني .. بأن الله سينزل المطر ..

وبعبع الآخر كالمخنوق :

— الله يبعث الخير

وظل الطريق يمتد صمداً .

من الكتب الصادرة حديثاً عن
وزارة الثقافة والارشاد القومي
تطلب من جميع المكتبات

★ (الشرارة الاولى)

قصص قصيرة تأليف :مراد السباعي
١٣٤صفحة من القطع المتوسط

الثمن : ٧٥ ق.س

★ (مختارات من شعر لوركا)

ترجمة عدنان بغجاتي
٢٢٦ صفحة من القطع المتوسط

الثمن : ١٤٥ ق.س

★ « روضة الورد »

تأليف : سعدي الشيرازي .
ترجمة : محمد الفراتي
٣١٦ صفحة من القطع الكبير

الثمن : ٦٠٠ ق.س

الكتاب والموضوعات

التعبير في الموسيقى والرقص

للدكتور سامي الدروبي

الفن كشف عن واقع مفرد وتعبير عن هذا الكشف في مخلوق فني يتجلى فيه الواقع سافراً بعد أن كان محجباً وراء المعاني العامة . واذا كان هذا يصدق على الفنون المكانية ، فهو يصدق على الفنون الزمانية أيضاً . لئن كان التصوير رؤية وتعبيراً ، فالموسيقى كذلك ادراك وتعبير . ولكن بينا يتجه المصور أو يتجه بعض المصورين الى تأمل الواقع الخارجي آيات تدركها عين الفنان ، وبينا يتجه مصورون آخرون الى استعارة الواقع الخارجي اداة للتعبير عن واقع نفسي ، شعوري أو غير شعوري ، يتجه الموسيقي رأساً الى الحالة النفسية يخطف الحانها ثم ينفضها في موسيقاه . ولعل قدرة الموسيقى على التعبير عن الحالة النفسية أن تكون اكمل من قدرة أي فن من الفنون على ذلك ؛ لأن الاصغاء الى انغام الحياة النفسية يتم بلا وسيط من اشكال أو الفاظ لها وظائفها في غير مجال هذه العملية الفنية ، كما أن التعبير عن انغام هذه الحياة النفسية يتم ايضاً بلا وسيط من أشكال او الفاظ لها وظائفها في غير مجال هذه العملية الفنية . ان الادراك والتعبير يتمان في الموسيقى على نحو اكثر مباشرة منه في التصوير والشعر مثلا . ان «**الاذن**» التي تسمع الحان النفس ابرأ من الموقف العملي وادواته من العين التي

ترى الاشياء التي قد تكون نائمة ، وان النغمات التي تعكس هـذه الالحان ابرأ من الموقف العملي من الالفاظ التي تترجم في الحيـاة الاجتماعية عن حاجات · قال فيزر . « ان الموسيقى تقابل اخفى نداء في انفسنا . انها الاهتزاز الاصفى الذي لا يستطيع ان يدركه اي طراز من طرز التعبير . فالموسيقي يدرك مباشرة لحن حياتنا الداخلية ، وما من حجاب يقوم بين ايقاع الموسيقى وميلوديا النفس .... صحيح ان الشاعر يستهدف نفس الغاية التي يستهدفها الموسيقي ، فهو بدلا من ان ينظر الى العالم الخارجي كالمصور (١) ، ينظر الى العالم الداخلي كالموسيقي ، ويحاول ان يدرك فيه انسجاماً قوياً . ولكن الفرق بين الشاعر والموسيقي ان اللحن وحركة النفس هما في الموسيقى شيء واحد . ان الموسيقى تقبض على لحن النفس رأساً ، في حين ان الاداة التي يستعملها الشاعر جافية .... ان هذه الاداة ، اللفظيـة ، وهي رمز اجتماعي نفعي اصطلاحي ، غير قادرة على ان تعكس الحياة الداخلية(٢) » . فالموسيقى تعكس انغام الحيـاة النفسية . وقديماً قال فاجنر : « الصوت اداة القلب ، والموسيقى لغته الفنية الواعية » . وليس يدحض ذلك أن يقـال أن الموسيقى لا تستطيع أن تصور ، وإن ما يسمى بالموسيقى التصويرية وهم باطل ، فلئن كانت الموسيقى لا تمثل شيئاً من خارج الانسان ، فانها تمثل داخل الانسان؟ ونحسب أن ثورة هانسليك (٣) على قول القائلين بأن الموسيقى تعبر عن **مضمون** عاطفي انما كانت في الدرجة الاولى رداً عنيفـاً على ما وقع في الوهم من أن الموسيقى تصور شخصيات ومنـاظر طبيعية ، فلم يكتف هانسليك بتجريد الموسيقى من قدرتها على ذلك بل ذهب أيضا إلى ان الموسيقى عاجزة عجزاً مطلقاً ــ سواء أكانت غناء ام عزفا ــ عن التعبير رأسا عن أي **مضمون** عاطفي كائناً ما كان ، عاجزة عن هذا التعبير ليس فقط بالنسبة الى هوى كالحب يضمن تصورات معينة (صورة المحبوب والعوائق التي تحول دونه وألوان الفرح أو الخيبة التي يتوقعها المحب) ، بل أيضاً بالنسبة الى عواطف اولية هي نسيج حياتنا النفسية . كالفرح والالم . فهو يقول **إن الموسيقى لا تعبر مباشرة الا عن نفسها ، لا تعبر الا عن جمالها الخاص بها ، انها تعبر عن مضمون ليس مستمداً من أي نطاق من الوجود غير نطاق الاصوات نفسها ،**

---

(١) واضح ان المؤلف يمثل في ذهنه هنا نوع بعينه من انواع التصوير .

(٢) فيزر « الرمزية الادبية » يجب ان نشير الى ان فيزر بصدد الدفاع عن الشعر الرمزي الذي يحل الموسيقى في القريض منزلة خاصة تجعله اقدر على التعبير عن الحالات النفسية ، فكلما ترقرقت في الشعر موسيقى كان اقدر على تبليغ ما بالنفس من عواطف لا تبلغها صافية الا الموسيقى .

(٣) هانسليك « في الجمال الموسيقي » .

فما بين هـذه الاصوات من انساب متجاذبة ، وتعارض وتنافر ، ما بينها من تعانق وطلاق ، من صراع وتصالح ، من صعود وهبوط ، من هروب ووقوف ، من أضواء تنيرها وظلمات تلفها تبعاً لانتقالها من نبرة الى نبرة ، ومن آلة الى آلة ، ذلك هو ماتعبر عنه الموسيقى مباشرة ، ولا شيء غير ذلك .

هذا ما ذهب اليه هانسليك . ونحسب انـه صادق اذا ادخلنا في قولنا « المضمون » معنى صور بصرية أو حتى حالات نفسية مرتبطة ارتباطـــا تفصيليا باحداث خارجية بعينهـــا ، فالموسيقى بهـــذا المعنى لكلمة المضمون لا تعبر ، وأكبر دليل على ذلك أن القطعة الموسيقية الواحدة لا يتخيل وراءهـــا عدد من المستمعين صوراً بصرية واحدة ، بل ولا حالات نفسية معينة مرتبطة باحداث خارجية معينة ؟ اما إذا فهمنا المضمون بانه « **حركة** » الحياة الفنية ذاتها ، اذا فهمناه بأنه موسيقى الحيـــاة الداخلية ، كانت الموسيقى هي حقا أنقى تعبير عن هذا « المضمون » الفني . ثم أجرى **باش** ، الفيلسوف الموسيقي ، تجربة على طلابه بالسوربون ، فكان يعزف نفسه او يعزف احداً من العازفين قطعة موسيقة ، ويسأل الطلاب ان يصفوا مايشعرون به وصفاً أميناً ، فلما جاءت اوصافهم مختلفة بل متعارضة كاد يخرج من هذه التجربة الى ان الموسيقى عاجزة عن التعبير عن العاطفة ، ولكنه استدرك قائلا : « اذا كانت الموسيقى لاتستطيع ان تعبر عن مضمون العواطف ، فانها تستطيع ان تصور حركة هذه العواطف تصويراً امينا » . ذلك انه تساءل : لو كان عالم الاصوات مستقلا عن عالم العاطفة فكيف نفسر أن نقطة البداية عنـــد المؤلف الموسيقي هي دائماً حالة نفسية ، وان الموسيقى التي يضعها هذا المؤلف توقظ في نفس المستمـــع عواطف ؟ واجاب على هـــذا السؤال بان ربط بين العـــالمين ، عالم الاصوات وعلم النفس ، على النحو التـــالي : ان كل تبدل من تبـــدلات الصوت (في الارتفاع والشدة والايقـــاع والجرس) « يؤثر في حساسيتنا تأثيراً خاصاً لاتعليل له ، فنحن هنا ازاء ظواهر اوليـــة نجهل سببها ، فاستجابة عاطفتنا لهذا الصوت وهذا الجرس وهذه النبرة الكبرى او الصغرى تظل سراً كسر استجابتنا لهذا اللون او ذاك من الالوان ولهذه المزاوجة او تلك من المزاوجات بين الاسماء فالاحساس والتراجع الانفعالي للالوان مازال الى الآن لغزاً لم يحل . غير ان الامر الذي ليس باللغز هو استجابة عاطفتنا لحركة الاصوات . ذلك ان عاطفتنا لا تسكن هي الاخرى ابداً ، وانما هي في صيرورة متصلة وحركة دائمة كهذه الاصوات سواء بسواء . فشعورنا ماينفك تتعاقب فيه احساسات وتأثرات وعواطف ، ونحن ننتقل في غير انقطاع من الراحة الى الانزعاج ومن التوتر الى الاسترخاء ومن التنبه الى الهبوط . تحولوا بأبصاركم لحظة عن الحياة الخارجية ، واحصوا نظراتكم في انفسكم ، تشهدوا هذا التأرجح لاينقطع ، هـــذا السيلان ، هذا الترقرق في حالاتكم النفسية . وهذه الحالات النفسية تتجاذب وتتدافع هي الاخرى وتلتئم وتنفصل ، وتتعانق وتهتاج ، وتتصاعد وتتباعد ... افليس طبيعيـــاً اذن ، والحال على ما ذكرنا من تشابه بين عالم الاصوات وطبيعتنا العميقة ، ان تكون حركة الاصوات ترجماناً لحركة

النفس ؟ اننا نتوحد من تلقاء انفسنا ، على نحو لايقاوم ، مع هذه الاصوات التي تخطر امامنا تصعد معها ونهبط ، ونكبر ونصغر ، ونتسع ونضيق . ان ذلك الصوت الذي يظل معلقاً وهو ينشر قلبه الرنان لهو نفسنا وهي تحلق . ان ذلك الصوت الذي يتحفز ويصعد لهو نفسنا وهي تثب . ان ذلك الصوت الذي يهبط لهو نفسنا وهي تهوي الى القاع . ان هذه الاصوات التي تتلاحق عجلى لهي حالاتنا النفسية وهي تتعاقب سريعة . ان هذه الاصوات التي تتلبث لهي حياتنا النفسية وهي تسكن . ان هذه الاصوات التي تسير سيراً متقطعاً لهي حالاتنا النفسية وهي تصطدم بحاجز » (١).

وهكذا ينتهي باش الى القول بأن الحالات النفسية التي تستطيع أن تعبر عنها الموسيقى انما هي الاضطراب والهدوء والتردد والارتعاش والاختلاج والوثوب والانطواء والتوتر والاسترخاء» . ثم هو يخطو خطوة ثانية فيرى أن هذه الحالات النفسية التي هي عوامل محركة ترتبط بحالات نفسية أخرى اكثر منها تعيناً وتحددا . فالاضطراب يرتبط به القلق ، والسكون يرتبط به الهدوء والفرح ، والوثوب يرتبط به التطلع والتشوف ، والانطواء يرتبط به الحياء ، والتوتر ترتبط به ارادة الحياة والفرحة الكبرى ، والاسترخاء ترتبط به الكآبة ، فالموسيقى اذن تعبر أيضاً عن هذه الحالات النفسية المتخصصة ، فيما يقول باش . ونحسب أن باش لم يكن في حاجة الى هذه الخطوة الثانية ليقرر ان الموسيقى تعبر عن العواطف . وكان حسبه أن يؤكد أن الموسيقى تعبر عن تلك الحالات النفسية الاولى التي هي جوهر الحياة النفسية أوهي نسيجها . ألا يحس كل منا أنه يخون في بعض الاحيان الحالة النفسية التي يعانيها حين اطلق عليها اسم القلق أو الفرح أو التشوف الى آخر ما هنالك من تسميات من هذا القبيل ؟ ألا يحس كل منا في بعض الاحوال أن الحالة النفسية التي يعانيها هي اكثر رهافة وأشد تهربا من أن تدخل في قالب اسم بعينه ؟ وهل ترتبط حالاتنا النفسية دائماً بموضوع معين تنصب عليه ؟ ألا تنبثق في كثير من الاحيان من تلقاء نفسها دون أن يكون لها اية صلة ظاهرة بأي حدث من الاحداث ؟ أليس ما نحاوله احيانا من ردها الى موضوع معين مجرد تبرير لها ، مجرد جهد نبذله من اجل فهمها بتطويقها وتعليلها وتسميتها رجاء السيطرة عليها ؟ فلو كنا أوفياء لها أمينين عليها ، أكنا نحاول هذه المحاولة؟ ان الحالة النفسية التي تعبر عنها الموسيقى ليست هي الحالة التي يمكن تسميتها ، وانما هي الحالة التي تعز على محاولة التسمية ، لانها ليست بذات موضوع محدد ، ولذلك كانت الالفاظ التعبير عنها ، وكانت الموسيقى وحدها قادرة على نقضها ، لانها هي نفسها حركة شبيهة بحركة الاصوات في الموسيقى . ذلك هو المضمون الذي تعبر عنه الموسيقى . وعن هذا انما قال برجسون : «وثمة فنانون آخرون يوغلون أعمق من هذا ايضاً ، فيدركون وراء هذه الافراح

---

(١) باش ، « دراسات في علم الجمال والفلسفة والادب » ص ٧٤ .

والأحزان التي يمكن ان يعبر عنها بالفاظ اذا لم يكن من ذلك بد . يدركون شيئاً لايمت الى الكلام بصلة ، يدركون من أنفاس الحياة انغاما هي اعمق في الانسان من اعمق عواطفه ، لانها القانون الحي ، المختلف باختلاف الشخص ، لخوده وحماسته ، وحسراته وآلامه ، يستخرجون هذه الموسيقى ويقوونها ثم يفرضونها على انتباهنا ، ويجعلوننا ندخل انفسنا فيها على غير ارادة منا ، كما يندفع المارة الى رقص» (١) .

وليس عبثاً أن ربط برجسون بين الموسيقى والرقص . ان الرقص يعبر عن حالات نفسية هو الآخر ، ولكن اداته ليست هي الاصوات بل حركات الجسم . ان ايديهن لتتكلم ، وان اقدامهن ليبدو انها تكتب ... هذا ماقاله بول فاليري عن الراقصات في كتابه **«النفس والرقص»** بعد ان هتف يقول : لله در الراقصات المضيئات.. يالرقصهن من نفاذ خفيف حي تنفذه اكمل الافكار » . والحق ان الرقص موسيقى انغامها حركات يقوم بها الجسم، فكل رقص انما هو موسيقى ، ولعلنا نستطيع ان نقول ان كل موسيقى فهي رقص ، هي رقص في النفس اولا وفي النغمات بعد ذلك . وهذا مايعبر عنه فاليري تعبيراً شعرياً مجنحاً حين يقول عن احدى الراقصات : « لو اغمضت عيني لظللت اراها بسمعي فانا اتبعها واهتدي اليها ولاتغيب عني ابداً ولو اصممت اذني ونظرت اليها لاستحال علي من فرط ماهي ايقاع وموسيقى الا ان اسمع

---

(١) برجسون ، « الضحك » الترجمة العربية ص ١٠٦ . وقد بين ميشيل بوتور في مقالة نشرت في عدد يناير ١٩٦٠ من مجلة « Esprit » بعنوان « الموسيقى في واقعي » ، كيف أن تجريد الموسيقى من القدرة على التعبير عن الواقع انما يرجع الى مفهوم خاص عن هذا الواقع اظهرت الفينومينولوجيا خطأه ، فهو يقول . « ان هذا المفهوم الذي يجعل الموسيقى غير قابلة لان تشرح (٠٠٠٠) يستند الى توحيد مطلق بين الواقع والمرئي (كأن الانسان ليس له حاسة أخرى غير البصر (٠٠٠) وواضح أننا متى سلمنا بأن الاصوات جزء من الواقع فهمنا على الفور أن الموسيقى يمكن ان تكون واقعية . » (المرجع المذكور ص ١٣٩) . وقد اوضح بوتور في هذه الدراسة كيف أن الموسيقى الحديثة نفسها تشتمل على معنى ودلالة وتصوير ، رغم أن بعض اقطاب هذه الموسيقى ينكرون عليها ذلك، **وكيف أن قول سترافنسكي عن الموسيقى بانها «عاجزة بطبيعتها عن أن تعبر عن شيء» هو قول تكذبه موسيقى سترافنسكي نفسها** ومن اسباب الوقوع في هذا الخطأ عند بوتور أن الناس يظنون أنه لكي نستطيع القول بان الموسيقى تعبر لابد من امكان ترجمة الاثر الموسيقي الى لغة الكلام ، كلمة بكلمة ، او نغمة بكلمة. وهذا مستحيل طبعاً ، فحتى الترجمة من لغة الى لغة يستحيل أن تتم كلمة بكلمة .

القيثارات » . لقد عقب جي دوبورتاليس (١) على كلمات فاليري بقوله . « ... لقد اشار بول فاليري ، منذ الصفحات الاولى من كتابه « النفس والرقص » ، الى امرين . اولهما ان كل رقص موسيقى ··· والثاني ان كل موسيقى وبالتالي كل رقص انما هو انعكاس للنفس » . وهو يضيف الى ذلك قوله . « من اجل هذا كان لكل منا رقصة ، وكان كل منا موسيقي ذاته ، وكان كل منا يعبر بحركته الخاصة عن لحنه الخاص . والحياة هي بهذا المعنى رقص ، هي سمفونية نحن جوقتها وآلاتها وراقصوها . » ويستعرض بورتاليس تاريخ الرقص فيذكر ان الرقص من اوائل الفنون التي ظهرت ، لانه لايقتضي من الدراسة مانقتضيه العمارة او الشعر مثلا ، رغم انه يتطلب استعمالا لما نملكه من قوى الرؤية لايقل رهافة عما تتطلبه العمارة ويتطلبه الشعر من مثل ذلك ، فمن اجل هذا عبر فن الرقص عن نفسه اولا بما يمكن ان نسميه الحركة الهندسية ، وهذا هو الرقص المعبر عن فكرة (رقص الهند ومصر القديمة) ، ثم اراد الانسان ان يعبر بجسمه عن انفعالاته ، فخلق لذلك الرقص التراجيدي (المسرح اليوناني) واخيراً حين اكتشف الموسيقى اطلق العنان لاحساساته وفرحه ومخاوفه واهوائه التي لاحصر لالوانها ودرجاتها ، وابتدع الرقص الذي نعرفه على اختلاف انواعه من اوبرا وموسيقى القاعة الى الباليه ، من سلوى موتسارت الى مازوركا شوبان ، من ايزادورا دنكان الى لوي فولر ، من الباليه الروسي الى صامتات كورت فايل ، من شاركوف الى ارختينا . فهذه الانواع كلها من الرقص انما هي تعبير ملون حي عن العواطف الانسانية التي يستمع الراقص الى انغامها في داخله ثم ينفضها انغاما ذات شكل آخر ، بحركات جسمه .

ان الرقص الحديث يحاول ، كالموسيقى التي تهجر تمثيل حكايات ادبية او تاريخية ، ان يعبر عن انفعالات ، عن حركات في النفس يغنيها الجسم بالايقاع . **ان مطمح الرقص الحديث هو ان يجعل الجسم يشف عن الروح** ، هو ان يجعل الجسم من فرط تساوق حركاته مع حركات موسيقى الروح كأنه هو الروح . وما اصدق قول الراقصة ايزادورا دنكان : **« المشهد هو انا ... لا تقولوا هو حالة نفسية ... بل قولوا هو حركة نفس ، اندفاعة نفس ، انني ارقص حركات روحي ... »**.

(١) بورتاليس « عبقرية الرقص » ، ص ٤٤-٦

الشعر المسرحي بعد شوقي

للدكتور زكي المحاسني

عهد شعرنا المسرحي جديد، فليس له تاريخ أصيل. ولو قبس العرب في العصر العباسي أقباساً من الأدب المسرحي عند الاغريق — كما أفادوا من فلسفتهم — لأتانا عن العرب أدب تمثيلي عجيب، لأن العرب كانوا إذا أفادوا من الحضارات اساغوها، وأطلعوها في وجوه فنهم حتى لتكاد تبـــدو أصيلة لديهم متوارثة. وأكاد أتناول لفظاً عن عالم الغرائز فأقول:

— إن المعدة العربية في الحضارة، تهضم كل شيء وتحوله إلى دم يجري في عروقها يزيدها نضارة، مادامت تلك الحضارة.

فهذا الضرب من الغذاء الشعوري والفني لم يتح للعرب إلا في العصر الحديث حين بدا التمازج بين الثقافات الجديدة، فأخذت الاصالة العربية بلقاح كان فيـــه المسرح وأدب التمثيل.

وكم يشوقني الكلام أعود به الى منابع الشعر المسرحي في أدبنا الحديث لأرى إلى الشيخ نجيب الحداد وقد ترجم مسرحية « روميو وجوليت إلى العربية » وقام بتمثيلها إمام المسرح العربي الحديث « سلامة الحجازي » فاذا الرواية منعقدة على خشبة المسرح ، وإذا تابوت قائم فيه جوليت مسجّاة وروميو يندبها بشعر نجيب الحداد ومعاني شكسبير :

« أجوليت » ماهذا السكوت ولم أكن
لأعهد فيك الصمت في البعـــد والقرب
سلام على وجـــه يد الموت لم تكن
لتمحوه أو تمحو هـواه من القلب

وإذا النظارة متقاطرون يتواجدون على مشاهد الرواية ذارفين الدموع .

وراح الأدب المسرحي العربي في اصطلاحاته الفنية يسمي الشعر التمثيلي الالقائي والغنائي « اوبرا واوبريت » .

واهلت مطالع عصرنا الحديث ، فاذا التأثير الادبي الغربي يبدو واضحاً لدينا في مظهرين كبيرين هما : أدب القصة وأدب التمثيل .

على اني حين اعول على تأثير الآداب الغربية في ادبنا العربي الحديث . لا اخلي مفاتن في آدابنا القديمة أعدها مطالع لفن التمثيل والاخراج المسرحي ، فأجدها في مقامات الهمـذاني ومقامات الحريري ، فان كل مقامة منها تصلح في فن الاخراج المسرحي لتكون تمثيلية جميلة أخاذة . ولكن هات لي النظارة والجمهور الذي يسيغ أدب الهمذاني والحريري في عصرنا وهو أدب ملآن باللفظ الغريب والسجع العسير.

لقد كان عمي أخو والدي - يرحمها الله - يروي لنا أنه وهو شاب كان لا يشارف دنو المساء حتى يذهب إلى المكان الذي يسمى الآن « حمام القيشاني » على

قرب من مسجد بني أمية بدمشق ليشاهد « أبا خليل القباني » وقد جاء الدمشقيين بفنه المسرحي الجديد ، بروايات أطلق عليها الدمشقيون يوم ذلك كلمة (القوميضة) ولست أشك بأن هذه الكلمة من نحت أبي خليل عن أصلها الغربي « Comédie » وحدثني عمي أن ابا خليل كان يلقي الشعر الذي ينظمه هو ويغنيه أثناء إلقائه ، فقلت اليوم وأنا استعيد هذا الحديث في ذكراه البعيدة الشريدة :

ــ لقد سبق إذن أبو خليل الملحن « فيردي » التلياني الذي لحن مسرحية « لادام أو كاميليا » وأنشدها الممثلون شعراً مسرحياً . اذ لم يكن فيردي هو الممثل وانما كان الملحن فواعجباً لأبي خليل القباني ، إذ كان ممثلاً وشاعراً وملحناً في وقت واحد . وأبو خليل مثال من عبقريات العرب التي تهتضم ـ كما قلت ـ كل شيء وتسيغه ثم تظهره وكأنه من أصولها الأصلية .

وظل أدبنا المسرحي يسير مثل طفل يحبو ، حتى جاء جبار القرن العشرين الشاعر الخالد أحمد شوقي فكتب مسرحياته السبع ، وقد أراد بهذا الصنيع أن يحدث حدثاً في الأدب العربي الحديث ، حدثاً ابتكارياً وتقليدياً في رمية واحدة فنجا بذلك من نقد المعاصرين الذين وجدوا شوقياً شاعراً يمضي على غرار الأقدمين بشعره ، وليس له تجديد فيه ، فاذا هو في النصف الثاني من حياته يطلع على العالم العربي بشعره التمثيلي وأدبه المسرحي . فيسد الثغرة التي كانت في دنيا الفن العربي المعاصر وهي ثغرة أدب المسرح الرفيع . وكانت عناية الدكتور طه حسين ظاهرة باستقبال الشعر المسرحي عند أحمد شوقي ، لكن معول نقده كان إلى جانب ذلك مهيئاً ، فقال فيه : «إن مسرحيات شوقي تصلح للغناء وتفقد روحها التمثيلية الحقيقية».

ودافع عن فنها نقاد فقالوا ، إنها مسرحيات شعرية جاءت من أحمد شوقي منحة للأدب العربي الحديث وقد ضرب بها ضربة المعلم ـ كما يقول التعبير الغربي ـ

والحق إن المسرحيات الشعرية عند شوقي فنية ورائعة استقبلها النظارة بشوق وتفتح وراح على لهفاتها الواهون يرددون بلسان شوقي أشعار قيس بن الملوح العامري عاشق ليلى .

ولقد ذهب شوقي من الدنيا ومازالت البيد تدوّي بأرواح أشعاره ، ولوعات قيس وهو ينشد بصوت المغني المعاصر :

إن يشركوني في ليلى فلا رجعت جبال نجد لهم صوتاً ولا البيد

وكانت سنة الأدب في كل عصر — بل أكاد استعمل لفظاً أقوى وهو الفريضة — تبدو ضرورية في مطالع الفنون الأدبية ، فاذا غاب شاعر فاتح منحت الأقدار عالم الفكر والأدب والفن فاتحاً جديداً ، تلك هي السنة أو الفريضة الفنية ، وكذلك كانت سيرة الشعر المسرحي بعد شوقي ، فان هذه الأقدار أطلعت في سماء العروبة كوكباً أدبياً ساطعاً هو الشاعر العظيم « عزيز أباظة » وهو لم يظهر فجاءة إلا حين نشر شعره وأماط لثام الصمت عن وجه أدبه ، منذ غاب كوكب شوقي . وحديث فجاءته حدثني بـــه ابن عم له عن تقدمه في الشعر وتفتحه في العبقرية فقال :

— إنه كان يقول الشعر منذ صغره لكنه لم يرض بنشر شعره حتى أوفى على الأربعين .

ورحت لا ألومه فيما كتب عنه الدكتور طه حسين حين قدم للعالم العربي اول أثر من آثاره وهو ديوانه الأول الذي جعله مرثاة لمن كانت تسكن فؤاده .

إذ أن كتابة المقدمات لكتب ليست للمقدم طريقة جديدة هبت عدواها في آثار أدبنا الحديث ، وكنت أوثر أن يكتب الشاعر عزيز أباظة مقدمة ديوانه كما كتب فيكتور هوغو مقدمة روايته الدرامية التمثيلية كرومويل اذ أعلن فيها مذهبه الرومانتيكي وأخذ يهدم النزعة الكلاسيكية القديمة .

وهل من مناخ أجدر من المقدمات يكتبهـــا أصحابها في مذاهبهم الفنية يجعلونها توطئة لكتبهم الجديدة ؟ !

ثم انجلى الأفق عن مشرق عزيز أباظه في شعره المسرحي فأعطى الأدب الحديث مسرحية غروب الأندلس .

لأذكرن بالاعجاب والاطراب مشاهدتي لهذه المسرحية الشعرية الرائعة وقد دعاني لمشاهدتها المؤلف الشاعر . تحت ذلك المساء ، آمنت أن أدبنا الحديث سيغنى بالشعر المسرحي منذ شوقي فعزيز اباظه ومن يجيء بعدهما من الأفذاذ الفاتحين، لأن التجربة كانت ناجحة أيما نجـاح ، وحين عدت الى دمشق أدخلت في منهاج طلاب الشهادة الثانوية السورية قراءة هذه الرواية المسرحية فكانت بين أيدي الطلاب بألوف نسخها يؤدون بها امتحانهم بتوفيق في اللغة العربية وآدابها منذ سنوات .

وتابع عزيز أباظة الاستجابة الى وحي فنه، فكتب مسرحية « قيس ولبنى »جاءت تاليـة لمسرحية شوقي « قيس وليلى » ثم قفى بمسرحية « شجرة الدر » .

وكان من أواخر منتوجه في الشعر المسرحي روايتاه « قيصر » و «قافلة النور » وقد ظهرت الأولى في العام المنصرم .

لقد كانتا لي خير كتابين عكفت عليهما منذ حين ـ إذ تفضل باهدائهما الي والى قرينتي السيدة وداد سكاكيني .

لئن بدأت بالاولى وهي رواية « قيصر » وجدته في اهاب اديب يلقي الاضواء على جراحه ويضحي اليك بها في ضماد . ذلك أنه وجد نفسه يقول شعراً عربياً مبيناً بلغة الضاد لكنه يدير السنة الرومان بهذا الشعر فكأنك تجيء زمنهم في روما عند الفوروم وفي ظلال« القوليزة » .

وتعرض مشكلة ادبية قاسية احب ان احدثه عن مثيل لها كابدهـا

قبله اديب عظيم هو « جان جيرودو » الفرنسي اذ صنع مسرحية سماها (آمفيتريون) قلد فيها رواية (آمفيتريون) الاولى التي الفها القاص اللاتيني القديم (بلوت) في القرن الثالث قبل المسيح ، وكان قد كر الدهر بالشعراء والقصاصين المسرحيين فقلدها (روترو) في القرن السابع عشر ثم جاء بعده (موليير) سيد المسرح الغربي في العصور المتوسطة ، فوضع مسرحية هزلية بهذا الاسم ، وكل واحد من هؤلاء يأخذ عمن قبله وربما أخذ عن سابقه جميعاً حتى كوّن لنفسه المسرحية حسب هواه ورضاه ، ومطلوب زمانه . وكذلك صنع « جيرودو » بآمفيتريون التي سماها (آمفيتريون رقم ٣٨) .

فواجه شاعرنا عزيز اباظة المشكلة نفسها ، ووجد ان لا بد له من اقتباس من رواية قيصر التي وضعها امام الادب التمثيلي على كر العصور (شكسبير) وقد أبان في مقدمته كيف عالج المعضلة التمثيلية في شعرية قيصر ، فقال عن تأليفه لهذه المسرحية الشعرية .

أأقول تأليف عزيز أباظة ؟ تلك إذن جرأة بالغة على شكسبير الخالد بل عليه وعلى بلوتارك العظيم الذي أخذ عنه شكسبير أخذاً ، قيل انه يتخطى الاصول الى التفاصيل .

أم اقول ترجمة عزيز اباظة ؟ كلا ولا هذه ايضاً ، فانك اذا استثنيت مقاطع ومشاهد معدودة في هذا الفصل او ذاك تبين لك أن الترجمة بمعاييرها المعروفة شيء بعيد كل البعد عن هذا الذي وقع

أهي اقتباس اذن ؟ لو قلت ذلك لغمطت نفسي بعض حقها، ففي المسرحية فصل كامل هو — الفصل الاول — قد كتبته من اوله الى آخره ، وفيها الى جانب ذلك من الآراء والحوار والخطرات والتخريج والتنسيق والتغيير والزيادة

والنقص ، فيها من كل ذلك سواء أحسن ام أساء ، ماهو من خالص عملي ، لم أتابع فيه احداً ، ولم أحاك أحداً .»

وكان شوقي يرحمه الله قد واجه المشكلة ذاتها التي واجهها الاستاذ عزيز اباظة حين ألف مسرحيته الشعرية « مصرع كليو باترة » اذ زار رواية شكسبير في هذا الموضوع ونزل عليها ضيفاً غير ثقيل ، ولكنه لم يوضح هذا في مقدمة من مقدماته .

بعد هذا كله يستطيع الناقد الادبي الحديث مهما يغل في التعسف ان يعطى عزيز اباظة « جواز » المسرحية الشعرية التي سماها « قيصر » وان يضمها الى اعماله الادبية الرائعة الباقية على الزمان .

اما مسرحيته الحديثة (قافلة النور) فهي التي اود ان اتلبث عندها كما يتلبث من حل ببستان مونق في مطلع الربيع ، انها تحمل الى الادب العربي الحديث طرفة معاصرة يقوم موضوعها على حوادث عربية قديمة ابان الاسلام .

لقد جعل المؤلف والشاعر المسرحي الحديث الاستاذ عزيز اباظة حوادث (قافلة النور) تدور في ارض مكة في المنظر الاول من الرواية الشعرية في حوار يجول بين هاتف وبين ابليس . ثم يطلع عليك المؤلف الشاعر بمشاهد تتتالى بروعات العرب ومروءاتها وبحكمتها وحماساتها ثم بدينها العظيم الذي طلع من مشارف الجزيرة ليملأ الدنيا . فهذا « منذر » قائد جيش الحيرة في اوائل الاسلام يسأل « اشجع بن حزام » وافد الصحابة من يثرب :

منذر : كيف خلقتما نبيكما ذاك

أشجع: سراجاً يجلو ظلام الحياة

داعياً للجمال والخلق السمح	وصون الحقوق والحرمات
وبشيراً بالعرف والعدل والعفو	ودرء الحـــدود بالشبهات

شارعاً حرمة المساواة ، لافاضل　　الا بالفضل والمكرمات
آخذاً للفقير من سعة الموسر　　في غير غلظة وافتئات

ثم يمر الحوار شعراً مكيناً بعيد الى العربية نضرتها كما في شعر شوقي وعندافذاذ الشعر العربي الحديث .

ويتخلل مشاهد الرواية آيات من القرآن الكريم حسب الحركات التمثيلية التي تجيء بها الرواية . وتمتد حوادث هذه المسرحية الشعرية الرائعة من عهد الرسول حتى تتقدم سبع سنوات فاذا خواتيمها في خلافة الصديق أبي بكر .

لقد أدار عزيز اباظة نظره في الكائنات المسرحية العالمية ؛ واحب ان يطرف دنيا العرب برائعات مماثلات ، وقد أغراه مخرج مسرحياته الفني الاديب « فتوح نشاطي » بأن يضع هذه المسرحية الشعرية الدينية اذ كان يعزم عليه ويقول له :

إن كبار التراجيديين في العالم عالجوا في روائعهم الخالدة ناحية من نواحي الدين .

ثم أغراه بقراءة المسرحية الشعرية (بوليوكت) Polyeucte التي ألفها الشاعر العظيم « كورنيه » Corneille . فعكف عزيز أباظة على قراءتها واكتناه موضوعها ، وعلى الرغم من أنها لم تعجبه ـ كما قال ـ فقد أيقظت في نفسه الرغبة بكتابة مسرحية شعرية دينية ثم راح يقول هذه العبارة المتواضعة :

ما الذي يمنع صغار التراجيديين أن يحاولوا ما حاوله كبارهم ؟ والله جابر المنكسرين !

تلك إذن (قافلة النور) المسرحية الشعرية التي كتبها التراجيدي الكبير عزيز أباظة . فأراك على المسرح العربي مواكب الدعوة النبوية وحملة المشاعل من أجواف الصحاري المرملات وقد رفعوا بها أيديهم حتى أنارت العالم .

★ (الصواريخ والاقمار الصنعية)

تأليف : وجيه السمان
٢٣٤ صفحة من القطع الكبير

الثمن : ٢٧٥ ق.س

★ محافظة السويداء)

تأليف: شبلي العيسمي ، داوود النمر ، حمود الشوفي
مراجعة : عارف الكندي
(٢٠٤ صفحة من القطع الكبير)

الثمن : ٣٠٠ ق.س

★ (الجثة المطوقة ـ الاجداد يزدادون ضراوة)

تأليف : كاتب ياسين .
ترجمة : ملك ابيض العيسى
مراجعة: الدكتور كمال خوري
(١٣٦ صفحة من القطع المتوسط)

الثمن : ١٢٥ ق.س



من فرائد العدسة —

— المعرفة —

— مرآتها الأولى —

مجلة

المعرفة

مع

التيارات الفكرية العربية والعالمية



كتاب الشهر

تاريخ البورجوازية

تأليف: رجين برنو

عرض وتلخيص: اندريه موروا

ترجمة: سعيد القضماني

اخرجت رجين برنو سفرين كبيرين ضمنتهما « تاريخ البورجوازية في فرنسا » انه كتاب في غاية العمق والذكاء . فيه الكثير من العلم والتفقه دون اللجوء الى الضعة في عرض الافكار وزخرف القول . وهو يتسم في مجمله بطابع الموضوعية .

وموضوع البورجوازية موضوع واسع تتخلله الحواجز والفخاخ . فكلمة البورجوازية تثير في النفوس انطباعات شتى ، فهي عند البعض موضع الاشمئزاز والحنق وعند البعض الاخر موضع الاحترام والتقديس . والبورجوازية من جهة اخرى ، من الكلمات التي مازال الغموض يكتنفها وتحتاج الى مزيد من التوضيح والتعريف.

واذا عدنا الى علم اشتقاق الكلمات نجد ان البورجوازيين هم سكان المدن حسب لفظ الكلمة. اما من الناحية الاقتصادية فان البورجوازي هو الذي لايكسب قوته يوماً بيوم ، بل هو الذي لديه فضلة من مال . ولكن هناك **«فقراء يظلون بورجوازيين واغنياء ليسوا من البورجوازية في شيء »** فهل يتصل الامر اذاً بطرائق العيش والاصل الاجتماعي وفلسفة الحياة :

اما الفيلسوف آلان Alain فيطلق صفة البورجوازي على كل من يعيش من « الاقناع » كالكاتب بالعدل والمحامي والاستاذ. اما الكادح (Prolétaire) فهو الذي يكسب حياته من ممارسة « العمل » كالنجار والنساج والفلاح . ويستنتج من هذا التحديد **ان السياسي هو دوما رجل بورجوازي ،** وحتى ولو كان ماركسياً . **ويدخل الفنان في زمرة الكادحين** اذا كان فنه من القوة والروعة بحيث لايمارس الاقناع لكي يكسب قوته . وامين سر النقابة حسب هذا المفهوم بورجوازي ايضاً . وكذلك منظم الحفلات الجنائزية لانه يكسب قوته عن طريق الاشارات . والكاهن والكاتب بالعدل يأتيان في طليعة قائمة البورجوازيين . ومع ذلك نجد ان الحدود بين مفهومي الاقناع والعمل لم ترسم بوضوح . فيمكن اعتبار الجراح من الكادحين لانه يكسب حياته من مهارة وفن انامله . وهو بورجوازي ايضاً بسبب اضطراره لكسب الالقاب العلمية والظفر بالزبائن .

لقد جاست رجين برنو تاريخ فرنسا لتبحث عن مفهوم واضح محدد للبورجوازية . واوضحت انه في عصور الاقطاع عندما كان الاسياد والفلاحون يعيشون معاً على ارض واحدة بشكل مستقر ، ظهرت عندئذ طبقة من البائعين المتجولين جذبتها اجتماعات الحجاج ثم اخذ هؤلاء البائعون يستقرون في المدن . وكان يتم اتحادهم وتجمعهم في يسر وسهولة يستعصيان على اتحاد وتجمع الفلاحين. عقلية القافلة هي عقلية التعاون . فالمدينة تخلق القواعد والضوابط ، وتسمي الرؤساء . كما تظفر « بحريات » اي بامتيازات . وسكان المدينة يعملون متساندين من اجل دعم هذه الحرية والحفاظ على الامتيازات .

البورجوازيون الاوائل كانوا يعيشون عن طريق تبادل السلع ، فهم ينشدون اذاً الحصول على المنافع ، ولكنهم كانوا يمارسون اقتصاداً

« صالحاً وشريفاً » كان همهم تجميع الثروات ولكن ليس على حساب راحتهم وطمأنينتهم. كانوا يوهمون بغير وجه حق بانهم منهمكون في عالم القواعد والاسفار وهم بالحقيقة ينشدون الصالح العام . كانت الكنيسة تحرم عليهم تجارة النقد والاقراض بالفائدة ، وكان العرافون في ذلك الوقت من اللمبارديين واليهود « فجو » القرون الوسطى كان يتطلب من الجميع شيئاً من الشهامة والفروسية .

ولم يكن بناء الكاتدرائيات الفخمة في مدن ذات امكانات محدودة ، لم يكن هذا البناء بالمستطاع الا بسبب البورجوازيين واريحيتهم . وفي كثرة منشآت الاحسان من الملاجىء والمياتم في مدن القرن الثالث عشر مايثير الدهشة ولم يكن البخل ليتسرب الى الحياة الدينية في ذلك الزمن .

على أن شيئاً لايمكن أن يدوم . فلم يمض طويل وقت حتى اخذ « مفهوم العلاقات **الحقوقية يحتل مكانه بدلا من مفهوم العلاقات الصافية التي كانت تربط بين الخالق والمخلوق** » . وظهر عندئذ على واجهة المسرح طراز جديد من البورجوازي (وما زال يشغل هذه الواجهة حتى الآن) وهو البورجوازي المتشرع . اننا نجد ان عدد القضاة والمحامين ورجال القانون آخذ في الازدياد . ثم ان تجديد الحقوق الرومانية بدلت من عقلية المجتمع . كان الناس يتحدثون في القرون الوسطى عن الشرف والايمان ، اما الحديث في عالمنا الجديد فيدور حول العقود والاتفاقات . كان الفارس يحترم المرأة ويبالغ في اكرامها . اما البورجوازي فتطربه القصص الاسطورية والفكاهية التي تعامل المرأة فيهامعاملة تخالفها القسوة والخشونة . ثم ان تجديد الحقوق الرومانية افضى الى الاعتراف بالقصور الحقوقي للمرأة والى تأكيد سلطة الاب المطلقة في الاسرة ، وكذلك اكدت هذه الحقوق حق الملكية المطلق . ومن هنا نشأت طبقة من البورجوازية الجشعة المحبة للدعاوى والمنهمكة بقضايا الارث والوصايا ، واننا لنجد كثيراً من روايات بلزاك قد استمدت موضوعاتها من اوضاع المتشرعين الرومان والفرنسيين .

لقد بدل امتلاك الارض في ذلك الحين من مفهوم الاخلاق عند الناس . فلم تعد الارض ، بنظر بورجوازي القرن السادس عشر هي « الارض التي تفلح والتي يكسب قوته منها ، بل اصبحت ملكا تستغل من اجل كسب المال . » وقد وصف المؤرخ الكبير مارك بلوش هذا التطور وصفاً شاملا صادقا . كان النظام السائد زمن الاسياد والعبيد والمطبق على الارض ، هو النظام القائم على حقوق العرف والعادة ، فللفلاح حقوقه ولصاحب الارض حقوقه ايضا . ثم سيطرت بعد ذلك ، مجموعات الحقوق الرومانية **واصبحت الملكية « حق استعمال وحق اساءة الاستعمال »** وكان علينا ان ننتظر القرن العشرين حتى تحرم الدول ، بكل تواضع واستحياء ، مس حق ملكية الارض المقدس بأذى ، هذا الحق الذي لم يكن له في القرون الوسطى اي مفهوم .

وهناك موضوع آخر جاء به القرن السادس

عشر : « هل أثرت حركة الاصلاح الديني على الرأسمالية ؟ وهل تأثرت هـــذه الحركة نفسها بالرأسمالية ؟ اما كارل ماركس فـيرى ان حركة الاصلاح الديني ، وهي وليـــدة الرأسمالية كانت طريقة بورجوازية لفهم الدين . امابالنسة للآخرين فان هذه الحركة قد اجازت قيام المصارف الكبيرة لأنها ابا‌حت تجارة النقد . وكانت كلمـة الفائدة المرتفعة حتى ذلك الوقت ، لاتختلف عن كلمة الفائدة ، ولكن منذ حركة الاصلاح الديني اخذت تدل على الربا الفاحش وسوء الاستغلال يقول كالفن « يجب مراعاة المصلحة المشتركة » وقد اجاز القروض بفائدة معقولة وتأسس بذلك المصرف البروتستانتي الكبير . وعندها اصبح لصاحب المصرف وجدان وداخله الاعتقاد ان باستطاعته الكسب في الدارين . في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة .

واصبح ، من جهة اخرى ، تقديس العمل كغاية تقصد لذاتها من الاسس التي تقوم عليـها العقيدة البروتستانتية وكانت الفضائل الاقتصادية من التفاني وحب النظام والتوفير وصدق المعاملة كانت السبب في ازدهار المجتمعات البروتستانتيـة في انكلترا وفي الولايات المتحدة ، وهذه الصفات تتعارض مع « مفهوم الآية للكنيسة الكاثوليكية في القرون على ان التاجر الكاثوليكي اخذ ،هو ايضاً ، يعتاد على الملائمة بين متطلبات الدين والدنيا .

وهكذا نجد في مطلع القرن السادس عشر طبقة بورجوازية تتمتع بالثروة والقوة ولها فضائلها الخاصة كما ان لها من نشدان النفع والبحث عن الطمانينةخارج اطار الدين، وحب الاسراركم القلق ،ذلك ان البورجوازي ربط وجوده بالمال ، وليس المال كالارض التي توجد رابطة وشيجة مع ديمومة الزمن . ومن هنـــا جاء الاختلاف بين الأسر البورجوازية والأسر النبيلة ، فالأسر النبيلة تحتفظ باستمرارها وتكرارها بمجرد الولادة، اماالأسرالبورجوازية فزائلة موقوتة . فجيل منها يجمع الثورة ، وآخر ينتفع منها ويأتي جيل ثالث ليجد السقوط والانهيار ويبحث كبــار البورجوازيين عن علاج لهذا السقوط بواسطة مصاهرة الأسر النبيلة اوتوظيف المال في شراء الارض . وبذلك يلقون مراسي ميا كيهم القلقة التائهة . على ان طريقة امتلاكهم للارض لاتشبه طريقة امتلاك الاقطـاعي ، فهذا ينشد استثمار الارض واستغلالهـــا ، اما البورجوازي فيمتلك الارض حباً في التملك وهو دوماً في خشية من فقدانها ويغدو بذلك محافظاً منكمشاً . ومن هنا جاءت نقطة الضعف في طبع البورجوازي الفرنسي وهمـــا الخوف من المخاطرة ونقص الاندفاع وظلتـا في طبعه حتى عام (١٩٤٥) .

●

لقد لاحظت رجين برنو ، وملاحظتها صائبة « اننا حينما نمر من كنيسة نوتردام باريس الى رواق متحف اللوفر نشعر اننا نقف امام فرنسا اخرى وامام شعب آخر » . ان العصر الـكلاسيكي قد اقام عن طيبة خاطر من القصور اكثر مما شيد من الكنائس . وقد أخضع هندسة

البناء الى القواعد الكلاسيكية شأنها في ذلك شأن الأدب في ذلك العصر ، هذه القواعد التي تلتزم التناسق والتلاؤم بين النسب والابعاد . فالفن المعماري في العصور الوسطى كان يتجاوب مع الضرورات الملحة الملموسة ، اما في القرن السابع عشر فقد تجاوب الفن المعماري مع ضرورات الديكور المجردة الغامضة . فالقرن السابع عشر بنظر رجين برنو ، قرن بورجوازي ، فلئن كان النبلاء يحتكرون وظائف القصر ومهامه فان كولبير ولوفوا همـا اللذان كانا يسيران شؤون الدولة .

والأدب الرفيع ، اذا استثنينا لارشفوكولد وفنلون ، كان أدباً بورجوازياً . التجريد الكلاسيكي يرضي البورجوازي الذي ألف تجريد اعمال المال . فلا شيء أبعد عن مفهوم الفروسية كنظرته الى المرأة والحب . وأخيراً جاء ديكارت فخلع على البورجوازية الفلسفة التي كانت في حاجة اليها ، وهي فلسفة الرجل الشريف الذي لايؤمن الا بما يدرك ويفهم (عندما يتصل بشؤون العقيدة والدين) « **فسيادة العقل منحت البورجوازية الاطمئنـان الفكري والخلقي ، وهذا ماكانت تفتقر اليـه حتى ذلك الزمن** » حتى ان عالم العواطف والمشاعر والفن خضع ، هو نفسه ، في المسرح الكلاسيكي الى القواعد والنظام ، وعندها شعر البورجوازي انه في حماية واطمئنان .

* * *

هذا خلاصة ما اشارت اليه الكاتبة رجين برنو . وفي اعتقادي انـه بالامكان بسط بعض الاعتراضات . ان موضوع « اميرة كليف » موضوع يتصل بالفروسية . ثم ان لراسين اسراره وغموضه . وديكارت ، الفارس الفرنسي ، «ذهب « بخطى ثابتة » يشارك في الحروب ويمتـدح الشهامة والفروسية . اما باسكال فهو الرائـد الأول للروائيـين الذين التزموا مذهب عبث الحياة وبطلانها . ولست هنا في مجال الاعتراض بل في مجـال البسط وعرض الآراء . فلنتقبل اذاً هذه الظاهرة وهي أن طابـع الحضارة البورجوازية الاهتمام بقيم العقـل والكمية على حساب مجافاة عالم الخيال والاحاسيس ، وقد ساد اتجاه هـذه الحضارة القرن الثامن عشر . فكان فلاسفة ذلك العصر فلاسفـة متفائلين يؤمنون بالتقدم الذي يحققه العقل . وفلسفتهم هذه تتلاءم مع المجتمع البورجوازي ذلك ان البورجوازي يعتقد بانه يصنع حياته بنفسه صنعاً . فهو يسعى في الارض ، ويكثر المال ، ويبعد عنه القوى الخفية ، فالبورجوازي في قرارة نفسه ضد الكهنوت وعالم الغيبيات . **ويمكن أن نأخذ فولتر المجنون بقيمة العقل**، والمتلىء حيوية ونشاطاً ! والسعيد بكل شيء ، يمكن ان نأخذه نموذجاً حقيقيا رائعاً تتجسد فيه صفات هـذه البورجوازية . ولكنه يتألم ، كما تتألم البورجوازية من امتيازات النبلاء وسفاهة الاسياد ، كما يسخط على سياسة البلاد في حكم لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر لأنهـا تقصر الوظائف الكبرى على الطبقة الاستقراطية . «فبورجوازي

عام ١٧٨٨ امرؤ مغـــلوب على امره معزول عن المجتمع . »

ثم نجد ان الثورة الفرنسيةالتي تمناها ، في البدء البورجوازيون الكبار ودعمها النبلاء الاحرار قد سقطت بعد ذلك بين يدي صغار المتشرعين. وقد رغبت البورجوازية في انهاء الثورة في ١٤ تموز او في (٤) آب سنة ١٧٨٩ . وعندما قاست اهوال عهد الارهاب لجأت الى بونابرت لتستخدمه كي يضع لها حداً. ومن الجدير بالاهتمام ان نشير هنا الى اننا نجد مرة اخرى في الحكم رجال المال في سنة ١٨٣٠ (حتى اننـا نجد احياناً الرجال انفسهم : pêrier. Leeoultenx Holtinguer . Mallet وقد رفع هذا العهد البورجوازي الى السلطة التي ظلت تحتفظ بها قرناً ونصف القرن .

على أن عودة الملكية وظهور الرومانتيكية قد اوقفت لفترة محدودة اتجاه هذا الخط . فقد اخذ الشبان يعرفون البورجوازيين! **وبدأ اندفاع الرومانتيكية المفاجيء يقلب المفاهيم ويعيـــد النظر في القيم السائدة ،** فالمكانة السامية التي ظفر بها الشعراء امثال (هوغو ولامارتين وفيني وموسه) لم تكن لتسيغها عقلية البورجوازي ، ولكن هذه المكانة التي احتلها الشاعر ضعفت في النصف الثـاني من العصر . **واصبح الشعراء الرومانتيكيون هم انفسهم بورجوازيين بحكم وضعهم الاجتماعي ومـــا جمعوا من ثروات .** لقد مات هوغو غنياً . ومن جهة اخرى فقد شهد نهاية هذا العصر انتصار اشد الرسامين والكتاب بورجوازية . وقد جهل بودلير ومالرمه مجدهما العظيم .

* * *

وأرى ان هذين الجزأين من الكتاب ينقصهما جزء ثالث (وآمل ان تعمد رجين برنو الى تأليفه في المستقبل) وذلك لتوضيح البورجوازية بعد الحربين . واعتقد انه يلاحظ وجود بعض الصفات الجديدة الـتي طرأت على البورجوازية كحب المغامرة وبعد النظر والاريحية، ذلك ان الهزات المتعاقبة قد حتمت هذا التبدل بعد أن قضت على مفهوم الاستقرار . لقد ازدادت قوة الدولة وتوطد سلطانها. **ولم يعد بامكان البورجوازية الجديدة ان تمـــارس مبدأ الحرية الاقتصادية المطلقة** . ولقد قالت رجين برنو حقاً عندما اشارت الى نظرية ماركس : « عهد البروليتاريا سيخلف عهد البورجوازية كما خلفت البورجوازية الاقطاعية » وقالت عنها انها نظرية لايقبلها اي مؤرخ .

واعتقادي ان الديالكتية التاريخية لايمكن ان تقف عند حد، وان المجتمع المقبل ،عدا بعض الهزات، **سيكون جماعه الوفاق بين الحرية الاقتصادية والاشتراكية. وهذا الوفاق الوسط نلمسه ان في الولايات المتحدة او في اوربا .**

وفي عالم الادب والفن ، اضـــاع الفكر البورجوازي والعقلي لفلاسفة القرن الثامن عشر الكثير من الارض التي كانت في حوزتـه . فلم يثبت التفاؤل والايمان والتقدم امام العديد من الفواجع وقد أشار الكتاب من مالرو الى كامو

ومن شتنيك الى همنواي ، اشاروا الى عبث وبطلان المصير الانساني ، وتستشهد رجين برنو عالرو عندما تقول : « **نحن جميعاً عملنا باندفاع وغبطة على تنمية خلافاتنا بدلاً من ان نعمق تقاربنا واتحادنا ، ونحن جميعاً اغلقنا ، بحركة واحدة ، خزائننا وقلوبنا ومنازلنا ..** »

وفي الواقع ، اذا اعترفنا بعظمة بعض مظاهر الحضارة البورجوازية (كاحترام العمل وحب الحرية) فيجب الاعتراف ايضاً بأنها صفات منطوية جد « مغلقة » ، اما الآن ، فقد رفعت الحواجز ، وفتحت الجامعات ابوابها امام جميع الطبقات ، وأخذ الصناعي يستقبل العالم في مصنعه وبدأ العامل النقابي يتفهم مجرى الحوادث وسير الأعمال . وأخذت اللوحات الجريئة تزين الجدران البورجوازية ، **وبدأ كل شاعر رجيم يستعيد مكانته وقدسيته** ، وتلاشت بعض الملامح البورجوازية ولكن كيف يستطاع الركون الى الاستقرار في عالم يتبدل فيه كل شيء بسرعة فائقة : النقد ، والعلم والمبادىء . وكيف يمكن الحفاظ على سرية الاعمال في عصر الضرائب المطروحة على الدخل وعلى اعلان الارباح المراقب ؟ فالى أين يلجأ الفن البورجوازي ؟

نعم ، يجب على رجين برنو أن تخرج لنا جزءاً آخر من كتابها بعنوان « **نحو نظرية للبناء** » .



الأدب العربي
المعاصر ..
في
جامعة الجزائر

أستاذ الأدب العربي بجامعة الجزائر

الحديث الفكري القيم الذي افتتح به الاستاذ سعد الدين بن ابو شنب ، تدريس مادة الادب العربي في جامعة الجزائر ويسر المعرفة ، أن تتلقى من الاستاذ الكريم ، حديثه هذا ، الذي خصها به وترجو ان تستطيع في اعدادها القادمة متابعة الحركة الادبية والفكرية عامة في الجزائر العربية بقلم كبار كتابها .

تتضمن براجمنا دراسة الادب العصري منذ عشرين سنة وهذه الدراسة في نظري واجبة لوجهين : الاول هو أن جهل عصر من عصور الادب نقص في الاديب وخلل في ثقافته . فشرط الاديب ان يلم بالادب الماما اذا أراد ان يكون في فنه وبين قومه اماما . والثاني هوان من العبث بل من الحمق ان نضرب صفحاً عن آلاف من المؤلفات المختلفة من نثر وشعر لاتقل قيمتها في كثير من الاحيان عن قيمة مخلفات القدماء . فلا ننسى ان الادب الحديث هو الادب الحي بل هو الادب الذي عبر به جيلنا عن حياتنا وأوضح فيه المشاكل المعارضة لنا في زماننا هذا ، عارضاً لنا حلها ، ومظهراً لنامكنونات نفسه واسرار قلبه اذ يقتضي التضامن الانساني ان نصغي الى اصوات معارضينا ونسمع اقوالهم ونتأمل قضاياهم ونتألم لآلامهم كما نأمل آمالهم والا كنا امواتاً بين الحياة.

أفتتح دراسة الادب العربي الحديث بعجالة لابد منها موضوعها تاريخ الادب ببلدنا الجزائري وقبل ان اشرع في هـــذا الميدان ينبغي ان أبدي لـكم بعض الحجج الداعية الى اختيار هذا الموضوع ؟ **فالحجة الاولى يوجبها العقل ،** ولما كان الانسان يؤثر معرفة بلده على معرفة بلادغيره فن المعقول أن نبدأ باكتشاف نواح جديدة من الادب العربي بالادب الجزائري مهما كانت قيمته لانه اقرب الينا من غيره .

والحجة الثانية هي اننا نجد في تاريخ اللغة والادب ببلدنا صورة تمثل لنا بكل صدق مصير الادب في سائر البلاد العربية .

والحجة الثالثة هي اننا نعتراثناء دراسة الادب ببلدنا على نفس التيارات والاتجاهات التي يتميز بها الادب العربي عامة .

اما الحجة الرابعة والاخيرة فهي ان البحث بهذه الكيفية يمكننا من معرفة انفسنا وحقيقتنا ومعرفة حقيقة الانسان غاية الادب المنشودة . وفائدته المقصودة فان لم تكن حقيقـــة الانسان غاية الادب وان لم يكن هـــذا الهدف غرض الاديب فلا فائدة في الاديب ولا فائدة في الادب ولا معنى وصلاح . اذاً يكون حديثنا هـــذا عن الادب الجزائري وينقسم الى قسمين اثنين فصلهما منتصف القرن الثـــالث عشر للهجرة الموافق بالتقريب لما قبل منتصف القرن التـــاسع عشر الميلادي اى كما ترون حوالي الاستيلاء الفرنسي على بلدنا .والان نلتفت الى الماضي لنقف على بعض مظاهره الجلية ووجوهه الحقيقية واتجاهاته الرئيسية .

فاذا تأملنا قليلا نفثات الاقلام وآثار الاعلام في غابر تاريخ بلدنا واذا اخذنا نبحث عن مميزات تلك الآثار رأينا ان السلف قد بذل جهوده في **نواح ثلاثة من العلوم الادبية هي اللغة والتاريخ والشعر .** فمن تصفح كتب الادب والتاريخ القديمة واطلع على الحياة الثقافية من القرن الثالث للهجرة الموافق للقرن التاسع بعد ميلاد المسيح ثم انتقل من قرن الى قرن الى ان يصل الى القرن الثالث عشر للهجرة الموافـق للقرن التاسع عشر الميلادي شاهد اهتمام الادباء بدرس اللغة وقواعدها في المـكاتب والمدارس والمساجد بقواعد المالك

وبالمدن الصغيرة وبالعواصم وبالقرى (بتهارت وبجاية وبقسطنطينة وتلسان وبالمسيلة والجزائر).

كانت دراسة النحو والصرف واللغة وأصولها محل العناية والاهتمام عند الخواص والعوام، يدل على ذلك عدد لا يحصى من المؤلفات في هــذه الانواع من العلوم .ولو فتحت مثلا كتاب (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية) لأبي العباس أحمد الغبريني وقرأت فقرات قليلة لدهشت لكثرة التآليف في علوم اللغة بجميع أنواعها وهذا الاهتمام باللغة لا يختص به علماء الجزائر وأدباؤها بل هذا الاهتمام والحرص على الالمام باللغة من خصال العرب العريقة الدائمــة الملحوظة في جميع العصور والاقطار منـذ نشأت هذه العلوم في القرن الاول للهجرة الى النهضــة الادبية الاخيرة في القرن الماضي والى يومنا هذ بهذا البلد .

كان الغرض من دراسة اللغة ادراك معاني القرآن وفهمها . بيد ان ذلك الغرض لم يكن السبب الوحيد فـكان سكان الجزائر يعلمون ان اللغــة شبه صلة رحم لاصقة بهم وبعرب الجزيرة فــلو اهملوها قطعوا الاسباب بين موطنهم الاصلي وبين موطنهم الجديد فما كانوا يزيدون ذلك الانقطاع ولاذلك الانفصال فمحافظتهم على اللغة كانت ضمان عروبتهم وكفالة ارتباطهم بسـائر الملة الاسلامية والعالم العربي ، فلو اضاعوها فقدوا في آن واحد ثقافتهم وشخصيتهم وهلكوا وكانوا يعتبرون اللغة روح حياتهم وجوهر كيانهم ولهـذا حافظوا على الجوهر النفيس وحافظوا على الروح .

قلنا ان لاهل المغرب الاوسط ولوعاً غريبــاً بالتاريـخ وان للغة نفوذاً كبيراً ، فعدد المؤلفين في هذا الفن ليس بقليل ولقد نال بعضهم شهرة عالية مثل من سميت باسمه هذه القاعة ولكن ليس ابن خلدون منفرداً بل هناك رجال كثيرون واظبوا على تقييد الحوادث وتسجيل الاخبار كل المواظبة ، ذكرت آنفاً الغبريني وابن خلدون ويجــدر بنا ذكر آخرين منهم ابن صغير مؤرخ ائمة تهارت وابو زكرياء ويحيى بن خلدون اخو عبدالرحمن ابن خلدون صاحب المقدمة وابن مريم وابن قنفذ القسنطيني والتنسي . ولنتساءل ايضاً عن علة ذلك الميل الى التاريـخ فالجواب هنا عن وظيفة هذا العــلم فليست هذه الوظيفة ذكر الرجال والحوادث فحسب بل مهمة التاريـخ ابقاء الامة على اصولها حتى لا تعدل عن طريقها فكلما عرض لها عارض او اصابتها مصيبة قرأت الامة تاريخها ونالت من تلك القراءة عزمــاً جديداً وقوة شديدة

فكأن التاريخ « بوصلة » تحد الامة لنظر اليهـا ا حادت عن الطريق او حارت عند مفرق الطرق حتى تثبت في مسلكها وتسير الى الامام مطمئنة وطيدة

اذاً لعـــلم التاريـخ نفوذ كبير في تطور الامم ولهذا كان العرب ولازالوا يعظمونه تعظيما.

والان نتناول القسم الثالث من موضوعنا اي الشعر فلا لزوم لذكر شأنه عند العرب وذكر مقام الشاعر عندهم فنكتفي بان نقول ان الشاعر كان يحتل عندهم مكانا مكينا وذلك ما نقف عليه اذا ما اطلعنا على الكتب الجزائرية القديمة فهي مملوءة بالقصائد والقطع الشعرية مشحونة بأخبار

الشعراء لان الشاعر لسان حال الامة يعبر عن شعورها ويعبر عما في نفسها عندما تعجز هي عن التعبير . يقدم الشاعر لامته مثلها الاعلى ويؤدي اليها رسالتها فشعره يسير بسرعة عجيبة الى اقصى انحاء العالم يذيع الاخبار وينشر المبادىء ويقوم في غالب الاحيان مقام الداعي السياسي فالشاعر يكون فى مقدمة القادة المفكرين ولاجل هذه القوة الكائنة في الشاعر ترى الملوك والامراء يقربونه تارة ويغرونه اخرى أو يبغضونه ويبعدونه وعلى كل حال فان للشعر عندنا نفوذ لامثيل له عند الامم الاخرى . وفي ختام هذا الفصل الاول من دراستنا نرى في خلاصته ان الادب لم يأل جهدا لتسلك الامة مسلكها كما نرى ان الاديب قد سعى لتأدية رسالته . وفي العصر الحاضر ماذا وقع وماذا يقع في عالم الادب والادباء؟

هجم الفرنسيون على بلدنا زاعمين انتامتأخرون جاهلون همجيون فأخذ مؤرخوهم يصفوننا بهذه الاوصاف القبيحة والحالة عكس ذلك . نعم كان الحكم في عهد الاتراك قد تلاشى واضمحل ولكن الشعب بقي سالما بريئاً من تهم المستعمرين ولقد شهد اكثر من واحد من الضباط الفرنسيين المبعوثين في مأمورية سرية ان عدد الجزائريين الاميين في ذلك الوقت كان اقل من عدد الاميين في الجيش الفرنسي اضعافاً مضاعفة . والامر الواقع هو ان العلماء والادباء والشعراء كانوا قائمين بواجبهم نحو الامة وفي المكاتب والمدارس وفي الزوايا كانوا يحافظون على اللغة وعلومها بقدر الامكان في ذلك الاوان وبفضلهم نجا القبس الثمين فاخذته من ايديهم فيما بعد جماعة عاشت حول غرة القرن العشرين منها الشيخ عبد القادر المجاوي ومصطفى بن خوجه ومحمد السعيد بن ذكرى والشيخ الحفناوي ومحمد بن ابي شنب وابو بكر بن شعيب والشيخ الميهوب وآخرون جزاهم الله عنا خيرا .

وبعد الحرب العالمية الاولى بقليل خلفهم جيل آخر بل جيش تحت راية الشيخ عبد الحميد بن باديس فأسست الجمعيات بجميع أنواعها من خيرية وتأديبية وتعاضدية ورياضية وفتحت المدارس والمعاهد وقام الخطباء أمثال العربي التبسي والطيب العقبي والابراهيمي بارشاد الامة وتنظيمها واحيائها وألف المؤرخون امثال الشيخ المبارك الميلي واحمد توفيق المدني وعبد الرحمان الجيلاني كتباً كشفوا بها للأمة عن ماضيها وعرفوها بحقيقتها وأظهر الشعراء لها كيانها ودلوها على الطريق ولم ينفك الشعر في هذه الثورة المباركة ينفخ الروح الوطنية في الشعب.

وهكذا لم يزل الادب واللغة والتاريخ والشعر قوام الحياة بهذه البلاد الحية .

ان بلدنا تحمل انقلابات سياسية عديدة وقد حلت به سلسلة طويلة من النكبات منذ فتحه طارق بن زياد الى يومنا هذا وعلى الرغم من تلك التقلبات في الماضي البعيد عنا او القريب منا ما تمزق بلدنا الا ظاهراً وعلى الرغم مما قاساه شعبنا من نوائب الدهور ومظالم ارباب الحكم على ممر العصور ما تجزأ الا سطحياً فما انشقت عصانا وعلى الرغم من التفريق بل من التمزيق الذي سعت اليه الدول المتداولة علينا وربما نال منه بعضها فان هذه الامة لم تنقسم ولم يتشتت شملها بل بقيت سالمة واحدة

فالأسمنت الذي حفظ هذه الامة من الاندهام والخراب والاندماج هو الاستمرار على حب اللغة والادب والتاريخ والشعر .

الشعر

كيف نفهمه ونتذوقه

بقلم « اليزابيت دور »

ترجمة الدكتور محمد ابراهيم الشوش
منشورات مكتبة منيمنة ــ بيروت

العربي بطبعه طروب للشعر ، لانه لم يكن يملك من متع الفن سواه . وهو ، بطبيعة صحرائه وحياته ، يميل الى هــذا الفن ، حيث تدعوه الصحراء ، وتغريه الوحدة والوحشة بأن يردد صوته ويستمع الى صداه . وليس كالشعر يحقق هذا الغرض .

ولذلك لم يكن العربي في حاجة الى من يبث في نفسه محبة الشعر وتذوقه ، لانه يتذوقه بطبعه وطبيعته .

ولكن ، اما وقد تعقدت الحياة ، وكثرت مشاغلها ، وتداخلت صور الفنون ، وغلب شيء على شيء فلننظر الى اية مرحلة وصل الشعر ، هل اصبح في حاجة الى البحث عن مواطن التذوق فيه



عرض وتحليل خليل الهنداوي

يبدو لي أن شعرنا الذي ورث النبرة الاجتماعية واللهجة الخطابية لايزال يجد صداه في النفوس ، بدليل سيطرته على كل مهرجان فني .

وهو ــ على رغم منافسة النثر له ــ لايزال يجد له آذاناً مستمعة ، واذواقاً تميل اليه . ولكن الى اي مدى يبقى هذا الذوق قائماً ؟

ولكن حكمنا على الشعر في ادبنا لاينطبق على الحكم على الشعر بصورة عامة ، فالنقاد اصبحوا يخشون على منزلة الشعر في آداب كل امة ، لان قراء الشعر ، والمقبلين على تذوقه يقلون يوماً بعد يوم . فما هو مصير الشعر كله في العالم ، بعد ان توسعت آماد الحياة ؟

لقد بات بحكم المفروض ان الفرد يبدأ بالشعور قبل التفكير . وعلى هذه النظرة بنى النقاد نظرية

اسبقية الشعر على النثر . فالشعر اولا ، ثم النثر ... ثم يبدأ النثر ينافس الشعر على مملكته ، لانه اطوع اداة ، واوسع مجالا للتعبير عن افكار الانسان . والآن ، طغى النثر على الشعر - حتى في ادبنا - بما استحدثه من فنون جديدة ، واغراض واسعة اكثر اتصالا بالحياة والفكر . على ان الشعر لم يرد ان يعترف بالهزيمة فهو يريد ان يتكىء على النظريات النفسية الفلسفية لتجديد كيانه ، وبناء عالمه ... وهو يجرب ان يهرب كثيراً من عالم الظاهر والحس الى عالم الباطن والنفس ، كأنه بذلك يريد ان يغري العقول . وفي الوقت ذاته لايزال يصطنع المغريات الفنية والشكلية والصوتية للابقاء على سحره العجيب .

من ثمرة هذا الخوف نهض في هذا الصراع محبون للشعر ، وآسفون على عالمه ان يزول ، ليمكنوا من دولته ... ومن هؤلاء المحبين الكاتبة الانجليزية « اليزابيت درو » التي اشتغلت في قضايا الشعر ، والشعر الحديث بصورة خاصة فأعطت كتابها « الشعر » كيف نفهمه ونتذوقه وجعلته في جزئين : الجزء الاول يتناول صناعة الشعر . والجزء الثاني يتناول الشعر وموضوعاته الانسانية .

اما الجزء الاول فقد وقفته على الشعر والشاعر والشعر والقارىء ، ثم مايحتاج الشعر الى زخارف لفظية وجمالية . واما الجزء الثاني فقد اجملت فيه الموضوعات الانسانية التي تتردد في الشعر . ان الفن — ومنه الشعر — يحتاج اليه الانسان دائماً كما يحتاج الى وسائل الحياة . لانه مظهر للرغبة الملحة في تحقيق الذات من خلال الفن .

وشعور الانسان ينمي مدارك جديدة ، ويثير عديداً من التعقيدات وذلك لان مقاييسه تختلف باختلاف الزمان ، وان ظلت الحقيقة ثابتة لاتتغير اذ مامن احد يمكن ان يرهق نفسه بالاطلاع على ادب الماضي ان لم يجده على الدوام ينير جوانب حياته الحاضرة . وقد مر الانسان عبر القرون بنفس التجارب العاطفية والاخلاقية والمادية ، وتناوبته احاسيس اللذة الطاغية والالم ، ومرت به لحظات النصر والهزيمة والعظمة والخيبة ، وواجه عين المشاكل الانسانية ، وظل يسأل نفس الاسئلة :(والشعر اقدم ضروب النقل والتوصيل ومايزال اكثرها تحديا وتركيزاً بالنسبة لفنون الادب الاولى كما ان استعماله للالفاظ اكثر دقة وغنى وقوة من النثر . وهو يحتل بلا شك جانباً كبيراً من تراثنا الادبي ولكن المتشائمين اليوم يشعرون بالاسى لمصير الشعر . فهم يعلنون انه لم يعد مثلما كان . (ومصدر شكواهم ان الشعر انما يكتب الآن لنفر قليل من المتخصصين . وان القارىء العادي لم يعد يشارك فيه او يتجاوب معه. وان تذوق الشعر ، نتيجة لذلك ، اضمحل واصبح ظلا لما كان) وقد كان يمكن ان نجد مسوغا لهذا التشاؤم لو ان الرجال والنساء امتنعوا عن قرض الشعر ، لكنهم لم يفعلوا . ورغماً عن كل مانسمعه عن اثر العقم الفني الناتج عن هذه المدنية ، وقيمتها المادية لم يقل الانتاج الفني ولم يتوقف فالشعراء مازالوا ينظمون الشعر ، والرسامون والموسيقيون لم ينضب انتاجهم ، لانهم جميعاً يحسون في انفسهم بهذه القوة الخلاقة التي تحثهم.. وهذا هو الفن نتج تحت كل الظروف ...

وهذا هو الشعر نظم في ظل الانظمة الملكيـة ، والديمقراطية والديكتاتوريـة ، وفي عصور الاضطهاد وفي ظروف الحرب والسلام . ونظمه الامراء والفلاحون والعلماء والعامة ، والنسـاك والدنيويون ، والثوار والمسالمون ، والعقـلاء والمجانين .

ولعل هذا الشاعر « اشوقنسي » في اواخر القرن التاسع عشر يبدي قوة الفن اذ يقول:

نحن صانعي الموسيقى
ونحن اصحاب الاحلام
نهيم على سواحل البحار المقفرة
ونجلس بجانب الغدران المهجورة
وقد غبنا عن العالم وهجرنا ملذاته
وعلينا يسلط القمر الشاحب اضواءه .
ومع ذلك ... يبدو اننا سنظل نحرك العالم
ونهزه الى الابد ...

والشاعر انما يحس بان فنه ينبع من مصـدر داخلي خصب يغذي نفسه ، وهو لا يحتاج الى قداحة ، او صاعقة لتثير لهيبه . لديه طاقة حيوية وان كانت كامنة هادئة . تشبه التيار الذي يستمر به الجري في وجه كل العقبات الخارجية . وليس يعني ذلك ان التأليف الشعري نفسه عملية هادئة ساكنة ... اذ لا يمكن ان ننسى في هـــذا المجال ما اسماه « اليوت » الالام التي تصحب عملية تحويل الدم الى حبر »

والشعر ، مهما كانت عمليـة توليده ذاتية ، فهو كالفن عملية انسانية فحواها ان ينقل انسان للآخرين واعياً ، مستعملا اشارات خارجية معينة الأحاسيس التي عاشها ، فتنتقل عدواها اليهم ايضاً، فيعيشونها ويجربونها . وبذلك تصبح رسالة الفن واضحة ، وهي التبليغ والتوصيل . والشاعر بشر يتحدث الى البشر ، ويعمل جاهداً ليعثر على « اجود الالفاظ في اجود نسق » لكي يجعل تجربته تعيش مرة أخرى لدى الآخرين ...

هذه التجربة التي ينقلهـا هي من صميم رسالة الشاعر . (والشاعر كما يقول اليوت : « حين يكون في عملية الخلق الفني ، غير مهتم بمآل اعماله من الناحية الاجتماعية ... لا يستطيع ان يستمر في عمله ، دون ان يكون فيه فائـدة للمجتمع » فهو يحب ان يمتع ويوجه . والبحث عن الاثارة الاخلاقية في الشعر غريزة عميقة في الانسان)...
ولكننـــا لا نريد للشعر ان يكون مجرد دعاية اخلاقية . وصدق « كيتس » اذ قال : « اننا نمقت الشعر ذا الهدف البين ، لاننا نحس بغريزتنا ان وظيفة الشعر الحقيقية ليست الوعظ . فالشعر هنا له هدف ، مهما كان هذا الهدف ، ولكنـه لا يذهب الى هذا الهدف ذهاب الـكاتب النـاثر الذي يتم بالوضوح .

(وهذا التعريف الوسط يناقض ما ذهب اليه « الجمـــاليون » المتعصبون الذين يرون ان كل الفنون لا منفعة فيها اطلاقا ، لانها تستهدف معنى الجمال المجرد ...

واذا اعتقدنا بان للشعر غاية يؤديها فان نطاق الشعر ان يفرض ، لا ان يعـلم . ونحن لا نثور من المحتوى الاخلاقي الذي يتضمنه الشعر التعليمي وانما نثور على الطريقة التي يصلنا بها .

وما أروع ما قاله ذلك الشاعر :

« ان نبضة واحدة من الغابة المخضرة
قد تكشف لنا عن خبايا النفس الانسانية
وعن جانب الخير والشر
اكثر مما يستطيع الحكماء مجتمعين ... »

وهكذا نجد الغاية واحدة في الشعر والحكمة ، لكن طريق الشعر في الوصول اليها هو غير طريق الحكمة ... ومن المؤكد ان الشعر ليس شبيها بالحياة ، ولكنه يوقظ فينا حياة جديدة ، ويعجل بظهورها . ونحن لانحكم على الشعر بنبل أغراضه، وبما يقوله عن الحياة ، ولكن بعمق بصيرته وعمق احساسه وروعته ... ذلك ان الشعر يشيع الحياة في الانسان ، أو كما قال « ييتس » : انه دم ، وخيال ، وفكر تتدفق معاً .

اما الموضوعات الانسانية التي يطيب للشعر ان يخوض فيها فمنها « الزمن » عدو الحياة والانسان. وقد يكون الشعر خالداً ، ولكن الانسان نفسه يخضع لفترة زمنية محددة . فالفناء والزوال جزء من كيانه ، وكذلك حضارته التي ينشئها مثل دنياه التي يعيش فيها .

ومنها « الموت » الذي هو خاتمة الحياة ، والوجود المادي وما هو معروف ومدرك . واذا تألم الشعراء للموت ، فانما ينقلون ألم الانسان نفسه منه .

ومنها « الكبت والعزلة » هذه العزلة التي يأوي اليها الشاعر فراراً من شقاء حاد في حياته. وكم سعى شعراء الى الانسحاب من ضغط المجتمع التنافسي بغاياته المادية من مال او جاه ... على ان الاعتزال ليس في ذاته ترياقاً دائماً ضد التعاسة، لأن الاحساس بالسلبية والجمود هو غالباً سبب الالام .

ومنها « الهجاء الاجتماعي » لأنه ليس هناك شاعر يعيش ويكتب في عزلة . فهو شخصية حية في فترة زمنية ، ومكان معين ، وبيئة اجتماعية معينة . فهو فرد ولكنه في الوقت نفسه عضو في المجتمع ، ولا بد للمجتمع من ان يلعب دوره في شعره . وقد يكون الشاعر متعاطفا مع بيئته الاجتماعية ، او ثائرا ضدها ، وقد يذهب الى حد انكارها ، ولكن تأثيرها سيظل منطبعاً على شعره ... وكيف لايكون دور الشاعر هو دور المحارب من اجل الحق ، لايخشى في سبيله شيئاً ... يتحدث عالياً في شجاعة ضد الشر ، ويستعمل سلاحه المقدس ، فيحمي المجتمع من اعدائه ، ويكون حادا ، قوياً في هجومه ؟

ومنها « الطبيعة » حيث تكون الرابطة العميقة المعقدة بين العالم الخارجي وعقل الانسان هي التي توحي بأروع شعر الطبيعة .

ومنها « الحب » الذي هو دون ريب اكثر الدوافع في الشعر شيوعاً . وقد تدفقت عبر القرون فيوضات من شعر الحب ، وكان لكل عصر تقاليده في التعبير عنه .

ومنها « النزعة الانسانية » التي تقوم على القيم الانسانية المنتزعة من تجارب الناس ، وعلى العلاقات التي تقوم بين الناس ، والطبيعة ، وتقوم ايضاً بين الناس . حيث يجد اتباع النزعة الانسانية في هذه التجارب اصدق دليل على مافي الحياة

من خير ، وعلى مافي روح الانسان من طاقة خلاقة .

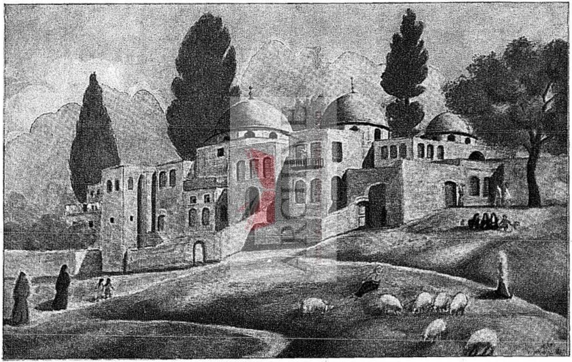
وللشعر بعد ذلك جانبه الذي نفقده عند الترجمة ... لان الشعر ليس في القصة اوالموضوع او الغاية الاخلاقية او العواطف المستثارة ... او اي تجريد يمكن التعبير عنه بالنثر ... انه يعيش في لغته ، ولايمكن فصله باي حال من الفاظه الاصلية التي كتب بها ...

هذا هو وجيز هذه الدراسة الفنية الرائعة ألمت فيها بالخطوط الرئيسية ، ولكنها ليست بمغنية — في اي حال — عن مطالعة الكتاب الفني بمادته ، ودراسته ونماذجه ...

على ان المؤلفة نراها اقتصرت على نماذج من الشعر الانجيلي فقط ، مع ان طبيعة الدراسة تلزم منها ان تستشهد ايضاً بنماذج اخرى من الشعر العالمي . ولعل خوفها من افساد الشعر بالترجمة جعلها تحجم عن هذا الاستشهاد .

واذا كان هم الكتب التي تتناول الشعر ان تهدف الى استمالة قلوب وعقول جديدة تنشد مزيداً من المتعة والفائدة من قراءته ، فان هذا الكتاب قد بلغ من هذه الغاية فوق ما اراد . وما اجدر الشعراء منا ومحبي الشعر بأن يقرءوا هذه الدراسة التي تفتح لهم آفاقا جديدة ، وتقدم لهم الوانا جديدة . من اقل خصائصها انها تنمي فيهم القدرة على الخلق والابداع . ولهم في النماذج الكثيرة التي احسن المترجم صياغتها معالم واضحة تدلهم على الطريق .





الشيخ أبو بكر ـ خالد معاذ

الفنان

خالد معاذ

أحد كبار الفنانين في سورية المهتمين بالنواحي الشعبية وأحد المبرزين في أبحاثهم الأثرية والتاريخية وقد اشتهر بدراسة البيئات الشعبية والمساجد والمدن . وأعد عدة دراسات حول هذه الفنون وهو الآن متفرغ للفنون الشعبية بمختلف نواحيها.



اللوحة

الشيخ أبو بكر (٦٠×٩٠)

تمثل اللوحة أحد المناظر الشهيرة في بلادنا انه جامع الشيخ ابو بكر ، وتعبر اصدق تعبير عن اتجاه الفنان من ناحية اهتمامه بمعالجة المواضيع المحلية بطريقة واقعية تسجيلية . وتبرز اللوحة من ناحية أساسية هي اختصاص الفنان بدراسة الاماكن ومعرفته لها معرفة واعية . هذا بالاضافة الى انسجام الألوان وتوافقها مع بيئتنا .

أناتول فرانس !

للأستاذ وجيه بيضون

عرض وتحليل: عبد الله الشيتي

صدر مؤخراً للاستاذ وجيه بيضون، كتابه القيم « اناتول فرانس » ، وجاء مابين دفتيه ، اغناء للمكتبة العربية ، وامتاع للقارىء العربي ، باعتباره ترجمة واقعية مستفيضة ، لحياة شيخ ادباء فرانسة ، وعبقري امته في زمنه ، خلد آثاره ، وخلدته آثاره ، فتجشم الاستاذ بيضون عناء الكشف عنها ، وجوهرتها ، وسبر اغوارها ، بأسلوب عميق ، وتحليل دقيق ، ولغة اصيلة متماسكة ، تعبر في مبناها ومعناها عن واقعية وتبحر وفن .. حتى لكأنك تحسب ان المؤلف المترجم جزء من « اناتول فرانس » ، وان « اناتول فرانس » كل جزء في الكتاب ، لكثرة ماغاص الاستاذ بيضون في اعماقه . وعجم عوده ، ودرسه دراسة دقيقة موفقة ، يكاد لايستطيع الكثيرون الى مثلها سبيلا ، لما بذله الاستاذ وجيه بين تضاعيف الكتاب من جهد ومعاناة ، وما صرفه من تبصر ودراية ، ومن فن وبراعة .

يقع الكتاب في مائتي وعشرين صفحة من الحجم الكبير الانيق ، ويحتوى استعراضاً طويلا شاملا لحياة « اناتول فرانس » من المهد الى اللحد ، كما يحتوي تحليلا ادبياً موفقاً لفنه وتراثه ولآرائه ومعتقداته ولسخريته وافكاره ، ثم لمجموعة مؤلفاته وروائعه ، حتى لقد جاء الكتاب بمثابة « الهوية الشخصية » ، بل بمثابة الوثيقة الرسمية التي يمكن للكتاب والباحثين ، وللنقاد والمفكرين ، وللقراء على السواء ان يعتمدوها مرجعاً يعودون اليها في كل مايهمهم معرفته وتداركه عن اناتول فرانس ، ولا غرو فان الاستاذ وجيه معروف عنه ولعه الخاص ، وشغفه الشديد ، بتتبع واحياء آثار هذا العبقري الذي كان ذات يوم مضى ، مالىء الدنيا، وشاغل الناس بين جنبتي العالم كله .. وكانت له — الى ذلك — شهرته الوسيعة ، وآفاقه التي لاتحد ، وفضله الذي لاينكر ، على الادب والمجتمع ، وعلى الفن والحياة !

فلا غرابة اذن ، ان يلمس القارىء من براعة الاستاذ بيضون ، في كل ما كتب وحلل ، ابداعاً مابعده ابداع ، وتصويراً ليس في مثل دقته ولا روعته الا النزر اليسير ، بين التراجم وامهات الكتب الراقية ، المغذية للفكر والعقل ، وللروح والنفس .

ولعل اصدق وصف لمثل هذا العمل الادبي

الجليل ، والاثر الفني الجميـل ، ما كتبه الاديب الكبير شفيق جبري في مستهل تقديمـــه لكتاب « اناتول فرانس » حيث قرر انـه « يرى في صاحب الكتاب ولعاً بالادب ، وعبادة له ، بـل هو يـكاد يذوب في هذه العبادة » . . الى ان يقول : « إني ما كدت افتح عيني على الدنيا بعد زمن الدراسة حتى اهتديت الى كاتـــب كان له الاثر الابلغ في ذوقي وفهمي وشعوري ،في نفسي كلها .. واذا كنت قد ملأت ذهني في ادبنـا من بيان ابن المقفع والجاحظ ، فقدملأت ذوقي وفهمي وشعوري من عبقرية (انا تول فرانس) فأضفت الى سحر ابن المقفع والجاحظ وضوح لغة فرانس وصفاء فكره ، وصحة نظره ، الى امور الدنيـا . فهو الذي انفرد من اربعين سنة بتصفية ذوقي ، وتهذيب شعوري . ».

وبعد ان يطيـــل الاستاذ جبري في تقريظ اناتول فرانس ، والاشادة بمآثره ، وتعـــداد مزاياه ، وتبيان خصائصه ، والتدليل على مواطن العبقرية والخلود عنـــده يتساءل في حديثه عن يضون : « افلا ارى بعد هذا كله ان اقـدام الاستاذ وجيه يضون على ادخال هذه الآثار في ادبنا حسنة من الحسنات التي لا ينبغي لي ان اهمل التنويه بها ..؟ »

تعالوا نقرأ بعض الذي نقله لنا الاستاذ يضون من تمجيد انا تول فرانس للحياة ، التي هي قاسم مشترك ، في كل ما كتب وما اعطى :

« كل شيء يمضي وينقضي الا الحياة فانها باقية خالدة . فمن واجبنا ان نتوجه اليها بحبنا في شتى وجوهها التي لا تلبث ابداً مضطردة في تجددها. »

وقوله ايضاً : « ما كان للحياة ان تبدى لنا قصيرة المدى لولا اننـا نقتاسها من غير تدبر ولا تبصر على ما نعلق عليه الآمال في جنون واختبال... ان للأشياء اليسيرة في الحياة ، حياة من قيمة خطيرة » .

افرأينا الى مدى الاهمية التي يعلقها اناتول فرانس على الحياة المتجددة في الانسان، والتي يجددفيها الانسان ، من اجل القيمة.. بل من اجل نشدان الأفضل ؟..

والتاريخ ، هذا الذي يرد ذكره على كل لسان « اسمعوا ما يقول فيه اناتول فرانس : « وما هو التاريخ غير قصص في الاخلاق ، وكشكول بليغ من الاحداث والخطب ، على كفاء ما يكون المؤرخ فيلسوفاً أو كاتباً بليغاً .. » ثم يتساءل بدوره : « وهل نفيد من هذا جميعاً سوى ان التاريخ عدا انه ليس بعلم ، فهو مأخوذ بجريرة الكذب والتزوير ، حميل على غيره في استكناه اي حقيقة من أمره ؟ » .

ولقد تحدث فرانس عن الانتحال في الادب ، وهذه ظاهرة يتسم بها كثير من المحاولات الادبية وتلازم كثيراً من مختلف النتاج الادبي والفكري تحدث وأفاض ولم يعرض بوجه ما الى التوارد في الافكار ، وهو كثير الحدوث والانتشار ، وتكاد اراءه في هـذا الباب لا تخرج عما ذهب اليه ادباؤنا القدامى حيث قالوا « من استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقه » . فهو يقوم الفكرة بالصيغة التي تعرض بها ، ويرى ان الجـدة هي غاية « الفنان » . وان الافكار مشاع ملك الجميع .

ولفرانس آراء ومعتقدات عديدة تكاد « مذاهب » قائمة بذاتها في الكثير من ضروب الادب والفن وحقول المجتمع والحياة ، وهاك رأيه في « المجامع العلمية » .

ـ لاغضاضة على « الاكاديميات » اذا ما اخطأت في انتخاب اعضائها ، بل لابد من تعمدها هذا الخطأ ، لأنه مناط حياتها وبقائها .

هذه سخرية لاذعة معبرة ، مابعدها سخرية !

ويقول في « حقيقة » الأدب المعـاصر : « علة الأدب لايامنا انه لايفتقر الى الغنى والارضاء ، وانما أفسدت رونقه نقيصتان هما البخل والكبرياء ! »

وله اراؤه القيمة الحكيمة في الانسان ، والاخلاق ، والمرأة ، والفلسفة ، والمجتمعات والاوطان والامم ، والسياسة والحرب ، والشك والايمان ، والموت والحياة ، والجوع والحب ، والشرائع والعادات ، والقصة والشعر ، واللغة والرواية ، والعـلم والسعادة ، وغير ذلك من الابواب والفصـول المتنوعة التي وفاها الاستاذ يضون حقها من العرض والتحليل ، وأفاض عليها من عذوبة اسلوبه ، ودقة معانيه . ماييب بكل مثقف الى اقتناء هذا الأثر الادبي الفريد الذي بسط لنا أناتول فرانس على حقيقته في وراثته وبدايتـه ، وفي شخصيته وعقليته ، وفي فنه وشهرته ، وفي « ابيقوريته » وسخريته ، وفي اخلاقه وعـاداته ، وفي شكه ويقينه وأخيراً في موته وحياته « بعد موته » !



الليلة الاخيرة

مجموعة قصص لفاضل السباعي

١٥٢ صفحة من القطع المتوسط
منشورات دار المعرفة ـ القاهرة

عرض وتحليل ياسين رفاعية

لم اكن قد قرأت — للأسف — للقاص فاضل السباعي على كثرةما كتب ، شيئاً مما كتب و « الليلة الاخيرة » التي نحن بصددها على هذه الصفحات سبقها « الشوق واللقاء » و« ضيف من الشرق » و « مواطن امام الفضاء ».

ولما كانت مجلة « المعرفة » قد أخذت على عاتقها ان تؤرخ القصة السورية ، وتجعل من صفحاتها مرجعاً لمن يود في المستقبل ان يلم بالقصة السورية ويتابع تطورها . رأينا ان نطل على عالم فاضل السباعي لنجد ما يملك فيه ..

تساءلت وانا اقرأ « الليلة الاخيرة » هل قصص هذه المجموعة هي اول ما انتجه فاضل السباعي .. لانني لمحت من خلال سطورها كأن كاتبها مايزال مبتدئاً في هذا الفن .. فهو بعيد كلا البعد عن تطور الادب الحديث ، بعيد كل البعد عن مفهوم القصة القصيرة التي اصبح لها قواعد ومميزات وأسس اكدها نقاد العالم بأسرهم وابرز كتاب القصة في الدنيا .

ونصح ان نطلق على اسلوب المجموعة اسم. الاسلوب المنفلوطي ، نسبة الى مصطفى لطفي المنفلوطي في التقعر اللغوي والطريقة التقريرية في عرض الافكار ..

وباستثناء قصة او قصتين ، كانت بقيةالقصص لا تعبر عن حياتنا قط .. فالزواياالتي ارادالكاتب ان يلتقط منها افكار قصصه ومواضيعها تكاد تكون منقرضة من مجتمعنا .

ان القصة القصيرة تمنحنا قطاعاً من الحياة له احساس ، وله القدرة على الحركة ، تنفعل مع الوجود وينفعل القارىء معها .. انها قطاع من حياة انسان . والقصة القصيرة حريصة على الزمن اكثر من اي لون ادبي آخر ، لان الزمن فيها عامل تطوير قوي. واذاافلت الزمن من يدالكاتب تغيرت طبيعة الحادثة وتدهورت نحو الفشل ... وفقدت منطقيتها وتبريرها .

في « الليلة الاخيرة » هل استطاع الكاتب ان يمنحنا قصصاً قريبة من المفهوم الفني لها .؟

سؤال .. تستطيع القصص نفسها ان تجيبنا عليه .

المجموعة تحوي عشر قصص وهي على التوالي « الحقيقة وراء الضباب ، الارجوحة ، الغيث في اوله ، اقوى من التوبة ، بعد سنين ، سأموت غداً ، عيد من الاعياد ، مال الله ، الربيع الحلال ، الليلة الاخيرة » .

فاذا بدأنا بقصة « الحقيقة وراء الضباب » يخيل لنا لاول وهلة كأن الكاتب وضعها لتكون فيلماً سينمائياً على الطريقة المصرية ،فالقصة تحوي مشاهد تمثيلية مفتعلة ، ذات موضوع طرق كثيراً . الالفاظ فيها بلهاء والحادثة مطوطة .. اللغة المنفلوطية بادية بوضوح :

« وانكب على قدميه يبغي تقبيلا ، وليس ابوها بالذي يرحم ، وفارقت الحي الذي يسكنه ابن عمها حيدي ، لتعيش لصق الطاحون مع ضجيج الموتور يهدر في بيتها ساعات النهار »
— ص ٨ —

وكان ملاحظاً في القصة ان توارد الخواطر التي تجتاح البطل والقاضي يسأله عن محاولته سرقة زوجته بطريقة تحقق لابطريقة قاض ليس وارداً فالبطل لايمكن وهو في مثل هذا الموقف ان يتذكر كل هذه الاحداث ، المفروض ان يركز ذهنه على الاجوبة كي ينال البراءة . ولو فرضنا جدلا بانه بالامكان ان يتذكر احداث الماضي .. ان هذه الاحداث يجب ان تكون لها علاقة مباشرة بالقضية التي وقف متهما فيها .. فقد شذ القلم في يد الكاتب ، وانفلت التبرير من بين يديه فأخذ يحاول تغطية انحدار القصة في التبرير المنفلوطي المعروف .

وفي بعض مقاطع القصة يقحم الكاتب نفسه كما في كثير من القصص الاخرى فيقول: وتفتحت زهور تعاطف ؟ وانتشر في الجو اريجها .. ليس يدري ، كل من شمسة وحميدان ، على التحقيق متى الفيت في كلا القلبين بزرته . هذا التعاطف الوارد على غير حسبان **وهمالو امعناتذكراً وتفكيراً ، لادركا ان البزرة انغرست في القلب ذات يوم والزوج غائب عن البيت .**

في « الارجوحة » يخلق الكاتب مأساة من اللاشيء ، ويضع لها حداً في اللاشيء .. الارجوحة لعبة الطفلة المدللة وسلواها ليل نهار تمتها في دروسها وتمنحها الراحة .. والطفلة هي التي اشترتها مما ادخرته من « خرجيتها » واذا بالاب فجأة يجد انه بحاجة الى المال .. وان ليس ثمة سوى الارجوحة تنقذه من ورطته فيقرر بيعها ويحتال مع زوجته على الابنة بأن الارجوحة تعطل دراستها .. ولكن الطفلة الذكية جداً تستمع الى حوار الاب والام فتدرك ان الاب بحاجة الى المال . وان الارجوحة وحدها دون اثاث البيت كله ستنقذه من الافلاس والانهيار فتقرر الطفلةالذكيةجداً ! — ان تضحي بأرجوحتها وتوافق على بيعها .. ويخلق الكاتب من خلال هذه الحادثة مأساة تقتحم عالم الطفلة المسكينة التي تفكر كثيراً كيف ستفقد الارجوحة .. ويحاول

أن يبلغ بالقارىء ذروة القصة .. ولكن القارىء يشعر انه مايزال في مكانه .. ويحل الكاتب المشكلة اللامشكلة بعودة الاب في المساء وفي يديه حزمة كبيرة من النقود .. من اين جاءت ؟ ثم كيف كان بحاجة اليها .. لسنا ندري ، وتحل المأساة وتظل الارجوحة للطفلة .

في « الغيث من أوله » أيضاً يعرض مأساة على شاكلة اخرى وما هي بمأساة « محام مشكلته الحصول على خمسين ليرة فقط ليشتري كيس طحين واذا لم يحصل على المبلغ فقد يموت جوعاً .. ويخطر في ذهن القارىء اول مايخطر وهو يقرأ هذه القصة كيف حصل المحامي على شهادته الجامعية .. وجدلا ان ظروفاً مختلفة مهدت له الطريق .. فهل يمكن ان يقنعنا اي انسان أن محامياً تحت التمرين بحاجة الى خمسين ليرة ولايستطيع الحصول عليها .

« اقوى من التوبة » يبدو الكاتب كأنه لايعيش في عصر الذرة والصواريخ ، يتحدث عن رجل يخدم قبر ولي من اولياء الله ويشعوذ على الناس بأن في يده شفاء المريض واعادة النور الى عيني أعمى .

على ان اسعد ايامه طراً .. هي تلك التي تقبل اليه فيها مرضع قد نضب في ثدييها اللبن . فبات الطفل ظامئاً لايجد لسر الحياة في ثديي امه اثراً .. وتطلب اليه تميمة يخطها على ورق كما ينبغي للتميمة ان تخط . ولكنه يأبى عليها ذلك ، زاعماً لها ان الثدي نفسه خير ماتكتب عليه الرقى . فتلقي اليه المرأة بثدييها ، فيحوم حوله يريد ليلتهمه بعينيه المشواهين ، مستروحاً عبير الانوثة من بين الثديين .. ويأخذ القلم ليخط على الثدي بعض طلاسم تعود أن يوهم النسوة بأنها آيات تكتب وفق سر أوتيه من لدن الشيخ مكحول العين ... ولكن القلم لايخلف في مروره على صفحة الثدي من أثر .. فلا يكون منه الا ان يخرج لسانه ويندي بريقه ظاهر الثدي ، ليسير القلم في سلاسة وانقياد . نافخاً وراءه اسباب البرء والشفاء ... ومن عجب ان يرى اللبن يدر احياناً بعد ذلك . من ثديي الام دراً .. فما تملك الام إذاك الا ان تنهال على يده تقبلها بضراعة وايمان .

فهل يمكن لأي انسان ان يصدق مثل هذا اللغو .. وان ثمة حادثة من هذا النوع قد تقع . على ان القصة من ناحية اخرى تكاد تكون في منجى من الثغرات لولا ان الحادثة مفتعلة من اساسها ولكن الكاتب عرضها بطريقة فنية لاغبار عليها .

في قصة « بعدسنين » يتخلخل الزمن فيها . ويبدو القفز المفتعل حين تمر ثلاث سنوات في سطر ونصف .. واراد الكاتب في هذه القصة ان يؤكد ان الزوج افضل من الثقافة وان الشهادة الجامعية ماهي الا « وهم خادع كبير » .

قصة « سأموت غداً » قصة مومس اصيبت بمرض السكر فعادت الى رشدها فاذا بها واعظة تحاول ان تعظ زميلة لها . وعالم هذا النوع من الناس، اكثر مأساة، اكثر الماً .. ان الكاتب

الذي حاول ان يعطينا صورة عن هذا العالم ، لم ينجح .. لم تكن له القدرة على بث اي شعور في اعماق القارىء سلباً او ايجاباً .

اذا انتقلنا اخيرا الى القصة التي تحمل اسمها مجموعة « الليله الاخيرة » نجد ان ثمة تبدلا كبيرا في كيان هذه القصة عن بقيـــة القصص ، حتى تـكاد تكون قصة فريدة في نوعيتها . فالقصة جميلة ، بسيطة ، سلسة ، خالية من التقعر والطريقة المنفلوطية التي درجت عليها بقية القصص .

وبعد

من الخيانة للفكر ان نكتب نقداً اورأياونحن نعرف اننا نحابي فيه ونجامل الاخطاء والعيوب . ومن الضروري ان نقول لصاحب هذه المجموعة ان بينه وبين الـكمال مرحلة كبيرة تحتاج الى الجهد والعمل للتخلص من الفوضوية في الكتابة القصصية وكم اتمنى للـكاتب وانا اقرأ اعلانا ان ثمة كـتابا آخر سيصدر له .. لو يتريث .. لو يخفف من عجلته .. فان عملا واحدا فنياً مكتملا لأفضل بكثير للاديب من أن تكون له عدة اعمال لاتقدر على الصمود والبقاء .



فنون

يقدمها : حسن كمال

معرض الفنان جورج راعي

أقيم في الشهر المنصرم تحت رعاية وزارة الثقافة والارشاد القومي في صالة الفن الحديث العالمي معرض الفنان جورج راعي .

ضم المعرض زهاء أربعين لوحة هي حصيلة انتاج الفنان الاولى . ولو تتبعنا تطوره من خلالها لوجدنا اكثر اللوحات الاولى كانت عبارة عن دراسات قام بها ، الهدف منها تلمسه طريقته التي التي يريد أن يخلقها بنفسه وهي دراسات ناجحة عالج خلالها مواضيع الطبيعة الصامتة وصور الاشخاص .

وبعد تجارب مثمرة توصل الفنان الى خلق طريقته التي يكسو فيها لوحاته بنوع من الشفافية المحببة ويحيط تلك المواضيع بخطوط تحدد موضوعاته غير ان هذه الخطوط التي كانت ظاهرة في البداية بدأت تختفي بعض الشيء وهي ظاهرة تبشر بخير. ومهما يكن فان معرض الفنان محاولة ناجحة جديرة بالتقدير .



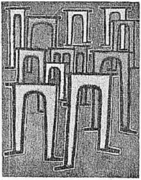
وجه فتاة

للفنان جورج راعي

معهد غوته
الألماني
دمشق

محاضرة الدكتور كارل فول رات
عن فن الرسم الالماني في القرن العشرين

ألقى في أواخر الشهر المنصرم الدكتور كارل فوم رات محاضرة قيمة في معهد غوته تحدث فيها عن تطور الفن الالماني — الرسم — في القرن العشرين وأشاد بالنهضة الفنية المعاصرة التي يحياها الشعب الالماني والتي يتزعمها عدد من عباقرة الفن ومنهم كارل شميت واغوستماك ايريش هيكل، فرانز مارك ، اوتو موللر ، اميل نولد ، بول كايه ماك زعير مان زه واوسكار شيلمر ... وغيرهم كثيرون ممن عرض المحاضر بعض انتاجاتهم بالفانوس السحري وأطرى المحاضر ما خلفه هؤلاء من انتاجات رائعة كان لها أكبر الاثر في تطوير الفن الالماني ودفع عجلة سيره الى الامام اذ لكل من هؤلاء الفنانين مميزات وطريقة خاصة كانت كلها بمثابة تجديدات أدخلت على الفن الالماني وابان مثلا في لوحة (طريق مشمسة) التي رسمها الفنان أوغوست ماك عام ١٩١٢ كيف أنه استطاع التحكم بألوانه ومنحها كمية النور الضرورية وكيف أن طبيعة الالوان وحسن وضعها استطاعت التعبير عن الانس والسعادة التي تغمر المتنزهين ، وفي



ثورة الجسور

للفنان بول كله

لوحة (كلب وثعلب وهر) أبدع فرانز ماك في تبسيط الاشكال الا أنه استعاض عن التعقيد بالالوان الحارة القوية التي حملت أسمى معاني التعبير عن التآخي بين الطبيعة والحيوان ، وبين الحيوانات نفسها ، كل ذلك بخطوط لينة عميقة الدراسة .

واذا كان فرانز ماك قد اتخذ التبسيط في أشكاله أساساً لعمله نرى أوسكار شيملر قد اتجه اتجاها هندسياً في تصويره فنرى أشخاصه مثلا أشبه بكتل مختلفة الاشكال الهندسية والتي تبدو فيها بعض الغلظة غير أنها تشع بالتعبير القوي وقد

تركت طريقته هذه أثراً عميقاً عند الكثيرين من الفنانين المعاصرين .

وانتقل المحاضر فيما بعد الى الحديث عن بول كليه في لوحته المسماة « ثورة الجسور » وفيها نجح الفنان في ابراز العمق بوضعه الجسور بحسب تدرج حجمها كما ساعد على ذلك وضعه الالوان الحارة في السطح الاول والباردة في السطوح التالية الامر الذي ساعد على خلق انطباع العمق عند المشاهدين .

وهكذا كان المحاضر ينتقل من فنان الى آخر مشيراً الى مميزات فنه وتأثيرها على فن العصر الحاضر معززاً محاضرته بالصور الملونة المنتقاة لكل فنان تناوله الحديث وانتهت المحاضرة تاركة أطيب الاثر في نفوس الحضور



السلم

الفنان أوسكار شيلمر

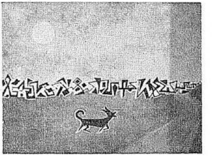
معرض الفنان نعيم اسماعيل

بحضور الأمين العام لوزارة الثقافة والارشاد القومي وعدد غفير من المهتمين بالفنون افتتح في ٢٠ كانون الثاني معرض الفنان (نعيم اسماعيل) في صالة الفن الحديث .

ويضم المعرض /٧٢/ لوحة رسمها نعيم خلال سنة ونصف تماماً أي تمثل آخر اتجاهه الفني خلال هذه الفترة التي انقطع فيها عن الاشتراك في المعارض .

ولنعيم طريقة معروفة ابتدع أسسها وطورها حتى أصبحت اسلوباً متميزاً وتعتمد هذه الطريقة على محاولة الاستفادة من الاشكال التي يزخر بها الفن العربي والتي نلمس وجودها في احيائنا وبيوتنا جميعاً لخلق اتجاه جديد لا يهمل التجربة الحديثة للفنون بل يستفيد منها كي يطور هذه الاشكال ويعيد تركيبها في عمل فني .

ومعرضه الجديد استطاع أن يثبت فيه أنه ما زال يسير على نفس خطته وبنفس الاندفاع والحماس وان هذه الخطة قد اكتملت الآن وبدأت تعطي نتائجها المتوقعة . ايجاد فن عربي حديث شديد الصلة بماضي العرب الفني وعالمي الهدف من ناحية قوة التركيب ومتانته .



القافلة

للفنان نعيم اسماعيل

نعيم والقروية

ويلاحظ مدى تأثر نعيم بالبيئة التي نشأ فيها (اسكندرون) ومدى ارتباطه بها ارتباطاً حياتياً ، ومدى تخزن اساسات حب هذه البيئة القروية التي نستطيع القول بأنها أهم ما يربط نعيم بالجو العربي الذيهو القرية بكل معنى الكلمة .

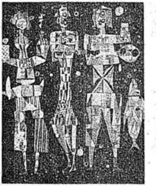
ولا اعتقد أن فناناً عاش مشكلة القريةواحس باحساسات أهلها كما عاش نعيم ... إن بينهوبينها تعاطفاً لا يمكن أن يخلو منه أثر واحد له .

والصلة بالقرية لا تتجلى بتصويره وجوهاً قروية ، أحس باقترابها منه ، بل بمحاولته أن يكشف مدى صدق تجربته في الرسم إذ إن الموضوع الذى يعالجه ــ وقد اغرم بمعالجته ــ يربطه بقوة بالطريقهالتي يعالجها هذا الموضوع ، لذا فالقرية أقرب المواضيع اليه ، وهي أصدق في التعبير عن العروبة الحقه ، وهي لا تنفصل عن الاسلوب الذي ينفذ به نعيم لوحاته ، لذا تشعر بأن اختيار المواضيع ومعالجتها قد عبرا تعبيراً مدهشاً عن نعيم كفنان مؤمن بوجود فن عربي متميز .

ولعل أصدق كلمةقالها أحد المعلقين عن نعيم :

« هناك شيء يتكرر دوماً في كل لوحة »

ولقد التقط المعلق شيئاً مهماً في لوحات(نعيم) وهو وجود شخصية متميزة له ، وهذه الفكرة بالذات هي التي تعطيه أهمية كبيرة . . انه وجد لنفسه طريقه وهو الان يحسن هذه الطريقة ويزيدها تجربه لونيه بعد أن اكتملت وتوضحت في ذهنه اسسها الاولى . وان في كل لوحة شيئاً يربطها باللوحات الاخرى ، على الرغم من أن الناظر اليها لايمكن إلا أن يشعر أمامها بأنها عالم كامل غير محدود أبداً



لوحة مسرح العرائس

● المركز الثقافي العربي
بدمشق

معرض الفنان
رودلف كوجلر

اقيم في الشهر المنصرم تحت رعـــاية وزارة الثقافة والارشاد القومي معرض الفنان البرليني رودلف كوجلر في المركز الثقافي العربي بدمشق والفنان المذكور فنان اصيل يعتبر من أوائـــل الفنانين الرسامين واوائل الفنانين العاملين في ميدان الحفر ومن خلال لوحاته العديدة المعروضة يمكن للمتأمل فيها الوقوف على تجاربه العديدة التي قام بها قبل بلوغه اسلوبه الحالي الذي يقف فيه بين الموضوعية والتجريدية وفي اتجاه محاولات عديدة لتحويل المرئي الواقعي الى اللامرئي الى التجريدي .

لقد اعجب كوجلر ببعض البلاد العربيـــة كراكش وتونس ومصر وقام بزيارتها ، والتي تركت في نفسه اثراً عميقاً تجلى في لوحاته العديدة عنها ومنها لوحة « كرنفال » المرسومة بالالوان الترابية . ولوحة « ميدان اسباني » ولوحـــة « مسرح العرائس » المنفذة بطريقة الحفر على النحاس . وغيرها كثيرات لانقل عنها اجادة في قوة التعبير .

كما قام بزيارة بعض بلاد اوروبا كاسبانيـــا واليونان وايطاليا حيث وجد ضالته من مواضيع غنية بالالوان الى تكوينات تضم نماذج حلوة من العصور الخوالي .

وفي لوحاته نوع من التحليل الشكلي الذي يرجعه الى اشـكال هندسية تتجلى فيها المستطيلات والمربعـــات والمواشير والقطاعات والدوائر المتداخلة ... اما موشأته التي تعكس دوما نفسية الفنان فتجمع بين الالوان الحارة والهادئة ، اما لوحات الحفر فتدل على مهارته في الرسم والصنعة لأن فن الحفر وخاصة المتعـــدد الالوان يتطلب الكثير من الاناة والدقة .

لقد فتح معرض كوجلر الاعين على التيارات الجديدة في المانيا ، وفاز باعجاب زواره وكبير تقديرهم .

• النمسا

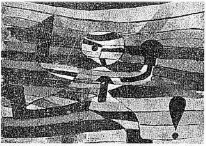
معرض الفنان سامي برهان

اقيم في الثاني عشر من الشهر المنصرم معرض الفنان سامي برجان في مدينـــة (غراتس) في صالة الفن الحديث ووجه الدعوة لحضور حفلة الافتتاح الاساتذة : مدير متحف الفن الحديث ـ ومدير معهد الدراسات الشرقية ـ ومدير الثقافة. وقد عرض في هذا المعرض قرابة خمسين لوحـة ،سمت كلها بالبساطة وحرارة الالوان اماموأضيعها هي كلها مستمدة من بيئة بلدنا ، من محيطنـا ، من عاداتـنا وتقاليدنا ... وهي عناصـر الجدة والطرافة بالنسبة للاوربي الذي مل التيارات الفنية الحديثة . ومن الجدير بالذكر ان الفنان سامي برهان قام خلال الصيف الماضي برحلة طويلة عبر بعض البلاد الاوربية ومنها الدول السكندنافيـة والمانيا وسويسرا ويوغسلافيا وقام بعرض انتاجه الفني في بعض مدنها ، وقد لقيت معارضه هـــذه نجاحات رائعة فسجل من جديد نصراً كبيراً لبلده الذي احبه وعرف به ضمن امكانياته ، فحبذا لو قام فنانونا بمثل هذه الخطوة الجريئة لما فيهـا من الخير لهم ولبلدهم سواء بسواء.

• لبنان

مجموعة هانا بيكر المتنقلة

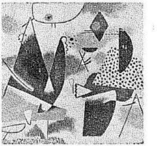
بالقرب من فرانكفورت تقيم سيدة على جانب كبير من الثقافة والغنى تدعى هانا بيكرفوم‌رات والتي احبت فن الرسم وكثيراً ما انتجته . والسيدة بيكر الفت منذ الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ زيارة المعارض ومراسم الاصدقاء من الفنانين وشراء مايبدو لها جيداً ومعبراً عن العصر ولم تتوقف عن تغذية هذه الهواية حتى يومنـا هذا ، وذا بها تجد نفسها اليوم صاحبة مجموعة من اللوحات تمثل عباقرة الفن الالماني للقرن العشرين واذا بها تملك ثروة فنية لاتعد لها الا ثروات المتاحف غير ان السيدة بيكر لم يسرها أن تبقى مجموعتها الحلوة ضمن غرف دارها الواسعة يتراكم عليها الغبار بل ارادت ان ترى هذه المجموعـة النور وان تكتحل بها اعين المتذوقين مما جعلها تفتح دارها للجمهور ليشاهد هذه المجموعة الرائعة ، لم يقف طموحها عند هذا الحد بل تعداه الى عرض جانب كبير من هذه المجموعة في عدد من دول العالم ومنها بعض الدول العربية ، الاوروبيـــة والاميركية وقد عرضت المجموعة في جولتها



العداء

للفنان بول كليه
من مجموعة هانا بيكر

الاخيرة في اليونان وتركيا ولبنان وكانت هـذه المجموعة الشغل الشاغل للعاملين في الفن في بيروت في الشهر المنصرم خاصة والسيدة بيكر ترافق مجموعتها اني عرضت وتشرح للزوار انطباعاتها عن كل لوحة وتعطي الكثير من المعلومات عن الفنانين المبدعين لمجموعتها القيمة . ويمكن القول ان اكثر الاتجاهات المعروضة تمثل المدرستين التعبيرية والتجريدية الالمانيتين . وليكون المعرض المذكور ممثلا للفن الالماني خلال القرن العشرين فان هانا بيكر سمحت لنفسها باستعارة بعض الصور المنفذة بطريقة الحفر من بعض اصدقائها وبذلك فقد حققت المجموعة نجاحاً رائعاً واعطت معلومات حية عن الفن والفنانين الالمان خلال الفترة المذكورة .



الموسيقى

للفنان فيلي بومايستر

معرض النحات
جان آرب

تتجه أنظار الجمهور البريطاني اليوم نحو معرض النحات الافرنسي جان آرب الذي يقام في متحف التيت . وجان آرب هذا شاعر مرهف الحس عميق التأثير ، وان كان المتذوقون يفضلون انتاجه الشعري . يعتبر آرب أحد مؤسسي المذهب الدادائي في زوريخ الا أن زواجه من الفنانة صوفيا توبر كان له أكبر الأثر في تطوره اذ غدا التعبير السوريالي عنده ذا طابع تجريدي .

والمتأمل في انتاجاته الفنية يدرك ان مبارته الفنية قد قادته نحو استغلال الاتجاه التكعيبي ودمج الاشكال التكعيبية بالعفوية وهذا الدمج هو الذي ساعده على خلق اشكال جديدة تجلت فيها قوة الحركة وخصب الخيال وان كانت غير مفهومة في ظاهرها . ومن اقوال آرب في هذا المجال : « اننا لانريد ان نقلد الطبيعة ونحصل على نسخة طبق الاصل عنها » ويقول اننا نهدف الى تبسيط حياة الانسان وابعاده عن خطر الغرور .

لم تؤثر انتقادات الناس والنقاد اللاذعة في نفس الفنان او فنه ولم تستطع اقلامهم ان تحد من نشاطه وتصرفه عن طريقته او تحول الناس عنه بل على العكس لايزال آرب يزداد شهرة ولا يزال الملايين من الناس يقبلون على مشاهدة انتاجه لأنه ظاهرة من ظواهر العصر الحديث .

● بلجيكا

سرقة تمثال

سرق احد التماثيل البرونزية من ساحة البلدية في مدينة بروكسل واستبدل بتمثال آخر من الجص .

تمت السرقة في الليل ولم تكتشف الا في صبيحة اليوم التالي وقد استطاع رجال الشرطة بعد تحريات سريعة ان يتوصلوا الى معرفة السارقين الذين اتضح انهم فئة من طلاب جامعة انتورب وقد تم استرداد التمثال واعادته الى مكانه . يعتبر التمثال الذي يطلق عليه اسم « مانكن بيس » من اشهر معالم العاصمة البلجيكية ويعود تاريخه الى عهد دوق « برابانت » ويعتقد ان ابن الدوق فقد ثم وجد في المكان الذي يقوم فيه التمثال حالياً .

وفي كل عام يتلقى التمثال عدداً من الهدايا وفي مقدمتها البسة من مختلف انحاء اوربا . وقد بدأ هذا التقليد الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا وسار عليه غيره من الملوك فأضحى للتمثال مجموعة كبيرة من الالبسة التقليدية تمثل جميع العصور وهي تحفظ في متحف قريب من المكان المذكور .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها: فؤاد الشايب

المثقفون في السوق - ملامح الفكر الانكليزي عبر التاريخ - السياسة ، كفن وممارسة وعلم اجتماعي ، شغلت دائماً اذهان الأدباء الانكليز ومفكريهم - جولتنا معهم ، اليوم ، في السوق الاوروبية المشتركة ، حيث تقف بلادهم بريطانيا ، وقد ذل انفها ، وخفضت جناحها ، وبسطت لحكم الزمان كبرياءها - مع اوروبة الموحدة .. ام ضدها ؟! كيف . ولماذا ؟!

ملامح

ان الحاكم المثالي في نظر (باكون) الانكليزي هو الملك الذي يربيه ويهذبه الفلاسفة ، ولقد كان الاسكندر الكبير ، ذلك النموذج الكامل للمواطن الصالح الذي افرغ فيه ارسطاليس كتبه وافكاره ، وكان المثقفون رفاقه واصحابه في بيته وفي معسكره ، وفي رحلاته وحروبه.

مفروض في رجل الدولة أن يكون مخلصاً صادقاً ، محباً لوطنه . ولكن لاقيمة للصدق والاخلاق والوفاء بلا فهم وعلم . ان الجاهل الذي يتصدى **لصناعة الدولة** اي للعمل العام ، يخون نفسه ، قبل وطنه اذ كيف **يدعي حب بلاده ، وهو يجهلها ، ويجهل كيف يحبها ، ويعمل من اجلها ؟!**

حر ، هو الانسان العادي ، في اختيار الأسلوب الذي يحب به بلاده ، ولكن رجل الدولة ، ليس حراً — عندما يتصدى للعمل العام — الا بقدر ما يأخذ من العلم ، وما يضع منه في خدمة قومه وبلاده. والديموقراطية كل الديموقراطية انما تقوم على اساسين اثنين اذا أريد لها أن تعيش وتنمو وتثمر ، وترد الفوائد لطالبيها هما : **الاقتراع العام ، والتعليم ، والشعب غير المتعلم لايؤلف مادة صالحة في الحياة الديمقراطية .**

هذه افكار شائعة ، رائجة في العالم الحديث يتداولها الناس ، ويأخذون بها حقائق دامغة . سوى أنها وسواها من تأملات وأفكار منذ

ثلاثمائة او اربعمائة عام ، كان الجهر بها كشفاً كبيراً . وكان لفلاسفة الانكليز ، في **كيف تساس الدولة وفي من هو رجل الدولة** ، تأملات وآراء ، وفلسفات ، سبقوا بها سواهم ، وكانوا بالحق في هذه المضامير رواداً ومعلمي أجيال منذ فرنسيس باكون ١٥٦١ — ١٦٢٦ حتى برتراند راسل ، في يومنا هذا .

بل إن التاريخ الفكري للبحث الاجتماعي السياسي عند الانكليز ، يتميز بأن الأدباء انفسهم فنانين وشعراء وكاتبي قصة — كانوا مدارس خاصة في التفكير السياسي ، تسمى **بمدارس الادباء** ، ليس (كارلايل) ، و (رسكن) ، و (ديكنز) و (موريس) في اواسط القرن التاسع عشر ، من افذاذها وخدمها ، بل هي مدرسة عميقة الجذور في تاريخ الانكليز ، حتى لا تكاد تقع على شاعر او فنان ، أو أديب ، دون مشاركة صغيرة اوكبيرة في البحث السياسي ، من ملتون ، إلى بيرون ، الى برناردشو وويلز ، عصراً بعد عصر ، وجيلا اثر جيل .

لن اتمادى في ذكر اسماء هؤلاء ومؤلفاتهم او بحوثهم ومشاركاتهم ، لان مجرد الفهرسة تستغرق مؤلفاً ، أو قاموساً ، وقد يحسن بنا الاجمال ، ونحن في تقديم هذه الجولة ، بأن إنشغال الادباء والفنانين ، والعلماء بالبحث السياسي ، غدا تقليداً راسخاً في الحياة الفكرية الانكليزية ، ترك طابعه الواضح في **تاريخ حياة العدد الكبير منهم وفي تاريخ افكارهم ايضاً** ، كذلك فقد جمع

كثيرون منهم بين السياسة الفكرية ، والممارسة العملية لها في تحمل المسؤوليات ، **فهم اذا جارتهم الدولة فيما يذهبون اليه رجال دولة ، واذا جارت عليهم ، فرجال صوامع ومناسك ، ينصرفون الى العلم والبحث والتأمل،** فاذا جاز لنا في هذا التقديم الوجيز ، لجولتنا مع (المثقفين في السوق) ، أن نصعد الى الينابيع لنرى من أين تحدر هذا التقليد الانكليزي ، امكن القول بأن القوم هناك تسودهم قناعة عامة ، ذات حدين : قومي ، وفكري ، هي ان **النخبة الفكرية مسؤولة** وان الديمقراطية او نظام التعامل بين الحاكم والمحكوم عملية تنوير مستمرة ، تتم باستجابة الجمهور للنخبة ، **فاذا انقطع سبب التواصل بتقصير من احد الجانبين ، الجمهور ، او النخبة ، بطلت الديمقراطية ، وانعدم وجود الحرية ، اذ ماهو الجمهور الذي لايستجيب لمثقفيه سوى شعب ميت ، وما عسى أن تكون النخبة أو الفئة الحاكمة التي لاتعطي النور أو لا تملكه سوى عصابة للشقاوة ، والظلم وقطع الطرق ؟ !**

ثمة وجه آخر من وجوه التقاليد الانكليزية في المدى السياسي ، العملي والفكري على السواء ، ان القوم يغلب على مذاهبهم ومبادئهم جنوح الى التجربة ، والتطبيق ، والخبرة المكتسبة من الممارسة والواقع ، **لذلك يقول مؤرخوهم في فلاسفتهم انهم مراءون** (١) يتقلبون مع الاحوال ، ويعطون الممارسة حقها الكبير على العلم ويفصلون على الغالب بين المثالية النظرية ، والواقعية التي تتدنى بالممارسة ، عن مستوى المثاليات ، او تناقضها احياناً .

ولعل عميد فلسفتهم السياسية (توماس هوبس) في كتابه المشهور (ليفياثان) (٢) قد قرر بعض القواعد التي اقام قومه على احترامها وهم يعودون اليها دائما الاستشهاد بها ، منها ان رجل الدولة ، مزيج من المواهب المكتسبة بالخبرة والممارسة ، وهي سرعة الخاطر ووضوح الاتجاه ، ومن الفضائل المكتسبة بالعلم والمعرفة واهمها الاحاطة بامزجة البشر ، وحقوق الحكومات وطبيعة الحق والقانون والعدل والعرف...

وقد وردت كلمات التجربة ، والخبرة ،

---

(١) بهذا حكم المؤلف المؤرخ ارنست باركر ، على هربرت سبنسر كبير فلاسفة الانكليز في القرن التاسع عشر في كتابه تاريخ الفكر السياسي من ١٨٤٨ الى ١٩١٤ .

(٢) هوبس ، ١٥٨٨ ـ ١٦٩٧ كتب في فلسفة الدولة والفرد ، ومارس السياسة العملية وهرب من بلاده ، ثم عاد بدعوة من كرومويل .

والفصل بين المثالية والواقعية ، او الملاءمة بينهما بلا تناقض ولا ضـــير ... في كثير من مذاهب فلاسفتهم وعلمائهم .

هؤلاء في السوق

هؤلاء المفكرون ، على اختلاف مشاربهم الادبية والفنية والسياسية ، ممن تربطهم بالحدث السياسي ، صلة يومية ، قوية اوضعيفـة ، اولا تربطهم ابداً ، كالشعراء والعلمـاء ، هؤلاء كلهم دعاهم اللغط السياسي الى النزول من ابراجهم ، او مغادرة قواقعهم ، ليقولوا كلمـــة صغيرة او كبيرة فيما يجب ان تفعله بريطانيا بلادهم في السوق الاوربية المشتركة ، التي نهضت في اوربة ، على اكتاف الفرنسيـين والالمان ، بيـنما الانكليز يجترون امجادهم ويشيحون بكبرياء عن اولئك الاوربيين على الضفة الثانية من مشوهي الحرب العالمية الاخيرة **الذين** ذاق بعضهم صاب **الهزيمة ، وآخرون لايزالون يعيشون كل اوجاع التشريد والتمزيق .**

عجيب كيف تزاح بريطانيا ، بضربة كتف ماهرة ، عن المسرح الاوربي ، وتتم اول محاولة جبارة من نوعها في تاريـخ اوروبـة الحديث ، وليس لبريطانيا ، فيها يد ولاقدم ، كأنهـا ليست الدولة التي امسكت بمـيزان التوازن الاوربي ولعبت بأقدار الممالك والملوك ، والساسة وابطال الحروب .

وتقوم المشادة بـين الانـكليز انفسهم حول دخول السوق الاوروبية المشتركة او عدم دخولها **وماهـي الشروط الـتي يجب عليهم ان يفرضوها ، او بالعكس ، ما هو الثمن الذي يجب عليهم ان يدفعوه .** وتستدرج الاندية العامـة رجال الفكر والعلم والفن ، الى معركة الـكلام ، كأن بريطانيا تشعر بتلك الحاجة الماسة الى نكهـة من الـكلام ، غير نكهـــة المهاترات والمكاسب الحزبيـة الـتي ملأت رحاب الساحات العامة . وتقدم الى منابر الـكلام بضع خمسين مثقفـاً من مثقفي الانـكليز ، ورثة ذاك الميراث الضخم من الفكر السياسي ، ليقولوا رأيهم فيما يجب على بريطانيا بلادهم العظمى ان تفعل؟!

ان سوقاً اقتصادية ناجحة قد قامت في اوربة وضع الاوروبيون كل ذكائهم وخبرتهم من اجلها لتفلح وتنجح وتستمر . **فهـــل هي سوق اقتصادية ام سياسية ام كلاهما ؟!** (١)

وهل يجب ان تقف بريطانيا ، على ابواب السوق كأنه لايعنيها اقتصاد اوربة ولاسياستها . اصحيح انه لايعنيها وكيف يعنيها ؟ وماذا يمكن ان يقول شـاعر ، رسـام ، وفيلسوف ، وعالم ، ومحلل نفساني وكاتب روايات ، وقصص ؟!

واحد وحده من خمسين قال بـكل جفاف علمي ، لايعنيني الموضوع . **ادخلنـــا**

---

(١) الحلقة الاولى من الموضوع في جولةالشهر ، العدد الماضي — الثاني عشر - من السنة الاولى —.

السوق ام لم ندخل ! لاتهمني السوق ، ولا يعنيني ماذا سيحدث ..؟!

وأجاب كل الآخرين على السؤال الكبير . **اكثر من اربعين نصحوا بدخول السوق ، واقل من عشرة ، اشفقوا على العظمى** أن تدخلها وقد نزعت قفازيها ، وحذائيها ، وغطاء رأسها ووقفت كالخاطئة الذليلة ، في محراب التوبة ، تطلب الغفران ، وتقسم انها ستكون ارملة بارّة !

الآراء وانشاؤها

سنحاول الآن تقديم آراء المثقفين الانكليز تقديماً إجمالياً بخطوطها العامة المتوازية والمتعاكسة ونوردها مردفة بأوجه حججها ومناهيها ، ثم نحاول في المرحلة الثانية أن نقدم بعض هذه الآراء بصيغ انشائها الخاصة ، اذ لاننسى أن هؤلاء المثقفين هم اصحاب صناعات انشائية ، تسبغ الصيغة الانشائية الشخصية عندهم على الفكرة الموضوعية ، طرافة وقوة ، وطابعاً مميزاً .

الآراء في السوق

١ ــ مما يميز مجموع هذه الآراء أن لم يتردد اصحابها ، مهما كانت حوافزهم النفسية او العقلية ، في اطلاق الرأي مع دخول السوق أو البقاء خارجها ، إلا نفر ضئيل لايتجاوز الثلاثة يرى أن **المسألة عاطفية ، اكثر منها** عقلية او حسابية ، لأن المجاهيل فيها كثيرة والاحتمالات الواقعية بعد الدخول ، اكثر فاكثر . لذلك اعلن هذا النفر تردده بين الخوف على بريطانيا من العزلة ، والخوف عليها من المغامرة في عالم معاد . وأن اي قرار يعزم عليه ، سيجد **عند التطبيق**مبرراته القوية .

٢ ــ هناك فريق الحاسبين ، ينظرون الى المسألة في ضوء مصلحة بريطانيا وحدها ، ويقولون ان بلادهم أمام بديلين ، اولهما ايجابي لأن الدخول سيفسح لبريطانيا إمكان الامساك بقيادة اوروبة ، بوصفها الدولة الاكثر ذكاء وتجربة وقوة ، كما انه سيفتح لها اسواقاً اقتصادية واسعة . وثاني البديلين **وهو** سلبي لأن الدخول قد يؤدي الى ضياع **الشخصية البريطانية العظمى** في نظام ديموقراطي وحدوي ، تتساوى فيه (اللوكسمبور) مع الدولة التي لم تكن تغيب الشمس عن امبراطوريتها ذات البحار السبعة ! كما أن الدخول يؤدي حتما إلى اضعاف رابطة (العظمى) بالكومونولث البريطاني ، وبذلك تنتهي سيرة الانكليز مع القارتين السمراء والسوداء !

٣ ــ يسود اجوبة المثقفين ، على مستوى علمي اوأدبي ، أن موقف بريطانيا من السوق الاوروبية المشتركة ، **موقف سياسي ،** لا اقتصادي . لأن الفوائد الاقتصادية من الدخول وعدم الدخول ، غامضة الملامح حقاً ، أو لأن هؤلاء المثقفين ، يجهلونها او لايفهمون

لها وزناً . يبقى أن المسألة الانكليزية الاوروبية، سياسية في المقام الأول ، وعلى هذا الأساس يجب تقرير موقف بريطانيا من اوروبة الموحدة. بل قد أخذ هؤلاء المثقفون ، في معظم اجوبتهم، ينعون على التجار والاقتصاديين حسابهم الدخول، بالأرقام والأرباح وحدها . وان احدهم مثلا ـ جون ابسورن ـ يقول : **لا أفهم الحجج الاقتصادية ، فكيف بها اذا تناقضت مع السوق وضدها ؟! ومهما يكن الأمر فالاقتصاديون من ماركس الى يومنا هذا ، ومن مختلف المذاهب والاتجاهات ، برهنوا على انهم انبياء كاذبون ، واخلاقيون سيئون ..!!**

٤ ـ فلنحاول هنا إجمال الفوائد والمحاذير السياسية ، في عبارة يسيرة ، مقطرة من ركام تلك الأقوال الكثيرة :

أ ـ نبدأ بالمحاذير لأنها كما وردت على لسان المثقفين قليلة ، ابرزها أن بريطانيا ستضحي بالكومونولث الكبير على مذبح **العصبية الاوروبية** واقتصادياتها الانحصارية . لأن السوق الاوروبية المشتركة بالاصل ، محاولة اساسية للاستمرار **في التفوق الاقتصادي الاستعماري ،** الذي نزع منه التفوق العسكري . ولا بد لبريطانيا في السوق المشتركة من الانسياق في سياسة اقتصادية اوروبية معادية حتماً لاقتصاد الملايين في الكومونولث البريطاني . **وعلى هذا الاعتبار فان بريطانيا التي ستخسر نفوذها الاقتصادي في هذا الكومونولث ، ستخسر معه نفوذها السياسي ، تبعاً .**

.. وهل تعوضه ، في اوروبة ؟! من يدري !

ب ـ ومن اهم المحاذير أن محاولة بريطانيا كسب زعامة لها او قيادة في اوروبة الموحدة ، مغامرة لا طائل وراءها . فلن تتمكن (العظمى) من اي قيادة او أي تأثير ، بل من المرجح انها ستفقد شخصيتها ، وتميع في التيار الاوروبي الجارف ـ وعلى كل حال فان التشاؤم من المصير البريطاني ، محسوب على رأي القلة من اصحاب الاستفتاء ، يبقى ان معظمهم الى جانب التفاؤل كما سنرى من وجهات نظر اصحابه ـ

ج ـ أما الفوائد والمغانم فهي كثيرة . وأهمها ، مما تردد في اقوال نخبة من المثقفين ، أن بريطانيا ، باعتدالها ، وحرصها على قدسية النظام الديموقراطي الذي كانت دائماً راعيته وحاميته ، ستكون وحدها ضمانته القوية في مستقبل الوحدة الاوروبية ضد تيارين يحاولان تبديل التقاليد أو هدمها هما : **التيار الديكتاتوري الفردي ، والتيار الشيوعي** : فاذا كانت فرنسا والمانيا وايطاليا ، هي الدول الأقوى في مستقبل الوحدة الاوروبية ، وكانت الأحزاب الشيوعية من جهة والكاثوليكية من جهة ، هي الأحزاب المرشحة لكسب الأكثرية ، كما هو واقع ، فان لبريطانيا بين هذه المشادة الحزبية العنيفة دوراً رئيسياً في ازالة التناقض ، وترجيح الاعتدال ، لاسيما

اذا دخلت بريطانيا الميدان الاوروبي الجديد ،ومعها الدول الاسكنديناڤية السائرة في الخط الانكليزي الديموقراطي التقليدي ، ضد دكتاتورية اليمين ، وشيوعية اليسار .

د ـ **ومن اهم المغانم المرتقبة** ايضاً أن بريطانيا ستجعل من القوة الثالثة ، ـ القوة الاقتصادية والسياسية بين الاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة الأمريكية ـ قوة ايجابية ،ضد أي نزوع الى التعصب والتأقلم الأوروبي لأنه مع الشعور بالحاجة إلى نهضة اوروبية تسير في سمت الوحدة السياسية ، وتتحرر من نفوذ الكتلتين الجبارتين ، يجب ألا تتطاول الحاجة الى خلق قوة ثالثة محاربة ، قد تؤدي الى تفكيك التضامن الغربي التقليدي ، ضد الكتلة الشرقية السوفيتية وليس الا ببريطانيا ، تنتظم الوحدة الاوروبية في مكانها الطبيعي دون ان تنمو كورم خبيث في قلب الجبهة الغربية .

ويلاحظ ان هذا التيار الفكري الموجه ضد الكتلة الشرقية ، لايريد أن يعترف للولايات المتحدة الامريكية ، **بزعامة التصرف بالعالم الحر** ، بل لابد من وقف مطامع الغرور الامريكي ، الذي لاهم له ولا هدف سوى ان يرمي العالم في حرب عاجلة او آجلة ضد الشيوعية . وفي رأي بعض المثقفين او الكثرة منهم بالاحرى ، أن المشاركة البريطانية الاوروبية ستحقق هدفين اثنين معاً : **الحد من الغرور الامريكي ووقف المد الشيوعي** بلا حرب ـ على الاقل ـ اذ يجب ردع الجهاز العسكري الامريكي ، عن مغامرة جنونية يجر اليها العالم .

فالامر اهون من ذلك ، لو عقل العالم الغربي ، وتوفرت لأوروبة عناصر العمل الايجابي .

هـ ـ من الاهداف العزيزة الماثلة في جانب المغانم ، **تحقيق وحدة سياسية اوروبية** لايضير بريطانيا ان تفقد فيها عظمتها وشخصيتها ، اذ من المؤكد ان الفضائل البريطانية ، ستتعمم عن طريق اوروبة ، كما تعمم ادب شكسبير ، وعلم نيوتن والوحدة الاوروبيـة ، اعظم فائدة من الامم المتحدة نفسها ، بل انها سبيل الى تدعيم المنظمة العالمية ، وتوجيهها للخير والبناء .

وفي رأي بعض المثقفين أنه على بريطانيا ان تعطي شيئاً من سيادتها لخلق (البرلمان الاوروبي) وان ذلك لن يضعف بريطانيا ، **بـل يقوي النظام الديمقراطي في العالم .**

ويدخل احد المثقفين روبرت بولت في معركة الاحزاب ، ضد حزب العمال البريطاني الذي يحذر بريطانيا من خسارة نفوذها السياسي مع اوروبة ، فيقول : لماذا نخسر ؟ أبمثل هذه السهولة نفقد قوتنا السياسية ؟! ومع ذلك ... فلأن اكون اشتراكياً في ظل (منديس فرانس) ، افضل عندي من ان اكون اشتراكياً في ظل (غيتسكل)..

و ـ **ثم لاينسى بعض المثقفين** ان يعلنوا يأسهم من مصالحة ممكنة مع العالم الآسيوي

الأفريقي وهذا البعض يدعو الى وحدة اوروبية تقي نفسها شر العداء المتصاعد نحو اوروبة من آسيا وافريقيا ، لأن الاجيال القديمة التي تكره الدول الغربية على انها دول حرب وظلم واستعمار ستعقبها اجيال جديدة ، لاتعرف شيئاً عن فضائل اوروبة ، مثلما عرفت الاجيال القديمة وستكون اشد عداء ، واعنف كرهاً . ويقول اصحاب هذا الاتجاه ان **العالم الاستعماري** العتيق ، يجب ان تؤلف دوله رابطة جديدة ، تدافع عن كيانها وبقائها مجتمعة ، والاخسرت مصالحها كلها ، دولة تلو الاخرى ، **دون ان تحرك امريكا أصبعاً صغيرة للدفاع عنها . اذ مما لاشك فيه ان اخراج اوروبا من آسيا وافريقيا ، هو الهدف الوحيد الذي تلتقي عنده كفا موسكو وواشنطن.**

وفي تحليل نفساني جيل ، يقول احد المثقفين – بيرغراين روستون – ان الدول الاوروبية العتيقة مصابة بمرضين معاً : مرض الشعور بالذنب نحو شعوب المستعمرات القديمة ، ومرض الحلم بامجاد بالية ، ونحن انما ننشد لانفسنا اوروبة جديدة متحررة من المرضين معاً . فما مضى قد فات وانقضى ، ويجب ان نشفى من الشعور بالذنب والشعور بالعظمة . **والكاتب لايريد وحدة اوروبية من اجل استعمار جديد مقنع بل كتلة مصلحية ، روحية ، ثقافية ، من دول متماثلة جسداً وروحاً تؤمن عن حق بأن الامبريالية العتيقة قد ذهبت الى الابد ، وان موقف اوروبة موقف دفاع مشروع عن النفس .**

ذ – ومن بعض الفوائد من دخول بريطانيا السوق المشتركة ، والوحدة الاوروبية السياسية كما يلخصها بعض المثقفين ، ان **الدخول رياضة وشفاء من مرض العزلة** ، ويقول أحدهم – ميكائيل يونغ – ان بريطانيا عام ١٩٥٠ ، وعلى الاخص بعد حرب السويس ، اصيبت بالتشنج والتقلص ، والانكماش ، وحب العزلة الجزرية – بالنسبة للجزيرة البريطانية – وقد يكون محتملا مثلا ان نصاب بالتقوقع الجزيري ، ولكنها مصيبة ان يقترن هذا الانكماش بشعور التفوق... والتفوق على اوربة بوجه خاص. ان تماس بريطانيا مع الحقائق يكتنفه اليوم ضباب خرافي فلتخرج بريطانيا من هذا الضباب ، ولتلق نظرة من النافذة على مد البصر : هاهي امامها اوروبة بحقائقها . وانها لفي حاجة الى ترويض عضلاتها وتحريك دمها ، وتنشيط صناعتها وثقافتها **والى العودة العاجلة الى الاهتمام بالعالم ، بدلا من الاهتمام بنفسها وحدها ..!!**

هذا ليس كل شيء ..

لم نستنفد بعد جميع الحجج واساليب عرضها ، من جانب الدعوة الى اوروبة وسوقها ووحدتها فلا تزال ثمة آراء جديرة بالعرض والتقديم ، بالاخص اذا عرضت بأساليبها الانشائية التي لاتخلو

أبداً من المرارة ، وارغبة في اهانـــة النفس ، وتعفير الشعور بالعظمة .

على أن الجانب السلبي من موقف المثقفين الانكليز ، ليس اقل طرافـة وحدة وشوراً بطعم الدم والمر . ولعل أهم مايطرف العين في هذا الجانب من ومضات فكريـــة ، أن الدعوة الى **وحدة اوروبية في الضفة الغربية منها ،** ليس وحدة، بل تمزيقاً للوحدة،وليس توسعاً بل تضييقاً ، وليس تجميعاً على مستوى عالمي انساني ، بل تفريقاً على اساس عصبي اقليمي ، اذ كيف تتجمع اوروبة في ضد دون أخرى ، دون أن يصيب التمزق جسد اوروبة وضميرها !!

كذلك في الجانب السلبي من يقول للمتفائلين ان بريطانيا التي تزعم لنفسها رسالة انقاذ اوروبة من امراضها ، ستكون نفسها معرضة لان تصاب بهذه الامراض ذاتها ، فتنهار وتنهار معها اوروبة. اليس من الخير أن تبقى بعيدة عن مناطق الوباء، حيث لاتطاق الاقامة قط مع رجلين من طراز دوغول واديناور ؟؟

ان جولة ثالثة ، مع **(المثقفين في السوق)** لابد منها . وقد نستطيع في الجولة القادمة ، أن نتوسع في عرض نمـــاذج من اساليب التعبير والانشاء في كلا الجانبين الايجابي والسلبي ، من موقف المثقفين الانـكليز .